
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
محمد جعفر
مزامير الحجر
رواية

مزامير
الحجر



طبع في لبنان



رواية

محمد جعفر

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-02-1303-6

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions. elikhtilef@gmail. com

"أنا عاهل الأشياء التي قلتها وأحتفظ بسلطة رهيبة عليها: سلطة قصيدتي، وسلطة المعنى الذي أردت إعطاءها إياه."

ميشيل فوكو

تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي

ها هي امرأة عارية تقتحم علي خلوتي وكأنها طلعت من قرار بئر لتتجلى أمامي في شيطنة. مأخوذ بها وبالمفاجأة أتأملها. لا يبدو وجهها جميلا إذا أخذنا بمقاييس الجمال وإن كنت تشعر نحوه بالألفة. بها بعض السُمرة. وأما شعرها فمنسدل طويل أسود لامع. أحاول أن أركز على ما يمكنه أن يكون أكثر إثارة فيها. أنتبه إلى شفتها السفلية المكتنزة والمشققة. أطالع رقبتها الطويلة والخال الصغير المطبوع عليها إلى جهة اليمين. أُؤخذ بنهديها النافرين في استهتار الواهنين بعدما ضاقا بالعربدة، وأنوِّه بحلمتيها وبلونهما البني الغامق واللتين لا يمكن أن يرغب فيهما إلا من كانت له أضراس قوية، فلن يرضيك إلا أن تعاملهما كما تعامل حبات فول سوداني محمص بشكل شهي ومغر. تقضمهما مستفزا.. يسقط نظري على خصرها المستدق وأتأمل بطنها المشدود وأخمن كم كانت معنية - صاحبتي - بتمارين الأيروبيك والحمية، ثم لا ألبث أن أقفز على كل ذلك لأستغرق في متابعة بظرها الذي يختفي وراء شعر كثيف وكث. وأتساءل هل هي غرة إلى الدرجة التي لم تفكر فيها في حلاقة ما يجب حلاقته ولا مرة.

لا ألبث حتى أتعرف عليها. هي نفسها الجارة القديمة. أحاول أن أتذكر اسمها الذي يحضرني دونما تعب. ميلودة.. الغريب أنها لا تزال تحتفظ بنفس تفاصيل ذلك الجسد الشهي والعذب الذي لطالما راقبته وتطلعت إليه مستعينا في كل مرة بحيلة مبتكرة متى وجدتها

تحضر لبيتنا بغرض الاستحمام إذ أن مسكنهم لم يكن يتـــوفر علـــى حمام مناسب. وأعترف أن هذه المرأة وطـــوال ســـنوات مـــراهقتي ويفاعتي بقيت وجسدها يشكلان العالم الذي ظلت تدور حوله كل تخيلاتي الجنسية، ثم لا أدري كيف اختفت فجأة من خيالي كمـــا لا يمكنني أن أفهم كيف عادت اليوم! خاصة أنها وهي تقف الآن أمامي ما عادت تثير فيَّ أي شهوة. كما لا رغبة لي فيها وكأنها موضـــوع خارج عن السياق والزمن.

هل عليّ أن أقول إن هذا ما كان ليحدث معي سابقا!.. هـــل علي أن أعترف أنني كنت دائما ضعيفا أمام أنثى، أســـيراً لجســـدها وعبدا لنزواتي!.. ربما، وإن كنت حقا لا أستوعب ما يحصل معـــي اللحظة. هل بدأت جذوة الرغبة فيهن في الزوال، وهل سيقرأ علـــي قريبا السلام؟

لا أستغرق في هذه الهواجس. لا أخمن فيها كثيرا، ولا ألبث أن أطردها من عقلي. وهذا ما يتحقق معي سريعا، وقد كنت من قبل – وأنا هنا أعترف متوخيا المزيد من الصدق – نادرا ما أوفق في تحقيق مثل هكذا رغبة.. رغبة لم تكن كما ظاهر اسمها، فهي حينما كانت تحضرني كانت تبدو أكثر شذوذا من تلك النـــوازع الـــتي كانـــت تتملكني وتقسو علي ولا أعرف كيف أقاومها، فلا يكون خياري إلا استسلامي لها (النوازع)، حتى إذا أنهكتني قامت بتجـــاوزي، بينمـــا أبقى أنا مستغرقا في حالة الذهول والخمول التي تعقب النشوة.

أفتح عيني. تطير المرأة أو تتلاشى كشيء لم يكن. تغيب أم تعود إلى الزمن الذي حضرت منه. ولا يعود من شيء يعنـــيني في زمـــني الراهن إلا تلك الرائحة التي لا أدري من أين أخـــذت تتســـرب إلي

وتأتيني مسببة لي النفور. رائحة اللحم المقدد والمجفف التي لم أحبها يوما!

أجلس الآن في العتمة. غابت الشمس قبل أكثر من ساعة، ورغم ذلك لا أفكر في فتح النور. أريد أن أتنصل من حدودي وأضيع وسط الظلام الذي يلفني في عباءته ويمتص كل شيء من حولي، ولا يبقي إلاَّ على حواسي متيقظة.

وحدها الظلمة – حين تسود – لها القدرة على إذابة لون المدينة الزعفراني القذر الذي لا بهجة فيه، والذي يغلف مزاجي ويمنحني ألف علة للعبوس كل يوم.

أتراني سأفلح في كتابة شيء من الاعتراف الليلة؟

أتساءل في نبرة ميتة لا توحي بشيء، وأنا أستعيد وجعي وما أهرب منه. وأجدني كالعادة غير قادر على مجابهة فكرة الاعتراف وما تمليه.

لا أملك الشجاعة اللازمة لذلك، ولهذا أوّل شيء أنزع إليه.. الهروب.

أهرب. أتوجه إلى دورة المياه. ودون أن أهتم بغلق الباب خلفي أفتح أزرار سروال الجينز الذي ألبسه وأتبول. أشعر براحة عميقة تتسرب إليّ.. راحة لن تفوز بها حتى بعد مضاجعة كبيرة أو صلاة طويلة.. راحة لن تُمكن منها إلا في بيت الخلاء اللعين وحده.

يعترضني جوعي. أعرج على المطبخ. أفتح الثلاجة. لا شيء فيها يصلح للأكل. ربما تفيدني القهوة قليلا. أحدث نفسي، وأنا أهم بفتح "الترموس" لأصب ما تبقى منها في فنجان، فلا أحظى إلا ببعض القطرات والثمالة.

أعود سريعا إلى غرفتي هنا في منزل العائلة بحي النخيل والـذي انتقلت إليه قبل عدة أيام. أحتجب من جديد، وأسكن الظلمة الـتي تشبه السواد الذي يغشاني.

إنه يولّد لدي حزنا مخبوءا هذا الليل!..

أحدث نفسي بذلك مع إدراكي أن ما يزعجني شيء آخـر لا علاقة له بهذا الظلام المسالم. ومِن ضيقي أهرع إلى النافذة أشـرعها؛ ولا يعنيني إلا أن يجود عليّ الليل البهيم بنسائم تبرد نـاري وتطفـئ احتراقي. وفي السماء تطالعني النجوم والقمر..

أتصور أني لا أفقه في لغتهم والتي استعصت علي ساعة تجاوزت مراهقتي وأجبرت على لعب دور آخر غير دور الضحية أو العاشـق. كذلك أعتقد اليوم أن تلك اللغة لا تليق إلا بالفـارغين واللاهـين والحمقى الذين ما عدت أشبههم.

أنتبه إلى لغط مصدره الجانب الآخر من الحي، وتداهمني أصوات المتسامرين في نشاز.

كل ما تفعله هذه الأصوات أنها تتسبب في قلقي وتمنحني تعاسة إضافية أنا في غنى عنها، وتجعلني أفقد توازني فأكب علـى وجهـي مرتطما بالأرض أشد ارتطام.

أغلق النافذة. الحرارة أهون من الفوضى التي تقتحمني وتشـتت انتباهي؛ فلا شيء يعنيني الآن غير الكتابة التي يجب الإصرار عليها ما دامت ملاذي الأخير.

يقولون إن الاعتراف لا يكون إلا تحت التعذيب، وأعتقـد أني أتعذب حاليا ومكره على البوح لأني لم أعد أملك زمـام نفسـي، ولولا ذلك لفضلت أن أكتم ما في صدري إلى آخر العمر.

وحده الاعتراف الذي سأكتبه يصلح لي. وهــو أهــون مــن الخراب الذي أعيشه، ومن فائض الخراب الذي سيحل لاحقا. وأنــا مستعد للتعري، وإن كنت أعتبر أن الأمر كله موكول إلى هذه اللغة اللعينة والتي لا أعرف إلى أين سيقودني هدرها!

عليّ أيضا أن أهتم بالتفاصيل، إذ ما من سبب لما أنا فيه اليــوم غير تفاصيل صغيرة أهملت في حينها و لم تعالج كما يجب.

سيروقني لو أكتب وأنا أدخن سيجارتي الأولى في هذه الليلــة. تلك السيجارة التي قمت بلفها صباحا وجعلتها تنتظر مــع ســجائر أخرى بين طيات أوراقي. وللأمانة أعترف - ولعله اعتراف تمهيدي أقيس به مدى شجاعتي وعزمي وإصراري - أني لم أكن من المدخنين لكن حديثا صرت. وسعيد بتعرفي على "موح" الرجل الذي يســكن قبو عمارة تقابل منزل العائلة ويزودني بــ "الكِيف"، فــلا شــيء يضاهي جودة ما يورده لي.

أعرف مسبقا أنه عليّ أن أنتظر النفس الخامس. بعده ســأتحرر تماما وسيجري قلمي. وبعد أنفاس أخرى سأكون قد كتبت كل ما أعجز عن التصريح به في حالة الصحو الثقيلة.

***

لا أظن أني سأنام الليلة. على الأقل ليس قبل أن أنهي تدبيج هذا الاعتراف..

أعرفُ أني أفتح باب الجحيم على مصراعيه، لكــن مــا عــاد يهمني شيء. فقد سبق واعترفت للزوجة. أخبرتهــا بــأني لســت الروائي الذي تعتقده، كما أخبرتها أني لست من ألف رواية "ميــدان السلاح".

بدت غير مصدقة لما أقول وأنا أسرد عليها تفاصيل قصة غريبة راحت تسمعها مني لأوَّل مرة. كما ترجتني يومها أن أتوقف عن رواية هذه الدعابة السمجة، فهي لا تروقها بالمرة. أما أنا فواصلت مرغما وبِهمّة فاترة وبمزاج معكر. وكنت أرمي أمامها بكل شيء كمن يستعد للهرب. وقبل أن أنهي كلامي كانت ملامحها قد تغيرت. وبدت زرقاء كابية كمن غادرتها الروح.

بعد ذلك لزم كلانا الصمت. كانت قد وقفت أمامي لدقيقة واجمة و لم تعلق بشيء، ثم قامت تغادرني إلى فراشها دون أن تقول كلمة واحدة. وهناك على السرير لم تنس أن تمنحني ظهرها.

في تلك الليلة القريبة بقيت الليل بطوله ساهرا. كنت أحاول أن أطمئن حالي أن العاصفة قد مرت بسلام. وحدثت نفسي أنه لم يعد هناك ما أخشاه. واعتبرت ثِقل السر قد انتفى نهائيا. وفي الصباح وقبل أن أرشف قهوتي. بل قبل حتى أن يتسنى لي غسل وجهي وجدتها تعود فتقف أمامي. وكنت لا أزال على سريري عندما أخذت تطالبني بالطلاق.

نظرت إليها أستطلع كم هي جادة. ووجدتها جادة أكثر من اللزوم. ولعلها قضت الليل بطوله تفكر. واعتبرت ما راحت تطالبني به قرارا انتهت إليه. ولا أدري هل أنصفتها حينما واجهتها بقولي: "أنت طالق."..!

لم أشأ أن أخيبها؛ كذلك لم يكن من الممكن أن أقلق وحدي. ليحل الزلزال. هذا ما كنت أحدث به نفسي في تلك اللحظات.

قمت بعد ذلك بجمع بعض أغراضي وما أحتاجه على عجل، وكدسته في حقيبة كيفما اتفق. وما ظل يعكر صفوي حين خرجت،

أني اضطررت أن أتنكر للعادة التي أدمنتها في المدة الأخيرة. وكنت اعتدت شرب قهوتي على مهل، كما اعتدت تدخين سيجارتي الأولى من غير عجل. ولذلك فأوّل شيء قمت به بعدما وضعت حقيبتي في صندوق سيارتي أن عرَّجت على أول مقهى صادفته. هناك تأخر علي النادل حتى فكرت في الثورة. كنت لأصب عليه غيظي لولا أني وجدته فجأة انتصب أمامي. أخذ يبتسم في وجهي ينتظر طلباتي. وانتبهت أن لا علاقة للرجل بما يخنقني ويضيق علي. أخيرا طلبت قهوتي وأشعلت سيجارتي ورحت أنشد الهدوء وأنا أنصت لأغاني متنوعة تبثها محطة "مي دي أن" الإذاعية في فقرهًا الصباحية. وأما الزلزال فقد تركته خلف ظهري ونأيت بعيدا عنه.

كنت قد انتقلت إلى عالم آخر. فعلتُ ما يجدر بِلاعب كرة المضرب فعله. ليس عليه أن يتوقف عند الضربة الأولى الفاشلة من مضربه، بل عليه أن يستعد للضربة الموالية في الحين. ليس عليه أن يلتفت إلى الخلف حتى لا يتلقى هزيمة جديدة.

***

لا، لست كاتبها..

هكذا أعود فأقولها. وإن شئتم، فانظروا إلى الأمر على أنه صحوة ضمير متأخرة. ولا بأس إن رأيتم أيضا أني مجرد منتحل صفة وبائس وضيع سطا على عمل سواه لا يجب لفت الانتباه إليه حتى لا يصير قضية الرأي العام الأولى.

لكم أيضا أن تحسبوا في كلامي هذا شهادة خطيرة لا يجوز السكوت عنها، وأن ما أكتبه اعتراف بالسرقة مع سبق الإصرار والترصد وجب الوقوف على الجاني فيه حتى يدفع الثمن المناسب.

أما اللئام والدهاة والحاقدون على كل شيء فأعرف مسبقا أنها فرصتهم وأنهم لن يصمتوا. حتى إن تحدثوا أمام الملء سيقولون إن الغرض من اعترافي هو الدعاية وفقط؛ ثم إنك ستجدهم أكثر الناس شراسة في التعامل مع اعترافي ولن يتوانوا في تأليب الجميع ضدي ولن يهنأ لهم بال حتى يشهروا بي.

والواقع أن الجميع سينتهي إلى وسمي بالسافل والحقير، على أني سأرضى بذلك ما دمت لست السافل والحقير الوحيد في هذا العالم.

اليوم لم يعد يهمني شيء، أو كل ما عاد يهمني هو أن أنتهي من اعترافي لأتخلص من ثِقل ظَلَّ يرهقني ويرهق روحي. وحسبي أن تعود إلي حريتي مجددا فأحلق في السماء كطير حر.

* * *

صدفة غريبة تلك التي أثثت حياتي قبل أكثر من خمس سنوات.

اعترضت سبيلي امرأة في عقدها الخامس. ولا بد أن هناك من دلّها علي. فقد وجدتها تنتظرني على بعد خطوات بسيطة من البيت. ما إن وقفت أمامي حتى دفعت إلي بمغلف ضخم قالت أن ابنها خلفه بعد وفاته وهي لا تدري كيف تتصرف به.

لم استوعب ما قالته ولا ما بادرت إليه، كما لم أجد مبررا كافيا يصوِّغ لي أن أقبل بما راحت تعرضه علي. وهتفت أسألها وأنا بين الارتباك والغيظ:

– لما أنا بالذات؟

لكني وجدت وجهها يشرق بابتسامة ذكية لم ألاحظها عليها قبل ذلك، وهي تقول:

– عندما تطلع على ما يحتويه الظرف سيصيبك الفهم..

في تلك اللحظة عنَّ على بالي أنها قد تكون تقصد آخر واختلط عليها الأمر. وفكرت لعله سيكون الوحيد القادر على استيعاب ما تريده هذه السيدة. وعندما عرضت عليها فكرتي قامت تنبذها بشدة. وحاولتُ التهرب مجددا فأخبرتها أنه من الأفضل في حالتها أن تبحث عن صحفي مناسب يرضى بمساعدتها.

لقد ظلت المرأة تعاند وبدت صلدة كحجر الغرانيت؛ فقمت أتسلم الظرف منها. فعلتُ ذلك على مضض وفي إذعان حتى استطيع التخلص منها والانصراف إلى شأني وأنا أقسم بيني وبين نفسي أن أرمي بمغلفها في أوّل مكب للنفايات أصادفه انتقاما من إصرارها العجيب ونكاية في عنادها المستفحل. على أنها حاولت لاحقا أن تفتك مني وعدا بأن أنظر إلى الأوراق متى تسنت لي الفرصة. وأجبتها أني سأفعل متى عدت إلى البيت. لحظتها تهلل وجهها؛ فكنتُ كمن يقف أمام صبية صغيرة تَقع على هدية جميلة.

لم أكن أدري حظُ من كان حينها، ولعلي تصورت أنه من حظ المغلف أني لم أصادف إلى حين عودتي إلى البيت أي مكب للنفايات أقدر على رميه فيه كما اعتزمت.

وفي البيت لم أستطع منع نفسي من النظر إلى ما احتواه الظرف، فقمت بفتحه. وكنت قد اكتشفت أمامي حزمة من الأوراق وما مجموعه مائتا صفحة مكتوبة بخط يد تصعب قراءته.

حاولت أن أفك طلاسم الأوراق الأولى. وبدا لي الأمر أشبه بقصة تُروى بطلها مسرحي اعتقدت من الوهلة الأولى أني أعرفه. كما أُرفق النص بمجموع حواشي وتذييلات مهمة ساعدتني كثيرا علي الاستيعاب. ووجدت نفسي مشدودا إلى ما أقرؤه ومدفوعا إلى

تأمل كل حرف كتب على تلك الأوراق رغم أني لم أكن مولعا بقراءة الروايات، فأنا وإن درست في كلية الآداب والفنون لم يكن يهمني من الدراسة إلا الحصول على شهادة ليسانس والتي تصورت أنها ستفتح لي مجال العمل، وكم كنت واهما.

أما تلك المرأة فلم تعد للظهور مرة ثانية، فكأنها تخلصت من حياتها بمجرد ما تخلصت من المغلف الذي سلمتني إياه. ولولا الأوراق التي ظلت إلى حين على طاولة مكتبي لقلت إن ما حصل له علاقة بعالم آخر كُتِب لي فيه أن ألتقي بهذه السيدة، أو أن للأمر كله علاقة بحلم ثقيل ترسخ لدي بشكل واضح حتى بات وكأنه الواقع. ولعل جُلَّ ما كانت ترغب فيه السيدة هو أن تتخلص من أمر الأوراق التي كانت عبئا عليها أو أنها كانت تنفذ وصية لا سبيل لي في أن أستوعبها. ولا أكتمكم أني صرت بعد ذلك مقيدا بالبحث عنها، واكتشفت لاحقا أني غدوت أتمثلها في صورة كل امرأة في مثل سنها أراها تقترب مني؛ ثم كان أن مرَّ وقت طويل على تلك الواقعة حدث خلالها أني أهملت الظرف وما احتواه، ولم أعد لألتفت إلى تلك الذكرى لولا أنه حصل ما جعلني أذكر الأوراق وأستعيد تفاصيل تلك الصدفة الغريبة.

تعرفتُ، وبعد فترة طويلة نسبيا من تلك الحادثة على حليمة التي صارت لاحقا زوجتي. وكانت حينها فتاة تشق طريقها في الصحافة.

التقيت بها بالصدفة. لم أنتبه إليها أول الأمر. وانشغلت وأنا أجلس بجانبها في حافلة كانت متوجهة إلى مدينة السانية على خط u، بتقليب صفحات جريدة "الجمهورية"، وهي جريدة جهوية تخص مدينة وهران وضواحيها. وحين انتهيت من الجريدة انتبهت إلى فتاة

وهي تسألني هل أستطيع أن أناولها إياها لتنظر فيها. قلَّبــتُ بعــض الأوراق على عجل، ثم لأنها وجدتني أتابع حركاتها قامــت تعــرفني بنفسها. وأخبرتني بأنها صحفية في نفس الجريدة وهي في طريقها إلى جامعة السانية لتغطية جانب من ندوة ثقافية سوف يكرم فيها عميد الرواية الجزائرية الروائي الطاهر وطار.

كانت جذابة وجميلة. ولا بد أنها كانت ستروق لكــل مــن يقترب منها. وأعتقد أني وجدت الأمر محفزا حين همت هي بالحديث إلي أولا. و لم أرد أن أصمت خشية أن أقطع كل تواصــل معهــا. وبدأتُ في التقرب إليها، وإن كنت أجهل السبيل للنيل منــها. وفي خضم حديث متشعب حول الأدب عموما وجدتها تقــول لي إنهــا سوف تكون سعيدة بلقاء كاتبها الأول، وهي معجبة برواياته. حينها فقط تذكرت المخطوط المهمل في زاوية ما من غرفتي. وفي محاولة مني لاستعراض العضلات وحتى أحوز على انتباهها كاملا ادعيت أن لي محاولات في كتابة الرواية.

بدت الفتاة مندهشة من هذه الصدفة الغريبــة، ثم نظــرت إلي تستطلع كم أنا جاد. ولأني رأيت منها ذلك واصلت عبثي وادعيت أن لي رواية مخطوطة جاهزة ومكتملة، ويسرني أن تكون هي قارئتي الأولى كما أنه يهمني لو اطلعتْ عليها ومنحتني رأيهــا فيهــا قبــل عرضها على أي ناشر.

كنت أناور لأفوز بموعد التقي فيه بها. وتلونت ملامح الفتــاة بالفرح ثم بانت عليها الجِدة وهي تقول إنها مستعدة لذلك. وبل أكثر من هذا بدت متلهفة أن تقع على عملي اليوم قبل الغد؛ فكــان أن تبادلنا أرقام الهاتف وتواعدنا على اللقاء لاحقا. حدث كل ذلك وأنا

قلق بشأن أمر قفز إلى ذهني فجأة. ماذا لو كان المخطوط قد ضاع مني بسبب لامبالاتي وعدم حرصي عليه. وصار هذا هاجسي ولم أطمئن حتى دخلت البيت. ووجدته مهملاً في كرتون ضخم احتوى أيضا على كل ما له علاقة بأيام دراستي الجامعية.

قامت حليمة لاحقا برقن العمل على جهاز الحاسوب بنفسها. تعمدت إهمال المقدمة والخاتمة والهوامش الملحقة به لاعتقادها بأنها زوائد مقحمة تثقل النص الأصلي. كما عمدتْ بعد ذلك إلى الاتصال بأحد الناشرين. ولا أدري كيف استطاعت إقناعه بنشر الرواية، لأنها هاتفتني بعد ذلك وأخبرتني أن الرواية عند الناشر وهو ينتظرني في يوم الغد لإمضاء عقد النشر.

كنت قد حدَّثتها وخلال لقاءاتنا برغبتي في نشر الرواية، كما أخبرتها بجهلي المطلق بعالم الكِتاب والنشر. وربما هذا ما خولها أن تتجشم عناء ذلك وتسعى في الأمر بنفسها.

لم أشك يوما في محبة حليمة لي، كما لم يخف علي سر الدافع فيما أقدمتْ عليه. والأكيد أنها بتصرفها تصورتْ أنها تقدم لي الحب مجسدا كما اعتقدتْ أنها بذلك سوف تفاجئني بهدية العمر كله. وتوجهتُ في اليوم التالي إلى مقر دار الغرب للنشر. أذكر ذلك اليوم جيدا، ولا أكتمكم حجم الفزع وهو يغشاني عندما قمت أوقع على أسفل مطبوعة أعدت سلفا باسمي على رواية لم يكن لي حتى حظ اختيار عنوانها.

كانت حليمة من تجرأ ووضع ذلك العنوان الذي نزلت به الرواية إلى السوق. وأقصد "ميدان السلاح". وكمن لا حول له ولا قوة اكتفيت بإظهار امتعاضي لكنها أفهمتني لاحقا أنها أصرت

عليه بعدما أبدى الناشر تخوفه من العنوان الأصلي للرواية وطالب بتغييره.

"أُرتِقُ جُبَّة الله" كان العنوان الذي وُضِع أوَل مرة على غلاف الرواية، وكنت أوّدُ لو احتفظ العمل به، كذلك وجدت أن العنوان الآخر والذي اختارته حليمة يليق أيضا بالنص ويمثله. وهادنت لأجل أن يرى العمل النور؛ على أني لاحقا، وبيني وبين نفسي لم أستطع أن أتحمل ما كنت أراه أشبه بالمهزلة. لم يكن الأمر يروقني. وكنت مشحونا ضدي. ولهذا عندما وصلني خبر صدور الرواية عزمت وتوجهت إلى الناشر، وطلبت منه إبطال عملية توزيع الكتاب.

وجدته ينظر إلي في استغراب ودهشة. ولا أظنه اهتم بسؤالي عن الدافع، لأن عقله كان يعمل في اتجاه آخر يخصه. وطلب مني صراحة أن أتحمل نفقات النشر والأتعاب فيكون لي ما أريد. ولم أكن حينها أملك فلسا واحدا، فوقفت مكتوف اليدين أمام حالة انفلتت مني وقامت تتجاوزني بعيدا.

كنت قد تركت الأمور تمضي لحال سبيلها، ورضيت أثناء ذلك بدور المتابع. وهكذا تم نشر هذا العمل جراء أخطاء متتابعة؛ ثم حدث أن وجدت نفسي في الواجهة والتي حاولتُ أن أستعد لها. وكنت كمن يدخل عراكا ضد شخص أضخم منه بنية ويفوقه قوة. ليس عليه في تلك الحالة إلا أن يحجب بذراعيه وجهه ويكتفي بتلقي الضربات.

* * *

كذلك، لا يمكنني أن أكتمكم..

لقد صوَّبت تلك الواجهة التي وجدت نفسي فيهـــا قـــاطرتي. جعلتني ألتفت للأدب الذي لم يشغل يوما اهتمامي و لم يكـــن مـــن أولوياتي، كما جعلت من الرواية رديفي الذي لن أقايضه بأية لعنـــة جميلة أخرى. أما الثقة، فقد منحني إياها عمل في الأصل لـــيس لي. ولولاه لما صرت – أنا الذي دخلت عالم الإبداع متجنيـــا- كاتبـــا مهنته كتابة الروايات، ولما عُرفت باسم الروائي.

ثم ماذا سيكون لي لأفعله لو امتد بـــي العمر إلى ذلـــك الحـــد الثقيل، وخصوصا إذا ما ظهرت معه أعراض مثل الضغط والسكري وتصلب الشرايين والأطراف والتبول اللاإرادي والرعاش المزمن الذي بدأت بوادره اليوم قبل الغد، وهي أعراض سيكون لي حظ وافر منها بسبب القلق والتوتر والأعباء التي تجشمتها في حياتي والعمل الشـــاق الذي أجبرت عليه لسد حاجاتي!

.. لا يمكنني ساعتها إلا أن أتسلى برواية سيرة حياتي، وسأظل أتحدث عن كتبـــي التي حصل وأن نشرتها إلى كل شخص ألتقي به. ثم أليس هذا ما نفعله كلما داهمنا العمر. نعتاش على الذكريات؛ على أن هذه الرواية ستكون كأعظم ما حدث لي. ولهذا علي هذه المرة – أنا الذي عدت عاطلا لا يصلح لشيء – إلاَّ أن أهبها شيئا من وقتي وروحي، فأعيد تشكيلها من جديد غير قانع أو مقتنع بالطريقة الـــتي كتبت بها أول مرة ولا بالشكل الذي ظهرت عليه وقتها من باب أنها لم تعد تعنيني إلا أنا وحدي (وحسبـــي أن ما تعلمته خـــلال هـــذه الفترة، ليس هينا بالمطلق). كما سأضيف إليهـــا المقدمـــة والخاتمـــة ومجموع الهوامش والتذييلات التي أسقطت عنها والتي أرى أنها مـــن

صلبها. وأما ما سوف يحدث لاحقا فلا تحدثوني به، فأنا ما عــدت أملك اليقين، أو أني كنت أراه دائما في الطرف الآخر مــن العــالم حيث لا يزال كل شيء مخفيا عنا. وأما عن الصدفة فإني أعود وأقول إني كنت أؤمن بها ولا زلت؛ كما أني سأظل أدين لها بــالكثير. وإلاَّ ما كان ليظهر لي هذا العمل الجديد على أنقاض عمل قــديم وهــو يحمل اسمي أيضا!

مزمور الاستهلال

أعرفُ، لم يبق لي من العمر إلاَّ النزر القليل..

كنتُ أعتقد قبلاً أن حياتي رهينة الغد، حين يحل فقط يكون لها شرف أن تبدأ ويكون لي شرف أن أولد فلطالما حسبت نفسي ميتا. وبقدر ما كنت مولعا بهذا الغد مهتما به ومتلهفا عليه أغفلت يـــومي ونسيت أن أعيش حاضري؛ ثم حدث بعد حلول الغـــد أن جـــاء في صحبته زائر غير مرغوب فيه.

قبل أيام عديدة داهمتني آلام فظيعة، وتطلب الأمر نقلي علـــى جناح السرعة إلى المستشفى الجامعي بالمدينة الجديدة. وبعد المعاينـــة وإجراءِ التحاليل اللازمة والتي دامت لأكثر من أسبوع أخبرني الأطباء أني مصاب بسرطان استشرى في الكبد.

الطبيب الذي تولى مهمة الحديث معي وإبلاغي عن حالتي كان كمن لا يهتم لأمر مرضاه. قذف بكلامه دفعة واحدة في وجهي حتى خِلته يمزح مزحا ثقيلا.

لم يصدمني كلامه وإن تجلت على ملامحي الحيرة والقلق. وحاولت أن أضبط حالي قبل أن أسأله إن كان متأكدا مما يقول، ثم حدَّثتـــه أنـــه يمكنني إجراء المزيد من التحاليل الإضافية إذا كان ذلك ضروريا. علـــى أني وأمام ما حدثته به وجدته يصطنع رصانة على رصانته، ويوجـــه إلي نظرة صارمة لا إحساس فيها. ثم قال يحسم في أمري:

– تبدو مثقفا، وأظنك تقدر على استيعاب وضعك. الكذب على المريض لا يفيد دائما. أريد منك فقط أن تواجه أمورك بشجاعة.

أما الصدمة فقد تجلت لاحقا، وذلك عندما وجدت نفسي وحيدا ومرتهنا لسرير حديدي بارد بائس كمن لا حول له ولا قوة.

لطالما كنت أخشى الموت وأهابه، لكن ذلك لم يمنعه عني، بل عجل به إلي لأجد نفسي أمامه. وفي ليلتي الأولى بالمستشفى ظللت أسأل حالي: "أي ميتة بائسة تنتظرني!"؛ وبقيت أرقب في هلع متى يبدأ الألم والنخر والموت.

لأيام ظَل ظِل الموت قابعا فوق رأسي حتى شلَّ كل تفكيري. كنت مصابا بالذهول، ولم أنشغل لحظة بالتفكير بالجنة والنار أو بالجزاء والعقاب. وكان جلَّ تفكيري منحصر في هذه الحياة التي انقضت في رمشة عين.

كنت أحاول أن أحصي ما أنجزته خلال هذه الحياة التي منحت لي، وأخيرا وصلت إلى يقين أصابني بالإحباط واليأس. لقد اكتشفت أني لم أحقق شيئا يرضيني. وكنت لذلك أبقى لساعات أبكي دون أن يفهم أحد سبب حزني وبكائي. ثم ولا أدري كيف في إحدى الليالي تذكرت ذلك الحذاء.. الحذاء الأحمر، حذاءه الذي لا أزال أحتفظ به إلى اليوم. وفي الصباح الموالي لم أجد أمامي إلا أمي والتي جاءت لتفقد حالي كالعادة، فطلبت منها إحضاره لي.

أخبرتها أين يمكنها أن تجده. وحددت لها المكان بالدقة المطلوبة. في غرفتي على الرف العلوي وأقصى يمين المكتبة. يمكنها أن تبحث خلف دواوين الشعر وسوف تعثر عليه. لكن الظاهر أن الوالدة لم

تستوعب طلبي. ولا بد أنها تصرفت من لدنها ودون أن تهتم بالبحث والنظر فيما طلبته منها، لأنها وفي مساء ذلك اليوم قامت تحضر لي حذاء جديدا لا يعنيني. وعندما سألتها ما هذا؟ قالت، وكأنها لم تفهم:

- لقد تكفلت بشراء حذاء آخر جديد لك بدل القديم الذي طلبته مني!

كنت بحاجة إلى ذلك الحذاء عينه. ولذلك فقد عدت وطلبت منها إحضاره لي. لكنها أبدت انزعاجها، حتى أنها هتفت مبتئسة:

- أنظر، إنك لم تسع حتى لتجربه!

لم تفهم حاجتي إلى ما طلبتُه، ثم ما حاجتي إلى أي حذاء آخر وأنا طريح الفراش في مستشفى لا أعتقد أني سأغادره إلا إلى حتفي!

في اليوم التالي كانت الوالدة قد أحضرت لي الحذاء الذي طلبته منها. وأظنها تفقدته قبل ذلك وتعرفت عليه، إذ لم تبد مندهشة وهي ترى فرحتي به. والظاهر أنها استوعبت ما يحصل أمامها كما استوعبت حاجتي إليه. وحين قمت أضم إلى صدري حذاء متهرئا باليا لا يصلح لشيء كما لو كنت أضم عزيزا إلى قلبي قامت بدورها تحضنني. واستغرقنا في البكاء والنحيب ساعة أخرى من الزمن. فقد كنت أنا وهي نستعيد تفاصيل حادثة قديمة ارتبطت بهذا الحذاء نفسه. ثم لا أدري كيف عادت وانسحبت. تراجعت بضع خطوات إلى حيث تركت قفة من "الدوم" أحضرتها معها ساعة دخلت. ومنها عادت فانتزعت ملفا ضخما احتوى على عديد الأوراق وكراسة مسوَّدة لم تبق منها إلا صفحات بسيطة عذراء. ثم راحت تقدمه لي، وهي تقول:

- هذه الوديعة احتفظتُ بها و لم أجرؤ أن أسلمك إياها. كنت أتصور أن الوقت لم يحن بعد. كذلك كنت أخشى من رد فعلك، وبقيت أؤجل الموعد في كل مرة. يمكنك أن تنظر ما فيها فهي لا تخصني وحدي في كل الأحوال..

لم يكن بإمكانها أن تبقى لمزيد من الوقت. وحين آثرت الانصراف فعلت ذلك كمن يهرب. وأعتقد أني كنت أفهمها. ووجدت نفسي وحيدا فرحت أنظر في ما أسمته الوديعة ووضعته أمامي..

وحدها الكراسة والأوراق ما كان يبقيني طافيا لأيام وليال أخرى..

نبشت في أوراق تآكلت أطرافها وتهرأت حواشيها بفعل الإهمال والنسيان، وتشبثت بكراسة المذكرات فرحت أقرؤها وأعيد القراءة فيها كمن يعكف على مادة للحفظ لا يريد أن ينسى جزءا منها. أما الحذاء، فكنت مسرورا به وبذلك الدفء الخاص الذي كنت أستمده منه.

كنت أحدث حالي، وأنا أفكر في الرجل الذي صادفته في الأوراق والكراسة. الرجل الذي صار اليوم ميتا أو شبع موتا كما يقول الناس عادة عندنا:

"ليس صدفة أن نولد متشابهين في بلد يتفنن في سرقة أحلامنا والتحايل عليها ثم النيل منها. وإن كنا جميعنا ولدنا من رحم الثورة وأحلام الاستقلال، إلا أننا كنا نَعيش ونشهد أمالنا وهي تسقط أمامنا ذاوية ذابلة كأزهار عفَّ عنها الماء، لتبدأ في التفسخ والزوال تحت أقدام الذين اكتسحوا كل شيء. الأرض والهواء

والسماء. وكأنه ليس مكتوبا غير البؤس بأن يسود علينا، وإلى أبـــد الدهر!".

ثم لا أدري كيف انبثقت في ذهني تلك الفكرة التي تحمست لها وأخذت أؤمن بها. فكرة أن أعيد جمع وكتابة كل هذا الذي قرأتـــه. وداهمني شعور قوي لم أعهده في نفسي حتى يوم كنت سالما معـــافى. وبدأت أشعر بالقدرة على فِعل أشياء عظيمة..

والواقع أن ما وجدته في الكراسة والأوراق جدير بأن يـــروى، ولعله كان في انتظار أحد ما ليفعل، ثم كيف لا أكون أنـــا المنـــذور لهذا؟

سوف أحاول، وعسى أن ينتصب شيء مني، ومنه.. ومن هنـــا ضد النسيان..

المزمور الأول

يوميات المحنة

- 1 -

"من أين أبدأ الحكاية!

كيف أَنشُد الكلمة الأولى المفتاح في هذا السرداب المظلم!

تتعثر الكلمات وتسقط أمامي كما يسقط الأبرياء في جوف هذا الليل الموحش.."(*)

"D'où dois-je commencer l'histoire!
Comment réciter le premier mot, la clé dans ce corridor obscur!
Les mots trébuchent et tombent devant moi, comme les innocents qui tombent au sein de cette nuit lugubre.."

(*) استنجدت بهذا النص ورأيت أنه مناسب كافتتاحية للرواية وسيرة عبد القادر؛ كذلك سيجد القارئ مقاطع عديدة أخرى من هذه المذكرات منها ما هو مكتوب بروح الشعر ومنها ما هو سرد بسيط أقرب إلى استعراض للأحداث اليومية التي كتبت على عجل فكأن صاحبها اهتم فقط بتسجيلها قبل أن تضيع منه، ولعله فكر أن يعود إليها لاحقا منقحا فيها ومزيدا. كذلك وجدت ما هو مكتوب بعمق وروية.. أدرجت بعض ما وجدته يتوافق مع السياق، ولم يكن الأمر شاقا إلا في نقطة واحدة. أن نصوص عبد القادر جميعها مكتوبة باللغة الفرنسية ولا أدري إن وُفِقت في ترجمتها كما يجب.

– 2 –

بدا عبد القادر مرتبكا وهو يحاول إعادة الرسالة إلى غلافها. خانته يداه فطوى الورقة والظرف معا. في لهوجة وعلى عجل أودعهما أحد جيوب سترته. وحاول أن يسيطر على قلقه فأشعل سيجارة. لم ينتبه إلى أنه أهمل أخرى أشعلها لتوه، وهي لا تزال فوق المنفضة.

في هذه اللحظة كان هناك من يدق عليه باب مكتبه. أجفل مرعوبا. لا بد أنه يشعر بالخوف.

دخلت فتيحة السكرتيرة. وخشي أن يظهر أمامها ضامرا وضائعا، فخنق أنفاسه علّه يتضخم كالبالون.

لا يريد أن يُسأل ماذا هناك؟.. لا يريد أن تفضحه مشاعره، ولا يرغب في الشكوى والأنين كأي بائس مسكين.. حسبه ما يشعر به من إذلال وضعف – وإن كان دأبه – أن يهرب من مشاعر اليأس التي تنتابه، مصرا على الحياة، وإن قُيد له أن يسكن قعر بئر.

أخبرته فتيحة أنهم ينتظرونه في صالة العرض. وطلب منها أن تمهله دقيقة؛ فسوف ينزل في أثرها.

حين خرج إلى الممر كان التوتر لا يزال يسيطر عليه. حدث نفسه ستفضحني أعصابي لا محالة. وفكر للحظة في الهرب، فهو لم يعد قادرا على التحمل أكثر؛ ثم استسلم لقدميه تقودانه إلى حيث شاءت.

تبا، كيف يستطيع أن يتخلص من أثر الرسالة عليه؟

- 3 -

لم يكن يسمع إلا لوقع خطواته المنتظمة وهو يسير في ممر طويل معتم. كان لا يزال جهما قلقا بسبب الرسالة التي وصلته. وهو يتجاوز التفكير فيها تساءل ماذا يريدون منه هناك في صالة العرض؟ وتوقع أن للأمر علاقة بوظيفته مديرا للمسرح أو بصفته مخرجا فيه.

كل السوء حين لا تجد من يقاسمك همومك وما تخفيه. وحتى تلك المرأة التي يعتقد أنه يحبها لا يستطيع أن يصارحها بهواجسه وبالمآل الذي ينتظره. يخشى أن ينقل عدوى الخوف إليها، ولولا شعوره أنه في حاجة ماسة لها لقام بطردها من حياته شر طردة. لا يريد أن يصيبها مكروه بسببه. وعلى ذلك لم يكن أمامه من سبيل إلا الاحتفاظ بمخاوفه وما تبثه فيه من مشاعر لنفسه. هكذا على الأقل يضمن أنه لن يثقل على أحد.

كان قد انتقل إلى ردهة واسعة تقوم على شماله، وبعد خطوات قليلة ارتقى أربع أدراج رخامية بيضاء ثم دفع بابا عريضا بدفتين ومغلفا بجلد أحمر فأصدر على أثر ذلك صريرا مزعجا. وألفى نفسه في صالة العرض ووسط حفلة حقيقية. والظاهر أن الجميع قد سبقه إلى هناك. إداريون وممثلون. علا تصفيق حار في اللحظة التي انتبهوا فيها إلى عبد القادر يلج القاعة؛ بينما أطلق أحدهم صفيرا حادا وممطوطا علامة عن الانتصار. وما لبث أن استوعب الأمر. وعلى أثر ذلك سرت في أوصاله

رعشة قوية. وما هي إلا لحظة صغيرة حتى تآلف مع الوضع الجديـــد. ثم راح يبتسم. بل إنه بدأ يشاركهم الفرح والصخب.

لقد أقامت فرقته المسرحية احتفالية صغيرة بمناسبة نجاح عرضهم الأخير في مهرجان قرطاج بتونس. وأمام هذه البادرة شعر بامتنـــان كبير وإن لم يكن قد هضم بعد النجاح باعتباره جاء على حســـاب أعمال أخرى ظل يعتقد أنها الأكثر استحقاقا.

لقد ظل عبد القادر يردد بينه وبين نفسه أنه كـــان يجـــب أن يكون هو صاحب هذا الانجاز. مرددا: "هذا تماما ما كنـــت أحلـــم بتقديمه". وكان مستاء من شيء لا يفهمه لكنه يعيه. وما ظل يزعجه أن ما تحقق كان على يد غيره لا على يديه هو!

لقد عرّته تجربة تونس الأخيرة. وكانت بمثابة القشة التي قسمت ظهره. لم يعتد النفاق، ولا يريد أن يعتاده فيغمض عينيـــه. تكفيـــه الظلمة التي تغشى داخله.

لطالما اعتبر أن أعماله الأخيرة باتت تفتقد لتيمة معينة لم يتوصل إلى ماهيتها إلا بعدما وقف على العرض الأردني. فـــائض الجنـــون والحرية يشكل الفارق. ولعل الأمر في شقه الآخر يعزى إلى مـــدى خضوع المبدع لجهاز السلطة. وَواقع الحال يقول أن المبدع والسلطة أشبه بضرتين لن ترض إحداهما عن الأخرى تحت أي ظرف، حـــتى وإن تحقق شيء من الرضا كان أشبه بالهدنة لا غير. ولعل صـــاحبنا كان يعيش نوعا من المصالحة مع السلطة ما دام يعمـــل في جهـــاز حكومي ويتلقى راتبه منه؛ هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لعـــل الأمر يرجع إلى الحالة العمرية للمبدع نفسه. فلطالما ارتبطت الفحولة والقوة والعناد بالشباب، كما ارتبط التـــردد بالكهولـــة، وارتـــبط

الانتكاس والخمول بالشيخوخة. إذ مع مرور الزمن تضعف قوة التحمل ولا يعود المرء يقبل بخسائر جديدة.

إن ما ينتابه حاليا لا يحتاج أن يدلل عليه. ثم ما من أحد يستطيع أن يدلل على ما يشعر به ببرهان. ليسلم نفسه لغواية النجاح وأفراح الجائزة، وليبتعد بوعي أو من غير وعي عن كل ما قد يأتي بالنكد والإحباط. أو هذا ما يجب أن يركز عليه الآن. له أن يظهر أمام الجميع بسحنة مليحة لا وجود للهزيمة عليها. وأما الخزي والخوف فلا بد أنهما لا يزالان لابدان خلف الباب، ولن يطول الأمر كثيرا حتى يستعيد أحدهما الآخر.

وبدا أن الجميع يعيش حالة من الابتهاج، حتى نطق سعيد الممثل في نشاز، وقال وهو يشتكي من تجاوب المسؤولين والجهات المختصة مع النجاح الذي حققوه:

- آه، يا رفاق. ما من كلمة شكر واحدة. فكأننا لم نحقق شيئا!

تلقف علال الممثل كلماته، وكان كهلا جاوز عقده الرابع. وما لبث أن رد عليه في سخرية وتهكم:

- الفنان في هذه البلاد أشبه بفرقة "قرقابو"(*) لا يذكرونه إلا في المناسبات، وإلى أن تحل مناسبة جديدة ضعوا أيديكم على قلوبكم، وانتظروا..

وتساءل عبد القادر في صوت حزين، بينما يده تتحسس جيب سترته:

(*) فرقة فولكلورية تعتمد في موسيقاها على آلة إيقاعية تسمى الكاستنيت، وهي عبارة عن قطعتين من النحاس أو الحديد أو الخشب مقرونتين إلى بعضهما البعض.

- تُرى من سمع بمثل هذا النجاح! نُكرّم في الخارج ونُلاحـق في الوطن ونُغتال. بربكم هل الأمر مهزلة أم مأساة؟

كان سعيد شابا في العشرينات من عمره. انضـم حـديثا إلى الفرقة، والظاهر أنه جاءهم تحدوه الرغبة في الفوز والشهرة. ولهـذا عاد فقال وهو يسحق بجزمته عقب سيجارة انتهى منها للتو:

- إنها مأساة حقيقية. ولذلك فلا أمل في المستقبل. إن حـال الثقافة والفن في البلد ملبّد منذ مدة، وهو يشبه حالنا أيضا. ويمكنني القول إننا ضحية المأساة التي تحصل.

ورد عليه بوعلام معقبا، وهو ممثل ضمن الفرقة ومسؤول البرمجة كذلك:

- فقط لو تدركنا السلطات وتنعم علينا ببعض من أفضالها..

وسألته إيمان، وكانت موظفة الإعـلام الآلي وحديثـة العهـد بينهم. وكانت تتكلم لأول مرة:

- لكن ماذا كنت تتوقع حضرتك؟

حينها ردّ عليها عزوز، تقنيّ الصوت:

- أنا أعرف ماذا كان يتوقع، إنه يرى من واجب السـلطات أن تكرمنا بنفحة من مال الخزانة الذي ما زال ينهب بـلا رقيب ما دمنا نستحق ذلك!

وطلب سعيد من عبد القادر أن يدلي برأيه في الموضوع، فـرد عليه هذا الأخير في استنكار وهو يسـتعيد مـا حصـل معهـم في تونس:

- أن يتركونا نعمل ما نشاء وندير أمورنا كيفما نرغب نكن ممنونين لهم وشاكرين.

ولم يعجب منحى الحديث فتيحة السكرتيرة التي أشرفت على الحفلة بنفسها، فقالت:

- لكن ألا تغنينا هذه الحفلة عن كل تكريم يأتينا من جانبهم؟.. ألا ترون معي أنها أشبه بعرس حقيقي؟.. ثم إننا لا نحتاج هنا إلاّ لمن نتوجه عروسا وعروسة ليكتمل فرحنا.

وكان عبد القادر يحاول تجاوز مشاعر الانقباض التي بثتها فيه الرسالة التي ما تزال ترقد في جيبه عندما تبادل وفي الخفاء نظرات ذات معنى مع إيمان؛ بينما علّق رشيد مساعده في الإخراج على ما قالته فتيحة مضمنا كلامه بعض السخرية:

- هذا ما تفكر فيه كل عانس، وهذا ما يقترن بذهنها كلما سمعت دفاً أو شاهدت فرحاً.

حينها أطلقت فتيحة العنان للسانها يطوله، وقالت بلا خجل:

- أعترف أنّي بحاجة إلى رجل. ولا بد للمرأة من أن تتزوج، لكن أذكرك أن الله قد أنعم عليّ برجال من شاكلتك فرفضتهم جميعهم غير آسفة.

عندها تساءل البعض كيف؟ ولماذا؟ أما فتيحة فقد أمعنت النظر جيدا في رشيد، ثم قالت وهي تبتسم في خبث:

- لأني متأكدة أن زوجته هي رجل البيت، وأنه رضي معها بدور الطرطور. فهمتم؟

وغرق الجميع في الضحك. وحتى رشيد راح يضحك معهم؛ فكان أن عاد للحفلة جوّها المرح..

- 4 -

الحفلة لا تزال مستمرة هناك بدونه، وفي الخارج عالم آخر مليء بالجنون. وما الطبيعة إلا متحالف آخر مع هذا الجنون!

تجهم عبد القادر وانقبض وقد وجد نفسه أمام جوٍّ رديءٍ ذكره بمحنته. ومضى يقطع ميدان السلاح باتجاه محطة الحافلات بميدان الفاتح من نوفمبر، محاولا السير في جو خانق من الغبار الذي طال كل شيء في المدينة فبدت وكأنها واقعة تحت رحمته أو كأنها تحترق في أتون نار مدلهمة. وعلى امتداد الشارع كان المارة يحثون الخطى بوجوه عابسة مكدودة، يسيطر عليهم رعب وفزع لم يكن يجهل مصدره بعدما تبدد الأمان كالوهم. أما ما أقدم عليه رفقاؤه اليوم فقد أدهشه وأدخل السرور إلى قلبه ومنحه متعة لم يعرف طعمها منذ أمد طويل.

أما في الحافلة التي أقلعت باتجاه حي يغموراسن على الخط رقم 18 فقد وجد عبد القادر نفسه مشغولا بمتابعة أطراف الحديث بين جليسين..

- يقولون إنهم سيرفعون في أسعار الكهرباء والغاز..
- بل هذا مؤكد. ألا ترى كيف يستغلون خوفنا والحالة التي نغرق فيها، ثم إن كل شيء في هذا البلد مرشح للارتفاع والغلاء إلا الإنسان!

- الولد الذي عوّلت عليه ليكون لي سندا في هذه الدنيا، بعد زواجه لم يعد يطالعني بوجهه، وكأنه تخلص منا أنا وأمه!
- قد تكون له ظروفه الخاصة أو تكون زوجته هي السبب. ولا شك أنه كان يعرفها قبل الزواج فعرفت كيف تركبه.
- والله أمّه هي التي اختارتها. وكلما أذكرها بذلك، تقول لي إن بنات اليوم أصبحن حرباوات؛ وكم ظهرتْ لها متوددة وخنوعة قبل الزواج!

عندما توقفت الحافلة في الموقف التالي تدافع إليها المزيد من الركاب، وظلت مركونة و لم تقلع حتى اختنقت فيها الأنفاس. وفي موقف آخر نادت امرأة مسنة أن يسمحوا لها بالنزول، وكان من الواضح أنها احتجزت وأنها ستبقى محاصرة. بينما تمزق كيس حاجيات أحدهم فاندلق ما فيه على الأرض وتبعثر وضاع بين أرجل الركاب. وبكى رضيع. وتأففت فتاة بعدما ضرب حولها النطاق من طرف شابين تشي ملامحهما بالتهور. وأطلق القابض صيحاته يطالب الركاب بثمن التذاكر، في حين عادت العجوز تهتف أن يساعدوها في النزول، ثم راحت تشتم وتصب جمَّ غضبها على الجميع. بينما واصل أحد الجليسين يقول مخاطبا صاحبه:

- العام يظهر من خريفه، والسماء لم تعد تمطر. وهذا عقاب من الله لعباده الظالمين..

يعترف أنه يجد في هؤلاء الذين يزاحمهم مادة دسمة لأعماله. كذلك يقر أنه لا يقدر أن يحيا بمعزل عنهم ويود دوماً لو ينصت إليهم ويقترب من مشاكلهم ويقاسمهم معاناتهم لأن في ذلك ما يطيب جراحه وما يمنحه العزاء ويجعله يستمر ليوم آخر.

لقد اعتاد هو المَمْحون.[*] السماع لنشيج الزروالية.[**] كما اعتاد أن يسكب همه في همهم ويشاركهم نشيج الغم في بلد لم يعد يتسع لغير النواح. فوحده الإنصات إلى نحيب الغير ما يخفف عن القلب قليلا ويمنحنا العزاء؛ ووحده ما يجعل الأحزان المتكلسة في أعماق الروح تنزاح وتنجاب بعيدا نحو السماء.

(*) العاشق، والكلمة وردت هنا بمعنى الواقع في المِحنة.

(**) الفقراء والمساكين الذين لم تمنحهم الحياة شيئا.

- 5 -

نزل عبد القادر من الحافلة في حالة من الضيق الشديد. كـــان الظلام قد بدأ يلف بعباءته السوداء المكان. وفي الساحة الترابية المقابلة لموقف الحافلات لمح الأطفال لا يزالون يلعبون كرة القدم.

برأيه هم وحدهم من يعرف السعادة. إنهم ينطلقون في لهـــوهم وعبثهم غير عابئين بشيء.. ها هم يتقاذفون الكرة ويركضون حولها محققين انتصاراتهم الصغيرة، مسجلين إلى جانب الأهداف دفئا ومرحاً وسعادة تتجدد كلما نزلوا إلى الشارع من جديد.

وما هي إلا لحظة حتى بدأت الوحدة تتســـلل إلى روح عبـــد القادر وتفعل به فعل الحية الجائرة حين تلتف حول ضحيتها فتخنقها. كان كلما اقترب من الحي الذي يقطنه إلا وداهمته مشاعر تكدر عليه وتزعجه. كما لم يكن يزيد من وجسه إلا رؤيته - ومـــن بعيـــد- للمُقعد الكسيح في المكان نفسه لا يبرحه.

منذ فترة طويلة وهذا الرجل يتردد على حيهم. يُحضره أحـــد الصبية صباح كل يوم، ليعود فيتسلمه بعد كل مغيب للشمس. يُنزله المكان عينه. وعلى الرصيف المقابل للعمارة التي يقطن بها عبد القادر يسوي الصبـــي أمام الرجل ورقة من الكرتون شهباء مهترئة مكتوبة عليها عبارة "ساعدوا أخاكم لوجه الله" بخط عريض وركيك، ويضع بجانبها صحنا من القصدير وسخ ومبعوج كحيز لوضع الصدقات.

أقبل عبد القادر – وقبل صعوده العمارة التي يقطن بها– على محل صغير في الحي. من عنده اقتنى نصف رطل من القهوة وبيض وجبنة، وقرر ألا يهتم للخبز الذي لم يكن متوفرا. بعد ذلك عرج على شاب يقف أمام طاولة خشبية صغيرة يبيع عليها السجائر والشمَّة. طلب منه علبتي "مالبورو". إذ يمكنه أن يفتقد في ليله الذي يطول غالبا كل شيء إلا سجائره ولهذا يفضل دوما أن يقتنيها بزيادة.

عندما اقترب من المُقعد راح يجس في حركة لا إرادية ما حوله بعين الذئب، على أنه أدخل يده في جيبه يتحسس بعض الفكة فيه. وعندما تقاطعت عيناه مع المُقعد شعر بالجزع فجأة، وخشي أن يفضحه خوفه واهتياجه أمامه فسحب نظره يتحاشاه. ورغم أنه تجاوزه إلا أن عقله ظل مشغولا به.

حين تشعر أنك مهدد في حياتك يتشربك الخوف كإسفنجة، ويبدأ يكتسحك التراخي والثِقل. فوبيا الشك حولت حياة عبد القادر إلى جحيم لا يطاق. ولم يسلم من شكه لا معارفه ولا جاره لصق الباب ولا المُقعد على كرسيه. ثم إنه ظل يعتبر هذا الأخير ولا يزال مجرد مُخبر وبصاص وظيفته أن ينقل أخباره وأخبار غيره إلى الذين يستعملونه. هذه الفكرة لم يهضمها أحد من الجيران عندما طرحها أمامهم. واعتبرهم غير معنيين في الغالب. فلا أحد منهم مهدد مثله. ولأنه وجد نفسه وحيدا مع خوفه فكر حينها أن يذهب إلى أقرب مركز للشرطة. هناك فقط سيكشفون أمر هذا الدخيل المحتال والمتنكر. لكنه حار في الذي سيقوله لهم. وخشي أن يروا فيه مجرد مهووس ليس عليه إلا مراجعة طبيب نفسي.

- 6 -

دلف عبد القادر إلى مدخل العمارة الغارق في الظلام، وأخذ يرتقي الأدراج وهو لا يستبين وقع خطواته أمامه إلى أن تبدى له نور خافت مصدره الدور الثاني فأخذ يسير في ظلاله، وما لبث أن انتبه إلى وقع خطوات وحركة مريبة خلفه. وانفتل رأسه في حركة عصبية بينما خفق قلبه في عنف.

إن هناك من أخذ يتقدم نحوه وهو يرقى الأدراج في وثبات سريعة. واكتشف أنه شاب، وكان يرتدي لباساً رياضياً كاملاً وتكاد الطاقية التي يعتمرها تحجب جميع ملامحه. وبدا أن يده اليمنى مشغولة بشيء ما في جيبه، بينما كان يستعين بالأخرى على الدرابزين. وما لبث أن تذكر عبد القادر أمر الرسالة التي لا تزال تسكن أحد جيوبه.. ها قد حانت ساعته تصفيته!

للحظة داهمه الخوف حتى أربدت معدته ونقرته في وخز شديد. حار ماذا يفعل، وفكّر أن يركض باتجاه شقته، وفكر في الرصاصة الغادرة وهي تلاحقه عبر الأدراج، واستدرك أن العالم الآخر أقرب إليه من شقته، فسلّم أنه هالك لا محالة.

تسمّر في مكانه تحت ضغط أعصابه المتفوزة غير قادر على مواصلة سيره. وانتحى جانبا وهو يفسح المجال للسيد بأن يتجاوزه، متحججا بإشعال سيجارة، في حين ظلت جميع حواسه تترصد أدنى حركة مريبة.

- من فضلك إلى كم تشير الساعة الآن؟

بادره الشاب بالسؤال، وحاول وهو يرد عليه أن ينفض عنه قلقه وهواجسه وآثار الارتباك والانقباض. لكن ما إن تجاوزه الرجل وأخذ يوغل نحو الأدوار العليا حتى وقف لاىثاً مختنقاً بخوفه، وحاول أن يشهق أكبر قدر من الهواء حتى ينعتق من شعوره بالذعر ومن إحساسه بالخوف.

تساءل في جزع هل هو أحد سكان العمارة، أم أنه يقصد شقة فيها للزيارة؟.. وتساءل مرة أخرى ماذا كان قادراً أن يفعل وما رده لو بادره الرجل بتلك الحركة التي ظلَّ يتوقعها ويخشاها؟.. وتساءل كيف كان سيواجهه لو وجده يسحب مسدساً ويسدد به نحوه؟

حتما، لم يكن يستطيع غير الجمود والاستسلام ومراقبة حياته وهي تنتشل منه وروحه وهي تعبر إلى العالم الآخر، كما أن أي فعل يقدم عليه كان سيكون بلا فائدة أمام الرصاصة وقدرتها العجيبة على النفاذ إليه ووضع حدٍّ لحياته، وهذا معناه أن تيقظه الشديد وأهبته كعدمهما فهما لا يدفعان شيئاً.

- 7 -

ما إن أغلق الباب خلفه حتى اطمأن وداهمه شعور بالارتياح..

تجاوز عتبة شقته إلى رواق قصير وضيق ومنه انتقل إلى غرفة على يمين المدخل أعدت لتكون غرفة المعيشة. وهناك فتح علبة مطرزة حوت في داخلها مصحفا للقرآن الكريم. استخرجه فتضوعت في المكان رائحة مسك نافذة، كما انفتح الكتاب على صفحة بعينها. حينها استخرج الرسالة من جيبه وأودعها لتسكن هناك مع رسائل أخرى عديدة وصلته سابقا ومن نفس الجهة. ثم استلقى على فوتيل جلدي أسود عريض كان قد تحصل عليه من أحد محلات الأثاث القديم. وأشعل سيجارة راح يعبها بنهم، بينما نفر برأسه إلى سقف الغرفة متأملا في السكينة وهي تنزل عليه وتنفض عنه تعب يومه وتنظفه من الداخل وتجلوه.

كان هناك إلى جانب الأريكة منضدة وضع عليها جهاز التلفاز، وفي رفٍّ سفلي منها وضع جهاز "راديو- كاسيت". بينما احتل جهاز الكمبيوتر الذي اقتناه حديثا طاولة كان يستغلها كذلك للأكل والكتابة. في حين ظلت كتبه تشغل حيزاً من الأرضية بعدما عجز أن يوصي لها بمكتبة مناسبة، وقد علّق بعض اللوحات والشهادات على جدران الغرفة توسطتها صورة والده مبروّزة في إطار فخم، وكان يظهر فيها وهو يرتدي بذلة عسكرية كاملة ويؤدي التحية وعلى

ملامحه نظرة صارمة. ولا بد أنها التقطت أيام حرب التحرير. كذلك كانت الشقة تحوي غرفة أخرى أعدت لتكون غرفة للنـــوم، وإن لم يكن يشغلها إلا السرير، بينما ظلت ملابسه بدون خزانة ومكوّمة في حقيبتين.

يبدو للوهلة الأولى أنه لم يسكن هذه الشـــقة إلا منـــذ فتـــرة وجيزة، والواقع أنه يفصله عن ذلك اليوم الذي قدم فيه سنة كاملة، وذلك عندما قرر التخلي عن بيت الزوجية. حشد يومها عدداً مـــن المتعاونين لإيجاد سكن مناسب له، وعدَّ نفسه محظوظاً بعدما تحصـــل على هذه الشقة، فقد كانت هناك حركات هجرة كبيرة بعد موجـــة العنف الذي طالت البلاد وما أعقب ذلك من تطورات. وإن جميـــع من كان يسكن على أطراف المدينة راح يحاول الانتقال إلى أمـــاكن أخرى أكثر أمناً وسلامة، كما كان هناك من جاء من مناطق نائية أو من مدن أخرى أكثر عرضة للتهديد واللاأمن، وتسبب هذا الوضـــع في غلاء فاحش مسّ قيمة السكنات بيعاً وإيجاراً.

- 8 -

لم أكن لأفوت موعد الثامنة بأي حال من الأحوال. شغلت جهاز التلفزيون لتطالعني نشرة الأخبار وهي تستعرض موجة جديدة من أعمال العنف التي راحت تعصف بالبلاد.

لم أقو على الصمود لأكثر من دقائق معدودات أمام صور القتل والنهب والاغتصاب والتهجير والاغتيالات والتي راحت تطال رجال الشرطة والصحفيين والمفكرين والكتاب والفنانين..

لا قدرة لي على الاستحمام أو لا طاقة لي على أداء فعل السخرة اليوم. مرهق بما يكفي وزيادة. فكرة أن أنقل الماء من البرميل الذي أحتفظ فيه باليسير منه إلى الطشت الكبير، ثم محاولة تسخين الطشت ونقله إلى الحمام للاغتسال تزعجني. متى يسعى المسؤولون إلى حل مشكلة المياه وندرتها في هذه المدينة الكبيرة. الحنفية لا تغرد إلا مرة واحدة كل ثلاثة أيام، وعليك أن تترك كل اهتماماتك الأخرى المستعجلة لتنتظرها في اليوم الموعود وإلا ستضطر إلى أن تمضي أياما أخرى بدون ماء.

عرجت على المطبخ. لم أكن أشعر بالجوع لكني حاولت أن أشغل نفسي بتحضير عشائي. وبينما أنا هناك داهمني صوت عويل امرأة وصراخ مصدره العمارة المجاورة.

اندفعت باتجاه الشرفة لأطّلع على ما يحدث. وفي العمارة المقابلة وفي الدور الثالث لمحت زوجا أخذ ينهال على زوجته بالضرب وقـــد استبد به غضب شديد. كان يمسك بها من شعرها، ثم أوقع بها أرضا وراح يسلط عليها قبضاته ويركلها، متوعدا إياها بالقتل، وكان يبدو أنه تحت تأثير الخمر أو المخدر أو هكذا ظلت زوجته تنعتـــه وهـــي تحاول الإفلات منه.

يا ربـــي، ما الذي يدفع بالجميع نحو العنف؟

لا أدري لم عنت على بالي مسرحية "تـــارتوف" الـــتي ألفهـــا المسرحي الشهير موليير قبل أكثر من ثلاثة قرون من الزمن. ولعـــل السبب أنها كانت تحكي قصة رجل دين مرائي يستغل تدينه لتحقيق أغراضه الدنيئة.(*)

وفكرت أننا ما زلنا إلى اليوم ننظر إلى الدين باعتبـــاره دعامـــة للأخلاق، وتحت جبّة الدين وباسم الله نظل نخفي ونتستر على جميع أمراضنا من احتيال ونصب وكبت وتحرش وقتل وســـفك للـــدماء، لنشهد ترديا عاما في الأخلاق.

لقد تحول الدين إلى مظهر يستوحي طقسه من التاريخ والتـــراث ويتغذى عليهما في سبيل مكاسب غير أخلاقية، ورغم وضوح الصـــورة إلا أننا جميعا نبقى نصر على دفن رؤوسنا في الرمل وكـــأن القضـــية لا

(*) هو جون باتيست بوكلان ولُقِب بـــ موليير. مسرحي فرنسي اشـــتهر بتأليفه للكوميديا عاش بين (1622–1673م). من أعماله أيضا مدرسة الأزواج، البخيل، المريض بالوهم.. أما تارتوف فقد ألفها عـــام 1664، وصور فيها شخصية أورغون وهو رجل دين مرائي لا هم له غير إشباع غرائزه. وتجدر الإشارة أن الملك لويس الرابع عشر قد منع المسرحية من العرض باعتبارها تهاجم الدين والكنيسة.

تعنينا. وكأننا غير مستعدين لتقبل فكرة أن الأخلاق بمفهومها العام تعني القيم، وهي بذلك لها علاقة أكبر بالوعي الإنساني وليس بالـــدين. وإلا كيف نفسر ازدهار الأخلاق في المجتمعات غير المتدينة وتدنيها في البلدان التي يشكل الدين عصمتها ويلعب فيها دورا خطيرا؟

استغرقت في التفكير ولم أنتبه إلى نفسي إلا بعدما أقفر الحـــي وعاد إلى سيرته الأولى، حينها فضلت العودة إلى الداخل. وكنت قد انتبهت إلى الهاتف وتذكرتها. وما لبثت أن تبدت أمـــامي. وكنـــت أشعر أنها بقربـــي تماما، وأنه يكفيني أن أمد يدي فألمسها. ثم ها هي تنظر نحوي بنفس تلك النظرة الآسرة. وها أنا أمعن فيها النظر خشية أن تهرب ثانية فما اعتادت أن يأسرها شيء.

كنت أتمثلها. وغالبا ما كان يتسلط علي حضـــورها فأحاورهـــا وأناقشها. وكنت أسمح لنفسي باسترضائها واستعطافها. وكـــم كنـــت أسعد حين يلين جانبها. كنت ضعيفا أمامها. أعترف. كـــذلك كـــان يكفيني أن أنصت لصوتها. ولهذا حملتُ سماعة الهاتف، وركبت الـــرقم الذي أحفظه عن ظهر قلب. وما هي إلا لحظات حتى تنـــاهى إلي مـــن الطرف الآخر من الخط صوتها يسأل: "من معي؟".. لم أعرف كيـــف أهضم الفرح صرفا وأنا أنصت لصوتها. كان التوتر يشوش علي بينمـــا أخذ صوتها يصاعد من نبرة سؤاله حتى يئس في الظفر بجـــواب أقفـــل الخط..(*) وكمن استنكف بالوحدة لجأت من جديد إلى عالم الأفكار..

(*) في نصه هذا لم يمنحنا عبد القادر ولو إشارة واحدة تمكننا من معرفة من تكون تلك التي اتصل بها يطلبها على الهاتف. ولكن أغلب الظـــن أنـــه طلب زوجته وردة. إنه لم يشف يوما من هجرانها له وانقطاع الصـــلة بينهما. ومجرد سماعه لصوتها كان يمنحه بعضا من العزاء والفرح.

لم ينتف خوفي إلا بعد رغبتي في خداع نفسـي تحـت طائلـة إحساسي بالأمان؟ ألم أكن اليوم عرضة لرصاصة يطلقها علي مجهول في الشارع؟.. ألم تكن أدنى قنبلة قادرة على أن تنسف الحافلة وتفتك بجميع من كان فيها؟.. وماذا لو كان السيد الذي التقيت به في سلم العمارة قد جاء ليصطادني في كمين محكم؟.. ثم هل أنا الآن في مأمن بعد ما أحكمت غلق باب شقتي وسجنت نفسي داخلها؟

لكن كذلك، أليس خوفي وما أتصوره هو وليد إختلاقات ذهني الواقع تحت ضغط التهديد؟.. أليس انشغالي بهذا الشبح غير المرئي قد شلّ كل تفكيري وأقصاني بعيدا عن كل اهتماماتي بما في ذلك عملي وما يتطلبه من جهد وتركيز، وإبداعي الذي لا يكون إلاّ بعيدا عـن كل ضغط أو مثبط أو مؤثر؟

أتحسس الزمن وهو ينفذ من بين يدي متسائلا في الوقت نفسه عما يمكن القيام به. وأحدث نفسي أنه علي أن أشغل وقتي وأخلق ما يمكنني من الاستمرار وإلا فسوف يقتلني اليأس والخوف والعدم قبـل الرصاصة الغادرة. لكنني أعود وأتساءل للمرة المليون، ما الذي علي أن أفعله؟ وكيف أتمرد على هذا الليل الطويل وعلى هـذه الحيـاة البائسة والمشحونة بالتوجس والقلق والذعر؟

أو لعل الأنسب لي أن أعود الآن فـأفكر في مسـألة الـدين والأخلاق ثانية، وسأدعي هذه المرة أنها تشبه قصة البيضة والدجاجة، فلا نوم يلوح في الأفق ولا أمل!

- 9 -

أجفل عبد القادر منتفضا في عنف بعدما انتبه إلى حركة غير عادية وقرقعة خافتة أخذت تخدش سكون الليل وتبدده.

تساءل لماذا جزع؟ وانقبض قلبه؟ ولماذا هو يرتجف؟ ثم أدرك أنه الخوف وقد تسرب إليه. وحاول أن يتمالك نفسه ويضبط أعصابه، لكن جسده أخذ يصطفق دون إرادة منه. وأخذ ينصت ويرهف السمع متحسسا ما يحدث حوله غير مستوعب أن يكون زوار الليل قد قدموا حقا وأن ساعته حانت!

حار ماذا يفعل!

كان قبل الليلة لا يني يفكر ويضع تصورات عن الهجوم وخططا مضادة للدفاع عن نفسه لكنه الآن أدرك بما لا يدع مجالا للشك أنه سجن نفسه بيديه.

إن ما ابتدعه خياله وما اجتهد في القيام به أضحى هزءا ولعب أطفال. فلا تصفيح الباب ولا سد الشرفة والنوافذ بقضبان من حديد، ولا عدم الالتزام بموعد محدد للخروج والدخول، ولا كافة وسائل الأمان الأخرى باتت مجدية بعدما كشفوا عن طريقتهم الفضلى لتصفيته.

رغب في الصراخ لكنه تراجع تحت ثقل قاتل. وفي حركة مذعورة بادر بالاقتراب من المدخل. نقل قدميه في صعوبة وحرص

باذلا جهدا خارقا. وأمام الباب أنصت، وسمع دبيب كلام وهمسا إلى جانب حركة وضوضاء حذرة. و لم يقدر على مقاومة رغبة عارمة تملكته في السؤال، فهتف مختنقا: "من هناك؟"..

فجأة توقف الطرق والهمس. وأجابه صمت مطبق وكأن ما كان يحدث من قبل خيالات وأوهام. لكنه عاد يسأل من جديد في ريبة واختناق: "من هناك؟". حينها أجابته من الجانب الآخر للباب أصوات أخذت تزعق وتتوعد: "افتح يا زنديق، افتح يا عدو الله، إنّا هنا مرابطون يا فتان الأمة!".. ثم أخذ الوافدون يدقون الباب ويضربونه في عنف وقسوة وعصبية لا هوادة فيها، ولا بد أنهم كانوا يستعملون مطرقة أو فأسا ويستعجلون قلعه.

تساءل هل له من سبيل إلى النجاة وتجاوز هذه المحنة التي حلت كقدر لا راد له؟ وفكر أن يفعل أي شيء. وبغريزة الحيوان الذي يداهمه الخطر تراجع إلى الخلف ينشد مكانا يلجأ إليه. وتعثرت قدماه بحذائه المنزوع عند زاوية الصالون، ففقد توازنه وسقط أرضا.

ارتبك، وزحف على قوائمه الأربع وحرجل ثم حاول أن يستند إلى الجدار وأن يقف على رجليه ثانية. وعندما استقام واستعاد توازنه ركض باتجاه الشرفة، وهناك أطلق لصرخاته العنان وأخذ يطلب النجدة.

لكن هل من مجيب!

تنبه إلى أنه لم يجبه إلا رجع الصدى، وقد أخذت تردده وتعيده عمارات باطونية عزلاء وخرساء غير مبالية فكأنها تقول له بلا اكتراث إنه لا أحد هنا ليسمعك وأنك لا تسكن إلا مدينة خاوية أو في مدينة أشباح!

أخذ يدور حول نفسه كمن فقد عقله وهو أمام حالة غريبة من الذعر والتشتت غير مألوفة، ثم أخيرا تراجع متخاذلا إلى داخل الشقة.

تذكر المسدس الذي كان بحوزته فاستخرجه. وقال في صوت أراد أن يُسمِعه إلى نفسه قبل أي شيء آخر: "إذا كان علي أن أموت، فعلى الأقل يجب أن أقاومهم!". وخمن أن يكمن لهم. وقال إنه سينتظر أول المقتحمين ليرديه قتيلا، فإذا ما سقط أمام إخوانه جثة هامدة يُكبح اندفاعهم وجموحهم، ولسوف يرتدون على أعقابهم خاسرين!

لبث وسط الظلمة، وتربص بهم مستترا خلف جدار الصالون. وطال انتظاره حتى خامرته الشكوك في قدرته على الإطلاق وتزعزع يقينه بجدوى المقاومة.

وحمل بسلاحه أمامه..

ليس إطلاق النار في صالحه. وليس في صالحه أيضا أن يجدوا المسدس في يده. وخمن أن يتفاوض معهم. وفكر وعاد من جديد فرفض فكرة مفاوضتهم. من العبث محاورتهم أو الأخذ والرد معهم. لا أحد يقدر على مناقشة هؤلاء الوافدين ما داموا يعتقدون أنهم يملكون ميزان العدل وسيفه. وسوف يقتلونه دون أن يكون له الحظ ليتعرف على تهمته!

وكاشف نفسه بيقين قاتل: "هذه هي نهايتك، وما من سبيل إلى الخلاص من هذه الكلاب السائبة!". وأقعى في تسليم فاردا ساقيه أمامه..

كوابيس من المشاهد تطغى على خياله وتكتسح كل ما عداها وهو في حالة المنتظر اليائس الذي لا حول له ولا قوة.. كوابيس من

ليال سوداء عاشها آخرون وكانت مليئة بالدم والمـوت الحريـف. بعضها يحكيه الناس والبعض الآخر ما فتئت تطالعه به نشرات الأخبار والصحف. جثث فصلت عنها رؤوسها وأجساد بعثرت إلى أشلاء ومُثّل بها. أعضاء ممسوخة وعيون مفقوءة وأنـوف مجدوعة وكروش مبعوجة وأحشاء مفرغة. ودم يكتسح كل ما عداه في لـون طاغ يسبب غثيانا ودواراً..

لكن لماذا يعاقب ويكون هذا مصيره؟.. ماذا اقترفت يداه ليجني هذا المصير البائس؟ أم هذا قدر المحبين وحظ أبنـاء هـذا الـوطن التعس؟.. وهل سيكون حظه من حظ والده الذي لم يشفع له نضاله وجهاده فطوي تاريخه بمقلب موت مبيّت ومدبر؟

ها قد حانت ساعة سقوطه كما سقط آخرون قبلـه وكمـا سيسقط آخرون على إثره. ثم ها هي آلة الموت الجهنمية تُعمل يدها وتتغذى من روح التربص والأنانية والانتقام والإقصاء ممن لم تعجبهم أفكارهم وأحلامهم. فلا أحلام لهذا الوطن إلا ما يُتَوهم أنه مستمد من تحت عباءة جدهم الأول، ولا أفكار هناك إلا ما أتت به الكتب الصفراء والمحنطة في كهوف وطقوس الماضي البعيد.

في هذه الساعة تمنى لو ولد في مدينة أخرى وعالم ليس فيه كل هذا الحقد والاضطهاد؛ كذلك لعن المسـرح والخشـبة والمبـادئ والأحلام وكل ما يمكنه أن يجيء بهؤلاء المرابطين خلف الباب!

- 10 -

استفاق من غيبوبته بعدما انفجر الباب أمامه في دوي مهول. في لحظة وجدهم يحيطون به وهم يصوبون بأسلحتهم إلى صدره.

عدّهم خمسة أشخاص. لحاهم الكثة تغلف وجوههم مـــن دون تهذيب أو مراعاة. يرتدون قمصانا إلى ما تحت الركبتين ويعتمــــرون قلنسوات أفغانية ومسلحون برشاشات وبنادق ماسوراتها مقطوعة.

انتظر متى يطلقون، لكنهم شلّوا حركته ودفعوه إلى الركـــوع أمامهم. وجَّه إليه أحدهم بعقب بندقيته ضربة إلى ظهره، وسدّد لـــه آخر لكمات على مستوى البطن والصدر فترنح ووقع على الأرض، بينما انفجر الوجع كمن اخترقته سكينا حادة. وحاول جاهدا كبت ألمه..

- لماذا لم تفتح يا زنديق؟
- هل أنت وحدك؟
- على من كنت تنادي يا كلب؟
- نحن أرباب هذا الليل، وما دام الليل جاثما فلـــن يســـمعك أحد.
- "ظهر الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا"..(*)

(*) قرآن كريم.

لم يستطع التركيز ووجد نفسه ضائعا أمام أسئلتهم وكلامهم، كأن ما يسمعه هذر لا علاقة له به. وحمل برأسه إليهم كطريدة أعدمت كل أمل في النجاة. وزاغت عيناه في تسليم وقهر وخيبة. وتحت رحمتهم استسلم للصمت. ثم ما لبث أن بزغ بعض الأمل عندما تمكن من تذكر ملامح ذلك الذي كان يصدر الأوامر إلى أصحابه ويحدد أفعالهم وحركاتهم والظاهر أنه أميرهم. لم تكن للحيته التي تحجب نصف وجهه السفلي ولا لملابسه أن تعبث بالصورة الراسخة له والعالقة في ذهنه. لقد أمضى معه أياما عصيبة في سجن المدينة الجديدة وهناك تعرف عليه. وهتف ينشد خلاصه:

- منداس، أنا أخوك عبد القادر يا منداس. هل تذكرني؟ لقد كنا معا في سجن المدينة الجديدة!
- تفوا عليك. من قال إني أخوك يا عدو الله!

لم يصدق أنه ينكره. ووجم عبد القادر وهو يحملق في منداس بعينين لا تطرفان. ثم فكر أن يسير إليه على ركبتيه. عليه أن يستعطفه ويسترجيه ويناشده حتى يعفو عنه. لكن الأخير لم يمنحه الفرصة لذلك. شدّه من شعر رأسه وأخذ يهزه في عنف وقسوة وهو يسأله في صوت جاف وخشن لا أثر للرحمة فيه:

- هل تدري لما نحن هنا؟

خنق عبد القادر توسلاته وكتمها في صدره، بينما تزاحمت دموع الألم والمهانة في عينيه. وأيقن أنه من العبث أن يطمح في الأيام القديمة أن تكون شفيعا له. أما منداس فقد راح يركله بعدما طال انتظاره للجواب، وقال في شماتة:

- هيا استعد لننفذ فيك حكم الله.

وصاح عبد القادر في فزع:

- لم أذنب في حق أحد، ولا يجب أن أكون ممن تشملهم دائرة انتقامكم!

- يا حقير، نحن لا نسعى إلى الانتقام بل لإعلاء كلمة الله وضرب الطاغوت بيد من حديد.. ثم إني أقرأ أفكارك جيدا. وإنك تقول لنفسك ألم يكن واحدا من الضالين والعياذ بالله. لكن اعلم أن الله يهدي من يشاء من عباده ويجنبهم نارا وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين.

وأبى أن يستسلم فعاد يسأل من جديد مستبسلا في عناد من بات على شفير الهاوية:

- وما هي ذنوبي؟

أما منداس فقد أخذ يستظهر ويعد له جرائمه وكأنه كان يقرؤها من ملف أمامه:

- إنك أحد أذناب الطاغوت. وعملك كبيرة الكبائر.. ألست مديرا لإحدى قلاع الكفر والفجور!.. رأيناك مرة بذقون مرسلة وأخرى حليقة. مرة بملابس الوعاظ وأخرى بملابس الكفر والفاسقين. عربيدا وزاهدا، عبدا وأميرا، تجري الأقوال على لسانك متناقضة تلقيها بذور فتنة وتنشرها على العامة حصادا اسمه المسرح. شعراء غاوون في كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون، قاعدون يريدون زينة الحياة الدنيا وآخرون يقاتلون في سبيل الله يبغون وجهه. ذنبك

مفضوح وجرمك ثابت ومشهود عليه، والحكم في أمثالك معلوم لا جدال فيه..

واقترب من جدار عُلقت عليه شهادات تقدير وتكريم نالها عبد القادر في محافل وطنية ودولية. وقال وعلى محياه ابتسامة ماكرة وهازئة:

– وماذا تقول في هذه الصورة الداعرة والفاضحة التي تفاخر بها!

بزق عليها بطريقة مقززة، ثم أردف يقول:

– حقا، إنك تستحق أكثر من قطع الرأس..

وأشار إلى الذي على جانبه. وكان رجلا عريضا مفتول العضلات حليق الرأس وحول عينيه كحل، فأخرج ورقة من بين ثنايا ثيابه وراح يقرأ فيها بتمهل مرسلا الكلمات في تفخيم وثقل كمن يتمرن على الإلقاء أو كأنه يعرض مشهدا ركيكا من مسرحية مأساوية..

"بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على محمد أشرف المرسلين، على نهج السلف الصالح وخطى الأولين حكمنا على الزنديق الملحد مضل الرعية ومؤلب العامة وناشر الفتنة وفتان الأمة بالذبح. ولنا فيه عبرة لأولي الألباب. محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا. صدق الله العظيم". وقبل أن يكمل جملته الأخيرة بدأ إطلاق كثيف للنار.

احتضن عبد القادر رأسه بين ذراعيه وأغمض عينيه وهو يتحسس الرصاصة التي ستنفذ إليه وتضع حدا لحياته. وطالت

الرصاصات كل شيء من حوله: شهاداته وكتبه وأثاث البيت وحتى صورة والده، بينما بقي وحده سالما غير مصدق. لكنه كذلك كان يبدو أنه يشارف على الانهيار؛ وجرت دموعه أمامهم وأخذ ينشج كالأطفال.

سلطوا عليه قبضاتهم وأرجلهم، وانهالوا عليه بلا رحمة وفي عداء وحقد. وحمل بيديه الاثنتين يتقي ضرباتهم التي كانت تقذف به في الهواء وتطرحه أرضا لتتلقفه ضربات أخرى أشد وأنكى. وكان كل ما يرجوه أن يتعبوا فيتوقفوا عن ضربه. لكنهم كانوا يزدادون عنادا وقسوة. وخمّن أنهم يهدفون إلى قتله بهذه الطريقة القذرة!

استخرج أحدهم سكينا وأخذ يهرِي له جسده ويشرح في أطرافه ويفتح في لحمه جروحا ثخينة. وكانوا قد بدؤوا يستلذون وهم يرون دمه يسيح. وكانوا يضحكون ويصخبون بينما الألم يتسلل إليه شفرات حادة وحارقة. ولم يملك إلا الصراخ بملء جهده:

- أرجوكم توقفوا. كفوا عنّي، إنّي أموت، وحوش أنذال بلا ضمير أو إحساس..

سدّت ركلة قوية فمه، وسقط على أثرها كالقتيل مغشيا عليه.

لم يطلقوه إلا جملة أعضاء مكسورة ومسحوقة. وكان الدم ينفر من فمه وأنفه ومن أجزاء عديدة من جسده. وندّت عنه آهات وأنات ضعيفة. وأخذ الغثيان يضغط على صدره ويسد عليه منافذ الهواء.

تأملهم. كانوا أشبه بقبيلة إفريقية تلتف حوله وترقص رقصة الموت على روحه التي ستزهق قريبا. وحاول ما أمكن أن يسترخي ويستجمع قواه لكنه ظل متخشبا وهو يتوقع المزيد.

أمهلوه أنفاسا معدودة ثم بدؤوا في فك سروال الجينز الذي يلبسه. أنزلوا به إلى مستوى الركبتين وكشفوا عن عورته فانتفض كدجاجة مذبوحة وأخذ يتخبط ويضرب بساقيه الأرض. أحكموا قبضاهم عليه وشلوا حركته، وبضربة سكين صارمة أخصّوه. أطلق صراخا أشبه بعواء كلب يتقيأ روحه. وسمح للسانه أن يشتمهم فطالهم بكل الكلمات القذرة التي يعرفها أو تلك التي ابتدعتها لحظة الألم الفظيعة. وكانوا يستمتعون عندما أخذوا يردون على شتائمه بشتائم أخرى أكثر بذاءة. ثم شده أحدهم بقوة على شعره. وحاول بعد ذلك أن يثبت له رأسه بين ركبتيه، كما جاهد اثنان ليسحبا لسانه خارج فمه. وبكماشة مسامير أخذوا ينزعونه له. وعندما فعلوا كان قد غاص في غيبوبة لم يفق منها إلا على وقع صفعاهم تخبط وجهه.

كان في حالة من انعدام الإحساس. مشلول الحركة والتركيز. جسده يرتعش كمن أصابته الحمّى، بينما الألم ينطلق من جسده وينبع من كل ذرة فيه.

وضع أحدهم مسدسه على صدغه. وقبل أن يطلق صاح فيه آمرهم:

- ليس بهذه الطريقة. لا تنسى أن أميرنا طالبنا برأسه!

وبسمل من تلا الحكم وهو يشهر سكينا كبيرا أمامه. وبرقت من حوله أعين الذئاب التي ستنهش اللحم والعظم. وكانت ساعة

تهيجهم القصوى فأخذوا يهللون ويكبرون وكأنهم يعلنون عن حفل كبير.

وأمام مشارف النهاية لم يكن أمامه إلا لملمة أشلائه واحتضان أجزائه واستجماع ما بقي فيه من قوة وجهد. صرخ في صوت ملجلج ومن فم مشلوخ: "لا أريد أن أموت!"؛ لكن لم يبن من كلماته حرف واحد، فكأنما كلماته تأتآت غبية وضوضاء مبهمة!

- 11 -

استفاق عبد القادر من نومه فاكتشف أنه كان يعيش كابوسا، وأنه ضحية أضغاث أحلام ثقيلة ومزعجة.

شعر بحلقه قد جفّ وبقلبه يخفق في عنف. وأحس بثقل في رأسه وبصداع مرير وبألم وتنمل في ذراعه نتيجة نومه السيء.

قلب الوسادة ينشد وضعا أكثر راحة. وأغمض عينيه يحاول النوم من جديد، لكن عبثا ظل يعاند.

كان متفوزا ومتوترا، وظل عقله شاردا وفكره مشدودا إلى ذلك الحلم الذي لم يكن يختلف عن الكوابيس التي أخذت تطارده في الآونة الأخيرة بلا رحمة لتسلب منه جرعات الراحة الوحيدة الممكنة وتقذف به في حالة من الإجهاد والإرهاق. وكأنها -الكوابيس- لم تكتف بما كانت تفعله الحياة به، فراحت تزيد من توسيع جراحات روحه وتحيل دنياه إلى عالم من الأوجاع لا يريد أن ينتهي.

تساءل ماذا سيفعل لو قدموا إليه حقا، ووجد نفسه وجها لوجه معهم!

وتذكر الطبيب مسعودي محمد. كان متعاطفا مع الفيس.(*) عندما قدموا إليه ليلا وطالبوه بسيارته وقالوا إنهم يحتاجونها في مهمة جهادية، قدمها لهم بفخر وامتنان. ثم إنهم عادوا إليه في مرة لاحقة

(*) الفيس مختصر الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

يجرون إليه مصابا فاقدين الأمل في نجاته. وعندما لقي المصاب حتفه في بيته طلبوا منه أن يتصرف في الجثة. ووصلت أخباره إلى الشرطة التي اعتبرته متعاونا معهم. ولم يكن له من سبيل إلا الفرار. وقد وفر حياته إلى حين عندما رحل في صحبتهم..

وتذكر ملياني لحسن. تاجر ومتعهد تموين ومنتخب في المجلس البلدي. ليلة دخلوا عليه سايرهم. طالبوه ببعض المال فمنحهم كل ما كان يملك. وعندما عادوا إليه في المرة الثانية قدّم إليهم حليّ زوجته. كان يعرف أنهم يبتزونه، وكان يرضخ لهم مضطرا، وكانوا يوفرون حياته ما دامت تدر عليهم، لكن في الأخير قبض عليه بتهمة التواطؤ وعدم التبليغ وبدعم وتمويل الجماعات الإرهابية.

وتذكر هواري بوسيف الصحفي. كان يسكن الحي الشعبي بالمدينة. عندما اقتحموا عليه شقته قاومهم. قبض على خناق أحدهم فأفرغوا فيه عشرات الرصاصات الحاقدة. لكن عندما ارتخت قبضتاه كان قد سحب صاحباً لهم معه..

- 12 -

.. ورحت أستعيد تفاصيل الحلم الغريب.

الحلم الذي شاهدته وعشته لم يكن له من معنى إلا الكشف عن كمية الخوف التي تشربتها، وعما عاد يسكنني وبات يتهدد حياتي ومستقبلي..

ثم إن الذي لم أستوعبه فيه هو حضور ذلك الشخص الذي ظهر على أنه أميرهم!

نعم، لقد كان زميلا لي في السجن أيام محنتي. وهناك عرفته شيوعيا متحزبا ومناضلا صميما لم أشك أبدا في وطنيته وإخلاصه ومبادئه، على أني لم ألتق به بعد ذلك و لم تتقاطع حياتي معه أبدا. ولهذا أجدني أتساءل كيف عاد إلى ذاكرتي وهكذا بدون سابق موعد؟.. ثم كيف ارتد - في الحلم - من وطني إلى سفاح ليس له من هدف سوى القتل؟.. وكيف انقلب من النقيض إلى النقيض؟

ثم ما الذي أراد الحلم أن ينقله إلي أكثر من الخوف والوجل والألم!.. وما الذي كان يريد قوله لي لاوعيي الباطن وأنا تحت الضغط والتهديد!

هل كان يريد مني مثلا أن أغير عقيدتي ومبادئي لأسلم وأتخلص من عذاباتي؟.. أم على العكس كان يحذرني من تجاوز ما أؤمن به دوما والقفز على ما كان يشكل عقيدتي في الحياة؟.. ثم أليس التخلي

عن المبادئ إلا صورة مجرمة تتوج الوسيلة وقد انقلبت إلى غاية، ودم يطلب المزيد منه؟

هناك دائما أناس بدؤوا وبفعل عوامل عديدة وتحت وطأة الظروف المسلطة عليهم بالانهيار، ثم الانحراف عن مساراتهم وأهدافهم الأصيلة ليتبنوا أفكارا كانوا في فترة سابقة يرفضونها بشدة، ناشدين الاستمرارية هدفا بعدما تغيرت الوسيلة وانقلبت إلى غاية. وأكاد أقول إني على معرفة برجال بدؤوا حياتهم مناوئين للسلطة ومعارضين لها، ثم انضووا تحت جناحها باسم مغريات شتى. كما تعايشت مع وطنيين ورجال مهمومين انقلبوا في لحظة ما أو بفعل عوامل اجتماعية أو مأزق سياسي من جبهة إلى أخرى. ورغم ذلك لا أزال غير قادر أن أستوعب كيف يقدر الإنسان على تغيير جلده! و لم أكن لأفهم الدوافع إلى مثل هذه الانقلابات! وإن كنت في كل الأحوال أعتبر أمثال هؤلاء الرجال من ذوي النفوس الضعيفة أو المريضة أو الانتهازية..

- 13 -

حقا لا أدري..

ألم يداعبني الأمل في أن يهتز العرش ذات يوم؟.. ألم أحلم بالنار وهي تقوّض أركان البيت الخرب والفاسد!.. ألم أهتف من أعماقي لتسقط دولة الفساد والمفسدين؟.. ألم أحـــن إلى الـــزمن الأول وإلى رجاله المخلصين؟.. فلماذا عندما بدأ الحريق كنتُ أول المستشـــيطين والنائحين؟..

أليس ما يحدث في البلاد ثورة؟.. أليس لكل ثـــورة ضـــحاياها وثمنا كبيرا باهظا يدفع؟.. ألم أكن أغلي وأفور، فما الذي حدث؟!.. أم أني مذعور ورافض لأني أخشى أن أكون جزءا من هـــذا الـــثمن الذي كنت أؤمن به وأنادي إليه وأضمنه أعمـــالي وأعـــبر عنـــه في مسرحياتي؟.. أو حقا أن التيار كان جارفا وقد جرف معـــه كـــل دعائم الثورة الحقيقية، وكرّس بدلا عن كل ذلك جوا مـــن التـــآمر والمغالاة والسعي وراء الانتقام في حمى مجنونة لا تخلف ولا تذر؟

أؤمن أنه – وبعد مرور أكثر من سنتين علـــى تعطيـــل المســـار الانتخابـــي وانحراف البلاد نحو الفوضى والعنف، وأمام هذا الطـــارئ الذي حلّ دون موعد – أصبح الخوف مستشريا كسرطان خبيـــث لا قِبل للناس بمواجهته. وأصبح الموت موضوعا لا يعبث فيه أحد، لأنـــه لا أحد قادر أن يكون بمنأى عنه لحظة يكشر عن أنيابه ويقرر أن يضرب.

كان يمكنني أن أجد نفسي عرضة لإطلاق نار كثيف، أو ضحية كمين مع أبرياء آخرين، أو هدفا لانفجار عبوة أو قنبلة تحصد روحي وأرواحا عديدة أخرى. ولن أنعم بالراحة والسلام لا اليوم ولا غدا، كما لن تعرف البلاد استقرارا ما دام للذين يتهددون الأمن العام القدرة على ضربي وضرب سواي، وما دامت السلطات عاجزة عن وقف هذا النزيف ووضع حد لهذا المارد الذي قام كالإعصار، وراح يقلب ويدمر كل ما هو حوله في هوس وجنون.

وما حدث للرئيس "بوضياف" قبل سنة واحدة أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الوطن عبارة عن حلقة متكاملة من الوصوليين والمتآمرين، وكأنه مكتوب على أبناء هذا الوطن أن يتعايشوا مع الويلات والمحن.. وكأن ميلاد الفرح وطلوع الصبح أبعد عنهم بُعد الشمس عن الأرض.. وآخر زلزال هذه النار اللاهبة التي طوقت البلاد وأخذت تتغذى على أبنائها وكأنها الجحيم؛ فماذا بعد كل هذا؟!

يوم أباحت جماعة التكفير والهجرة روحي ودمي، واعتبرتني مارقا وأحد أذناب الطاغوت والمفسدين في الأرض تجمدت أوصالي وغشيني فزع مدمر ورعب قاتل؛ وحرت ماذا أفعل أو إلى أين ألجأ!

تمنيت حينها أن يكون الأمر دعابة سمجة. ومنذ ذلك اليوم وأنا أعيش في جوّ من القلق والضغط والخوف وأحيا وأنا أتوقع اللحظة المفصل في حياتي.

وجدت نفسي واقعا تحت إحساس مقوِّض أخذ يحطم الروح ويكسر كل جموح إلى العمل والمبادرة، اللهم إلا مواصلة دورة الحياة بكثير من المعاناة والتثبيط.، ثم كثيرا ما كنت أعتقد وأتوهم أني

تخلصت من أوجاعي بعدما تستغرقني المشاغل، لكــن لا يلبــث أن يغشاني الاضطراب والهذيان وقد سمعت بموت فلان أو علان. لأظل طول الطريق من وإلى بيتي وأينما حللت متيقظا أترصد مــا حــولي كعادة أدمنتها وجرّني إليها الخوف والتهديد، جازما أنه في كل مكان هناك عيون ترصدني وإن كان يصعب علي تمييزها بــين عشــرات العيون المحدقة والمحيطة بــي.

- 14 -

أخيرا أزاح الغطاء عن جسده. سحب نفسه من الفراش، واتجه نحو الشرفة علّ السماء تنفحه بنسمة عابرة تلطف جو الأفكار الخانقة. أطل من هناك فداهمه الظلام فاردا جناحيه كطائر شؤم غير مرغوب فيه. لا زال في الليل بقية. وما لبث أن تخلى عن مكانه واتجه إلى المطبخ فأعد قهوة الصباح مبكرا وأشعل سيجارة وأخذ يدخنها وهو يرشف من الفنجان أمامه. لقد قال له صديق ذات مرة:

- لا أحد يقدر أن يقف في وجوههم!

حينها ردّ عليه قائلا:

- بلاد كهذه لا يمكنها أن تشكو من الرجال!

لكن صديقه أردف في يقين قاطع:

- لا أحد يفكر في المواجهة الآن، إنها باتت أشبه بالانتحار!

لم يشأ عبد القادر الاستسلام، وصرخ في فزع ينشد خلاصه:

- ولكن لا بد من فعل شيء بدل الاستسلام والموت!

المزمور الثاني

أُرَتِق ما تَفَتق مِن جُبَّة حاكَها اللّٰه

- 1 -

"أبـــي..

رجل من سكان منطقتنا الأصليين، ضعيف البنية ومعروق. أسمر أو شديد الاسمرار، بجبهة عريضة وعينين سوداوين. تجـــده محتفظـــا بشاربه كعلامة عن الرجولة والترفع، ولا يرتدي إلا "جلاَّبة" البلدة الأصلية بلونها الآجوري الغامق. واعتادها قصيرة اعتياده على الحركة والنشاط. غالبا ما يفضل معها سروالا من الكتان. لا يهـــتم كـــثيرا بتغيير قميصه رغم العرق الذي يجنيه من طول اشتغاله في الحقل. غير خجل من وضعه المشارف على الفقر. ويجد عزاءه في أن يتحدث عن نفسه بفخر، فيقول:

- سنوات النضال والكفاح امتصت كل قوانا!

في أول صباي كنت أتوق لرؤيته يزورنا، وأحب الجلـــوس في حجره حتى أغفو وأنام. وكان إذا ما زارنا يفعل ذلك ليلا. يـــدخل مستترا ويطلب من أمي أن تجعلني هادئا فلا أثير الفوضى أو ما يوحي بحدوث أمر غير عادي في البيت. وكان كما يدخل متســـللا ينفـــذ كذلك. مخلفا لدي شعورا غريبا وحدسا ملهما يدفعني أن أخفي عن أقراني نبأ زيارته. ثم كان ذلك اليوم المشهود الذي عاد فيـــه أبـــــي مكللا بالزغاريد والفرح. مكث بيننا بعدها، ولم يعـــد يغادرنـــا إلا لشؤون لا تستغرق أكثر من نصف يوم، ثم كان يرجع فينام وسطنا.

كان قد عاد إلى عمله في الحقل الذي ورثه عن والده، معيـــدا الاعتبار لأرضه المثمرة التي أوشكت على البوار. وكنت عندما أنتهي من مدرستي أهب إليه لمساعدته. وكان إذا ما شعر بتعبـــي يطلـــب مني أن أستريح، فأجلس تحت ظل واحدة من الأشجار وأبقى أراقبه وهو ينشط هنا وهناك بعزيمة لا تعرف الكلل، منتشيا بالأرض الـــتي راحت تحضر وتجود في سخاء.

كثيرا ما ردد أن عمله مرهق وشاق، لكني أبدا لم أسمعه يتـــذمر منه. فإذا ما بلغ وقت الغذاء أجلسني إلى جانبه، وشرعنا في تناول ما جاد به يومنا. وخلال تلك اللحظات العجلة كان يســـمح لنفســـه بالتهدل على جذع شجرة متخففا من بعض تعبه. يسترجع أنفســـاه ويسترجع معها ذكرياته ويأخذ يحدثني عن أيام الثورة المجيدة والمعارك الباهرة، وفي عينيه حسرة على أناس عاش معهم وعاشرهم ولم يعـــد لهم اليوم من حضور إلا من خلال رواياته.

كنت أصغي إليه بلا ملل؛ بل وكلي شوق في المزيد، مستشـــفا تلك الحقيقة التي تنضح بلا زيف ككنز يسكن القلب ويملأ صـــاحبه إلى أن يلقى ربه. وكان في ختام حديثه لا ينسى أن يبـــدل الحســـرة والألم بالأمل الذي هو عقيدته، مكررا جملة واحدة يعيدها بلا ملل: "وستكمل دراستك، وسيكون الحال أفضل!..".

لكن أبـــي لم يظل كعهدي به، فقد أصابه تحول وتبدل بعـــد حين..

أذكر أننا كنا عائدين ذات مرة من الحقل والشمس تميـــل إلى الغروب. مررنا في طريقنا إلى البيت برجل يجلس أمام دكانه. رجـــل يتميز عن باقي سكان مدينتنا بأنفه المعقوف وبنظرته غير الراضية عن

حال. ولقد سمعت الرجل يقول لجلسائه كلاما أراد أن يصل صداه لوالدي الذي تسمر لبرهة أمامه وأخذ ينظر إليه في غيظ..

سألت والدي حينها مستفسرا: "ما الأمر؟"، لكنه وضع ذراعه على كتفي مهونا، وعاودنا سيرنا وكأن لا شيء حصل. وقبل أن نصل إلى البيت انتبهت إليه يقول لي:

- لا أريدك أن تهتم لشيء. واصل دراستك وتأكد أن الحياة ستفحم قلوبهم قبل نار الجحيم..

لكن بعد أيام من ذلك، سمعت أبي يتذمر. لم أكن أفهم أسباب ذلك، ثم انتبهت إلى أن أرضه قد سلبت منه، وأنه كانت هناك قرارات جديدة تخوّل أخذ الأراضي وإعادة توزيعها، وكان لـ "رابح" صاحب الدكان - وقد قفز يشغل منصب "مير"(*) دون أن يعرف أحد كيف - دخل في ذلك!

وأصبح أبي يزداد تذمرا وسخطا. وكان لا يفتأ يردد:

- ما هكذا تطبق القوانين. إن هناك من يقضي مآربه من خلف الستار. كيف للحركي أن يصبح سيدي!.. إنما تاريخنا يسودّ، وضاع كل ما جاهدنا لأجله. هل علي أن أنتظر إلى أن ينفخ في الصور!

تردد أبي على العاصمة مرات عديدة، وفي كل مرة كان يعود فيها كان يخبر أمي أن البيروقراطية قد تدعمت، وأنها أصبحت تقف حاجزا دونه ودون السلطات، وأن الأمر قد بدأ يتسرب من بين الأيدي..

(*) رئيس بلدية

ثم دعا أبــي شخصين للعشاء عندنا وأخذ يتناقش معهمـا في حدة وتوتر. استمروا كذلك إلى وقت متأخر من الليـل. وفي الغـد أعلنت أمي أن أبــي حسم أمره وقرر السفر إلى فرنسا. وفي ليلتـه الأخيرة معنا وأمام قصعة الكسكسي؛ وبعد أن ظل يعبث بملعقتـه، تنهد والدي، وقال وهو يعول عليّ في أمر خطير:

- غدا أسافر، وستغدو أنت رجل البيت. هل فهمت؟

وفهمت أن أكون رجل البيت، لكني لم أفهم ما يوجب الرحيل!

لم أقدر أن أسأل أبــي، أما هو فكان كمن اطلع على حيرتي. أجابني بعد لحظة طويلة من الصمت ولون وجهه يشبه الخيبة:

- تغير الوضع، والحرب لم تنته!

عن أي حرب كان أبــي يتحدث والحرب التي عرفتها انقضت وبانتصار ساحق على الأعداء!.. ثم هل قامت حرب أخرى لم أسمع عنها أو لم تسمح له الظروف بأن يطلعني عليها!

كنت أتساءل دون أمل في الجواب. وعنـدما حانـت سـاعة الافتراق تسمر والدي أمام عتبة بيتنا يتأملنا، وقال لي مكملا خطاب ليلة أمس:

- ستواجهك مصاعب كثيرة، فقف أمامها صلبا عنيدا. وإياك والخنوع..

ثم ابتسم عندما رآني أفكر فيما قاله، والتفت خارجـا. وبعـد بضع خطوات نظر نحونا للمرة الأخيرة كمن يتزود بصورنا للذكرى. وغاب أبــي..

طالت غيبته كثيرا. وكانت أمي تعلل أن الظروف لا تزال غير مواتية لعودته من جديد. أجدها أمامي تضمر حزنها وخيبتـها؛ وفي

الليل أكتشفها تلوذ بوحدها وتسكب دموعها. ثم بدأت أكبر وأعي العالم من حولي وأفهم أبـــي وما أوجب الرحيل.

وما حدث بعد ذلك لا أزال أذكره بكل تفاصيله..

كنت عائدا من مدرستي عندما أخبرني أحد الصبية أن أبـــي قد عاد وهو الآن في البيت.

امتلأت بفرح لا يضاهى، وانطلقت أعدو وأسابق الـــريح إلى دارنا، وما إن دخلت البيت حتى وجدته يغرق في صمت رهيـــب. تفاجأت عندما لم أعثر على أي وجه من الوجوه التي اعتدها فيـــه، ودرت أفتش عن الجميع. وانتبهت أن أمي تغلق باب غرفتها علـــى نفسها، وخمنت أن أبـــي لا بد معها في الداخل.

طرقت الباب برفق وعندما لم يرد علي أحـــد انتـــابني القلـــق فأخذت أدقه في عنف وأصرخ مطالبا بفتحه. حينها انتبهت إلى عمي يدخل بيتنا في صحبة رجل غريب.

كنت أفكر في أبـــي. وكان يجب أن يكون هو من يقف أمامي بدل الغريب الذي مد لي ذراعيه واحتضنني. وُجِمـــت وارتعـــدت فرائسي.

سألت: - أين أبـــي؟

وظللت للحظات بلا جواب.

لم أكن أحاول أن أتوقع شيئا؛ لكن عمي ربت أخـــيرا علـــى كتفي، وهو يقول:

- غدا نذهب لإحضار أبيك من العاصمة..

شغلتني جملته المتشحة بالحزن، ودفعت إلي بكل أفكار الســـوء التي طوقتني. وهتفت أسأل:

– ماذا جرى له؟ كيف حاله؟ ولماذا بقي في العاصمة؟

لكن عمي قال وكأنه يحاول صرف انتباهي أو كمن يعمل على تأجيل قضاء ما:

– حسنا، ربما كان من الأفضل أن نحضر أنفسنا للسفر. فأمامنا غد شاق وطويل.

وفي الغد كنت أقف أمام صندوق خشبي. ومن خلال فتحة بحجم شبر كنت أنظر إلى أبي ميتا..

كان وجهه أزرق كالحا. وكان منطفئا، ولم يشأ أن يفتح عينيه أو يبتسم. عاد مسجّى في نعش بعدما قضى بسبب طعنة ماضية تحالف فيها المنفى ضده. وبكيت كما لم أبك يوما.

قال عمي: – يجب أن نعود قبل أن يسخن الجو..

وسرنا في سيارة تتقدم شاحنة صغيرة وُضع فيها أبي وحيدا. وعندما دخلنا مدينتنا، قابلتنا الزغاريد والمزامير والطبول وتجمعا كبيرا..

لقد أولم صاحب الأنف المعقوف وليمة كبيرة نكلة في أبي المتوفى..". (*)

(*) كانت هذه القصة – قصته مع والده أول ما سوَّده عبد القادر في كراسة مذكراته. وقَّع نصه بتاريخ 03 يناير 1994. أما النصوص الأخرى التي أعقبت نصه الأول فقد جاءت غير ملتزمة بسيرورة الأحداث وغير خاضعة لأي ترتيب، أو ربما كانت أكثر خضوعا لحالة ونفسية كاتبها. ولهذا كان لزاما علي أن أجتهد لأضبطها في نسق معين، ولعله نسق يتوافق مع الشكل الذي أردته أنا للرواية. كذلك وجدتني أتساءل حول رمزية التاريخ الذي جاء مقرونا بنصه الأول، وقد قمت بمراجعة تواريخ عديدة اعتقدت أنه يمكن أن يكون لها علاقة بتاريخ بدايته لكتابة مذكراته، لكنني عدت خالي الوفاض ولم أكشف عن شيء. كانت قد

....

مرت بعض الأيام على السنة الجديدة، والتاريخ لا يمت إلى يوم ميلاده بصلة، كما لا يمت بصلة إلا تاريخ وفاة والده. كذلك ما من حدث هام وقع بهذا التاريخ ويمكنني أن أقرنه بشخصه. ولعل لهذا التاريخ علاقة بحدث لا يقوم إلا في ذاكرة صاحبنا، ولعه كذلك لا يعني شيئا. وربما اعتزم عبد القادر كتابة مذكراته واختار لذلك اليوم الأول من بداية السنة الجديدة إلا أنه ولمشاغل معينة أرجأ الأمر بتأخير بسيط. ولعل قيمة هذا التاريخ تمكن في أنه اليوم الذي بدأ فيه صاحبنا بكتابة مذكراته ولولا ذلك لكان فاتنا الكثير عنه وعن حياته. ثم أليس في هذا حد الكفاية.

- 2 -

"رحل والدي و لم يترك لنا أدنى مظهر من مظاهر الحياة. إن وضعنا لم يكن يختلف عما كنا نعيشه أيام الاستعمار. لا سكن لائق ولا مال ننفق منه على الأيام الصعبة ونستعين به على المحن. كنا نسكن في دار تجمع عدة سكنات، بها حوش واحد وبيت خلاء واحد وغرفة واحدة جدرانها متآكلة بفعل الرطوبة والزمن وسقفها مسودّ من أثر السخام والعفن.

وأذكر أنه في الأصائل كانت تزورنا جارتنا سعدية الدلالة. وفي حضورها كثيرا ما كنت أدعي القيام بواجباتي المدرسية بينما ينشغل عقلي بحكاياتها التي تطول الحي بأكمله. كانت امرأة نمامة تنتقل من منزل إلى آخر كاشفة الأسرار والخبايا. ترويها في تهويل تارة أو تجعل منها ملحا ونوادر.

وأنصت إلى أمي في إحدى المرات وهي تشكو لها حالها وغدر الزمن والبؤس الذي نغرق فيه. وانتبه إلى جارتنا وهي تشير عليها بالزواج؛ فبرأيها أن سنها لا يزال مقبولا. وهي فوق ذلك مطلوبة. ولا أدري إلا بغضب جهنمي يتملكني، وقوة عمياء تدفعني لأصرخ في وجهها:

- أمي لن تتزوج، وذكرى أبي ستظل باقية. وتاريخه لن يمحوه رجل آخر!

وبختني أمي حينها، وأخبرتني ألا شأن لي بحديث النسوة. لكـــني هتفت متعجبا:

- كيف تقبلين بهذا الكلام!.. ألا يزعجك ما تقول!

وتحاملت علي الجارة، وهي تنفث المزيد من سمها:

- وهل رحم أبوك أمك وقد نسيها في غربته طـــول هـــذه السنين. إن الله منحه ما يستحقه جزاء فعلته في حق هـــذه المرأة المسكينة.

- أنا لا أسمح لك. إنك تتهمين أبـــي ظلما..

وقمت بطرد الجارة من البيت. لم تقدر أمي على منعي بعـــدما وجدتني أفور وأغلي، وإن قالت لي وهي تحاول تهوين الأمر وتلطيف الأجواء:

- ما من رجل سيحل بعد والدك!

تحاملت أمي على نفسها وتدبرت أمرها وبدأت تشتغل في أحد البيوت. وفي أحد الأيام جاءتني وأخبرتني أن الرجل الـــذي تســـاعد زوجته سألها هل لها صبـــي صغير، وأنها أجابته أن لـــديها ابنـــا في الرابعة عشر من العمر. وأخبرتني كيف تهلل وجه السيد عندما سمـــع ذلك، وأنه هتف "مدهش". وأنه طلب منها أن تصطحبني معهـــا إلى بيته في يوم الغد..

تلك الليلة ظللت أسأل أمي: - ماذا يريد مني هذا الرجل؟

لم أكن أعرفه شخصيا. وعبثا كنت أحاول أن أتخيل الموقـــف الذي سيجمعنا كما أن أمي لم تشف غليلي بأجوبتـــها، ولم تـــرو عطشي..

كانت تقول: - ربما رثى لحالي وأوجد لك شغلا عنده..

- وماذا يعمل؟
- والله ما عرفت يا بني. رجل ذو هيبة ووقـار ويعمـل في العاصمة، وحتى زوجته لا تفهم ماذا يشتغل بالضبط...

ثم راحت ترجوني ألا ألح أكثر. وطلبت منّي أن أنتظر ففي الغد الخبر اليقين..

في الغد استقبلتنا زوجته. قادتني مباشرة إلى غرفة علـى يمـين الداخل. دقت الباب ثم دفعتني أمامها وهي تقول: – إنه ابن حليمة..

كان المكان صالونا. ووجدت السيد يجلـس في آخـره علـى مكتب عليه أوراق وكتب مبعثرة، بينما انتصبت خلفه مكتبة ضخمة ضمت مئات الكتب الملونة. كان قد نزع نظارته وطلـب مـني أن أتقدم إليه. وحاولت أن أنزع حذائي الأغبر قبل السير فوق البسـاط لكنه رجاني ألا أهتم لذلك.

بدا لي ضخما. وبرأس كبير وعينين غائرتين. وعكـس نـور المصباح فوقه صلعة براقة بقيت طول الوقت أختلس النظر إليها.

سألني مبتسما عن اسمي. كان كمن يريد أن يؤسس لألفة بيننا. وربما أدرك مدى الارتباك الذي أنا واقع فيه من خـلال تصـرفاتي وطريقة تحركي.

قلت متلعثما: – اسمي عبد القادر..

- وما اسم أبيك؟
- لخضر..
- هل تعرف من أكون؟
- كاكي..
- وهل تعرف ماذا أمتهن؟

- قالت أمي إنك تعمل في العاصمة..
- وماذا أعمل في العاصمة؟
- تعمل عملا كبيرا..
- وما هو هذا العمل الكبير؟
- لست أدري..
- حسنا، لقد كنت أعمل في العاصمة لكني نقلت في هذه الأيام للعمل في وهران ومستغانم. وأنا هنا بصدد تكوين فرقة مسرحية قادرة على التمثيل..

وعندما وجدني صامتا، واصل وأخذ يحكي لي عن مسرحيته التي كان يحضر لعرضها. كان منفعلا مع كل جزء منها. ولقد أخذ يحاكي بين الفينة والأخرى حركات الممثلين وإيقاع كلماتهم ويمثل أمامي لينقل لي أكبر حشد من المعلومات. وكانت الحركات التي يقوم بها تصاحبها عبارات وكلمات أدهشتني..

نعم، أُخِذت بما كان يقوم به. وكل ما كنت أراه أمامي بدا مدهشا. وكان هو أشبه بمجنون. بل مجذوبا من المجاذيب. وأخيرا اقترب مني ومسح على رأسي وواجهني بسؤال أربكني:

- ماذا قلت، هل ستنضم إلينا لنمثل هذه المسرحية؟.. إني في حاجة إلى طاقات شابة تشاركني العمل. وكن على يقين بأننا سننجح. وسنجوب بعرضنا كل المدن الجزائرية. وربما ابتسم لنا الحظ لنسافر بعرضنا إلى الخارج..

هل كان الرجل يغويني بالسفر والرحلات!

وقفت حائرا بماذا أجيبه!.. لم أكن أفكر في التمثيل. وكل ما كنت أرجوه حرفة -إلى جانب دراستي- أتقوت بها أنا وأمي. أما

هو فكان يحاول أن يقحمني في عالم كنت أجهله حتى تلك الساعة. وبدوت أمامه مرتابا في ولوجه.

كنت بعدُ لم أحس بميل إلى التمثيل. والممثل حينها كان محترما في أدائه وفي المقاصد التي يذهب إليها. لكن الفن كحرفة كان يعني كذلك الصعلكة والعيش على هامش الحياة. لم يكن لي من خيار فوعدته أني سأزوره في محترفه في حي "كلوزيه". قلت ذلك تجنبا للموقف وللإحراج. وكان من الممكن أن تنتهي كل حكايتي بالمسرح هنا. لكني فجأة وأنا أخرج من مدرستي وجدته أمامي. فهل كان ينتظرني؟

هذا ما لم أستطع الجزم به. لكنه أول ما لمحني دعاني إليه. ثم قادني معه أين أراني مسرحه. وقال إنه سينتظرني في الساعة الخامسة من ذلك اليوم.

كان هو من حسم ترددي وحيرتي. فأنا وأمام مبادرته وحركته الأخيرة معي لم أستطع إلا أن أحضر.. الخجل والاحترام ما قادني إليه. وفي مساء ذلك اليوم وجدت نفسي أمام عالم غريب كان قبل ذلك مجهولا لدي. فقد وجدت الحضور يمثل مشهدا من مسرحية ما..

"الدرويش: فرنسا أخذت أولاد الجزائر حتى تدفع بهم إلى النار. حتى يعملون لأجل الاستعمار..

كوريفي: والاستعمار أصبح يحكم بأحكامه. والذي يتنبه ويتفطن ويحاول الكلام يخنقونه..

الدرويش: وفي مرات عدة ينفونه. فأخبروا الأم أن ولدها المنفي لن يعود، لن يعود..

الجندي: يا أبناء عمومتي، ماذا أفعل أنا في هذه المعركة ووسط هذا الثلج الكثيف. ماذا أفعل وسط كل هذا الدم وعلى هذه الأرض القفر.. العلم ليس علم بلادنا، والعربـــي يموت لأجله. والعدو ليس بعدونا ونحن نقاتل فيه!

الكابران: القانون هو القانون، والذي يخون ويفر يوجب عليـــه القتل.. اشهدوا يا إخوان، فأنا سأقتله حتى أرقى إلى سارجان..

الدرويش: أمك الجزائر أيها الغافل، فماذا تفعل هنا؟.. أمـــك الجزائر يا غافل، يا من تحارب لأجل الأسماء والمناصب..

الطفل: سيدي، لقد قالوا لنـــا في المدرســـة إن الجزائـــر أرض فرنسية..

الشيخ: كذبوا عليك يا ولدي، كذبوا عليك. شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب.. شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب..." (*).

أدهشني ما كنت أراه، وأذهلتني تلك المشاركة والروح الجماعية للفرقة. وقبل المغادرة كنت أحمل معي نسخة من تلك المسرحية.

أنيط بـــي دور صغير فيها، لكنني كنت سعيدا به. وأخـــذت أستذكره بين الحين والآخر مخافة أن تضيع حروفه مـــني. ولم يمـــض ذلك اليوم حتى كنت أحفظه عن ظهر قلب. وفي يوم الغـــد ســـألني كاكي هل أجدت حفظ دوري. وهززت رأسي، أي نعم. فطلـــب مني أن أؤديه أمامه..

(*) من مسرحية 132 سنة لعبد الرحمن كاكي -بتصرف. وهنا يجب أن ننبِّه أن جل كتاب المسرح في الجزائر ولثقافتهم الفرنسية وتكوينهم كـــانوا يكتبون أعمالهم مستخدمين لغة "الشرابيا" وهي ما يعني اللهجة الجزائرية (اللغة العامية) بأحرف فرنسية.

- لا يا عبد القادر يجب أن تقوله هكذا..
- لا يا عبد القادر يجب أن يكون انفعالك أكثر من ذلك..
- لا يا عبد القادر، إنما المقصود أن تتحرك هكذا..

أخذ يوجهني. وبسرعة كنت أتعلم وأتقن دوري. ومن خلال هذه المشاركة أحسست بإنسانيتي، وأني ولدت من جديد. ثم ما لبثت أن شعرت برغبة لا تقاوم في أن أصبح ممثلا. لا بل نجما.. "القراب" نفسه بطل مسرحيتنا الجديدة الأخرى. وكانت هذه الرغبة ملحة ومطردة لفتى حديث العهد بالتمثيل. لكنها شغلتني بقوة حتى اكتسحت كل ما عداها.

رحت أستغل كل شيء وأي شيء لأكوِّن نفسي. وكم كنت أبدو منفعلا ومتوترا وأشبه بحصان جامح يحاول أن ينطلق بأقصى ما فيه. التهمت عشرات الكتب. وانفتحت على مسرحيات عربية وعالمية. ومن خلال حواراتها كنت أحاول أن أمتلك انفعالات وأفعال الأبطال الحقيقيين. أصور المشاهد بنفسي وأشكلها كما يحلو لي. ورحت أحفظ المقاطع المؤثرة والحاسمة بسرعة وعن ظهر قلب. وفي أحايين كثيرة كنت أجلب السخرية لنفسي من زملائي في المدرسة وأقراني في الحي عندما كانوا فجأة يجدونني أردد كلاما مسرحيا لا يدرون ما الداعي إليه. فكأنني عدت أتنفس المسرح. ثم حدثت المعجزة الكبيرة التي غيرت منحى حياتي كلها..

- 3 -

كان التمثيل في بدايته مجرد هواية ومساحة للتنفيس. ثم تحول وأصبح غاية. أدركت أن يكون للإنسان هدف يسعى إليه. وآمنت على ذلك بعد الجملة التي قرأتها للكاتب "يوجين يونسكو"، الذي قال عن نفسه: أصبحت كاتبا (مسرحيا) لأنني لم أقدر أن أكون قديسا..

لقد أحدثت فيّ هذه الجملة أكبر الأثر. ويمكنني القول إنها فعلت بي ما لم تفعله كل الظروف الأخرى مجتمعة. نعم، كنت أرى نفسي مجردا ونزيها، كريما وذا غاية. و لم يكن أمامي إلا كلمات أنثرها، فتنير العقول وتهدي القلوب وتحقق العدالة والكرامة والحب والفضيلة..

كنت دوما أنتظر وحيا يوحى إليّ. وهكذا جاءني عبر هذه الجملة. وكان يقول لي، تحرك وافعل فتُغير العالم من حولك.

استولت هذه الجملة على جميع حواسي وقلبت كل مداركي وشغلتني إلى الأبد. كنت قد بدأت أنظر إلى نفسي بمنظار آخر. وأرى في الفن الذي أصبحت جزءا منه إحدى معجزاتي التي سأواجه بها البشرية قاطبة. وبدأت بالتنفيس عن كوامني ومكنوناتي. وبدأت بكسر قيودي ساعيا لكسر قيود مجتمعي منطلقا صارخا بكل ما أوتيت من قوة: "ها أنا ذا نبيّ جديد لبني الإنسانية. فاسمعوني وخذوا

عني..". وكتبتُ أول أعمالي المسرحية بعنوان "أحلام طالب"؛ لكن أعضاء الفرقة ما إن سمعوا أني كتبتُ مسرحية حتى نعتوني بالمتطاول والمتعجرف وبالمنشق وناكر المعروف.

واجهت الأمر بكثير من الإصرار. ولأول مرة كنت بعد انضمامي إلى الفرقة أشعر بنفسي وحيدا، لكن ماذا جنيت ليحصل معي كل ذلك؟!

لقد شعرت بأنني قادر على البوح بأشياء ففعلت. فهل هذا سبب يلام عليه المرء!

هذا ما أخبرت به كاكي، الذي سألني عن مضمون ما كتبت، فصوَّرت له موضوع المسرحية. وهتف: "آه، إنها قضية هامة تسجل معالجتها للمسرح الجزائري..."، ثم طلب مني أن أريه ما كتبت. وتأمل الأوراق، لكنه هتف: "لكنها لغة فصحى!".

لم أشأ التنازل عن هذه اللغة. ولقد كان جهلهم بها أيضا سببا في رفضهم لما قدمته. أما الأسباب التي كانوا يطلقونها فهي أسباب غير أصيلة. كانوا يرون أن العالم العربي كله خارج من الاستعمار. وعموم الشعب وفي كافة الأقطار كانت تجهل اللغة الفصحى. لكني كنت أعرف أيضا أن هذا لم يمنع أيضا كتابا جادين من أمثال شوقي والحكيم أن يكتبوا بها. وكنت مصمما على الدفاع عن فكرتي. وكان الاستسلام يمثل لي خيانة لنفسي ولما كنت أشعر وأحلم به..

بكتابتي لمسرحيتي الأولى توقعت جزاء حسنا، ثم أظلمت الدنيا من حولي وأنا أنصت إلى كاكي وهو يصدر حكمه المتعجل والقاسي في حقي: "إن من يعمل على تحطيم وحدة الفرقة لهو أناني ومتطاول.

واحد مثلك لا يجب أن يكون عضوا في فرقتي. نحن لسنا بحاجة إليك، فابحث عن نفسك بعيدا عنا..".

الكثير من الأصدقاء سعوا للقائي ومحاولة إقناعي بالعودة إلى الفرقة. ولقد قال لي أحدهم وكان أكبر سنا مني: - إنك أكثر واحد فينا يحبه كاكي ويثق به. وإنك تعرف تقديره لك. وأنا واثق من أنك لو اعتذرت له فسيكون أكثر رحابة صدر. وستعود بيننا من جديد..

كذلك قال لي آخر: - كان الأحرى بك أن تعتذر، كان يجب أن تفهم أنهم من يديرون الفرقة. ونحن لا يمكننا إلا أن نكون ممثلين فيها..

لم أكن حينها قادرا على نسيان الإهانة التي لحقت بي. وكلامهم كان بدوره يتضمن سخرية مرة لم استسغها. لذلك قلت لهم: - في الواقع أنا نسيت كل شيء. نسيت حتى أنّي كنت واحدا منكم في يوم من الأيام. ولسوف أشق طريقي وحدي. وأنا الآن أراه أمامي..

كان كل ما يملؤني لحظتها التحدي. وكانت هذه القوة -قوة التحدي- تنضح من كل مسامات روحي. ولم تشغلني الإهانة بعد ذلك أبدا. وجل ما كنت أفكر فيه أنه إذا بقيت معهم فإنني سأسجن نفسي في قفص يضيق وطموحي، وأني لن أعدو إلى أبعد من موقع قدمي..

جمعت بضعة أفراد من الحي ومن زملاء الدراسة، ورحنا نعمل على مسرحيتي. كنا نقوم بالبروفات ببرج "المهال"،(*) ثم وجدنا

(*) برج المهال، برج عثماني عتيق مهمل يشرف على حي الدرب اليهودي العتيق وسط مدينة مستغانم

أمامنا معضلة كبيرة لم نكن نعرف كيف نواجهها. فالمسرحية لا تتم بالممثل وحده، وإنما يتشارك فيها الممثل مع المتلقي. وكنا نتساءل كيف سنقدم عروضنا. وكلنا يعرف أن الحصول على صالة للعرض من سابع المستحيلات ناهيك عن الدعاية والحضور!

حينها واتتني فكرة جريئة. رأيت أن نجوب شواطئ المدينة والمدن المجاورة. ننصب خيامنا هناك، ونستمتع بالمصيف وبتقديم عروضنا.

كنا في صيف 1971. وكنت قد جمعت أعضاء فرقتي الصغيرة وحاولت إقناعهم بفكرتي وقلت لهم اعتبروا الأمر مجرد عطلة صيفية ممتعة. عليكم أن تنظروا إلى ما نقوم به على أنه تسلية، وإن لم يعجبكم الأمر نعود إلى ديارنا. وهكذا قررنا أن نجرب فلن نخسر شيئا في النهاية.

غادرنا منازلنا وتركنا كل شيء خلفنا. لم نحمل في جعابنا إلا روح المغامرة. وقدمنا أول عرض لنا وسط المصطافين. خلقنا جمهورنا ولم ننتظر مجيئه إلينا. كيف لا وأصل المسرح العربي كان "الحلقة".. بمرور الوقت بدأت عروضنا تتنوع وأخذت تتناول مواضيع عديدة. منها الإنسان وصراعاته الاجتماعية. قدرة هذا الإنسان على مجابهة مصيره والانطلاق نحو واقع أفضل، كما حاولنا الكشف عن مختلف الآفات التي تنخر المجتمع بطريقة ساخرة ودعينا إلى تجاوزها. مستمدين غالب مواضيعنا من الحكايات الشعبية والفلكلور. هادفين من خلال ذلك أن نصل إلى لبّ المتلقي الذي كان من العامة. حيث رأينا أن ذلك أفضل لباس نعكس من خلاله واقعنا وما نعيشه. معتمدين في ذلك على أبسط الوسائل فكنا أحيانا

نستعيض عن الديكور بالوصف أو بأشياء صغيرة دالة. وغصن شجرة كان يمكنه أن يكون غابة كثيفة. وحبل سجن كبير. وزورق صغير أسطول حربي هائل.

لم نكن مجبرين على الالتزام بالنص الحرفي. وعروضنا جاءت أقرب إلى كوميديا "دي لارتي" الإيطالية. أما حواراتنا فكانت تتطور بحسب انفعالات وأهواء الجمهور. فالممثل وهو يقف وجها لوجه أمام المتلقي لا يمكنه صرف نظره عنه أو تجاهله. لهذا ستكون مهمته الأخيرة إلى جانب الالتزام بغاية العرض التجاوب مع هذا الجمهور مع محاولة السيطرة على انفعالاته والتحكم قدر المستطاع بأهوائه وتقلباته.

- 4 -

في أحد الأيام، وبينما نحن نقدم واحدا من عروضنا وجدنا الشرطة تنقض علينا وكأننا لصوص أو قطاع طرق. حاصرونا وقيدونا أمام مرأى الجميع. وظلت ملامحنا تعكس الحيرة ونحن نقاد في إذلال إلى عرباتهم نحو أحد المراكز أين طرحوا علينا بعض الأسئلة وأجبنا عليها بكل ثقة. ثم أعلمنا أن ما كنا نقوم به مخالف للقانون. وأنه ليس لنا الحق في الدعوة إلى التجمهر. وأن المسرح الذي ندعيه له قاعاته وأطر يجب أن يسير بمقتضاها. وانتهوا إلى اعتبارنا مجرد طغمة من المشاغبين. وفئة ضالة تنادي بالفوضى وتهدد الأمن العام. حينها تذكرت حملة التشهير بنا في أحد الصحف عبر مقالات نسج خيوطها صحفي محرض ربما أوعز له القيام بذلك الدور. وكانت مقالاته تدعو إلى عدم تسييس المسرح الذي هدفه الأساسي والأخير المتعة والترفيه. وعندما حاولت أن أدافع عن أفكاري أمام المحقق تلقيت صفعة على وجهي آلمتني، وكانت تلك هي الإهانة الأخرى التي لحقت بي بعد طردي من الفرقة..

أخلي سبيل جميع رفاقي بعد ذلك. واحد إثر واحد، وفيما كنت أنتظر الإفراج عني وجدتهم يقتادونني إلى مكان آخر بعدما تعمدوا عصب عيناي. وهناك عبروا بي متاهة ودهاليز ليس لها آخر، وحشروني وحيدا في زنزانة قذرة ورطبة وباردة. بعدها

اعتقدت أنهم نسوا أمري لكنهم عادوا إلي في اليوم الرابع، وجروني ككلب نحو أحد المكاتب.

كان المسؤول هناك رجلا شديد القسوة والغل. وكنت وأنا تحت رحمته أشعر وكأن بيننا ثأر قديم يحاول أن يستوفيه. سألني عن والدي، ولماذا هاجر. وسألني هل كنت أحضر اجتماعاته التي كان ينظمها في البيت، وسألني كذلك عن موته، وهل لي فكرة عمن قتله. ولم يرد أن يستوعب أني كنت صغيرا حينها ولم أكن لأفهم ما يحدث حولي.

علمت منه أن والدي كان من بين الذين خططوا للانقلاب الفاشل، وأنه ذهب ضحية تصفية حسابات بين الجماعة التي كان ينتمي إليها. وأخبرني أن هناك من يقول أن مخابرات الدولة هي التي قامت بتصفيته، وسألني هل بدوري أؤمن بهذا الكلام. وكان يبدوا أنه يهتم بإفادتي ويسجل كل كلمة أقولها.

دون أن أنتبه وجدته يغير موضوع حديثه. صار يسألني عن علاقتي بالشيوعيين. وهل كنت أحقد على السلطة. سألني كذلك عن علاقة الفن بالسياسة وعن الكتب التي أقرؤها وعن علاقتي بحورية وأمي وصاحب الأنف المعقوف وكاكي وآخرين كنت على معرفة بهم حتى صرت ألتفت حولي. إذ كيف جمعوا كل تلك المعلومات ومن أين لهم بها. وآمنت بخطورتهم.

خلال سجني في سجن المدينة الجديدة تعرفت على الكثيرين من معتقلي الرأي العام والسياسيين. بقيت هناك بدون محاكمة. وكم هي كثيرة تلك الكوابيس التي زارتني وعايشتها. كانت تسبب لي الألم وكانت أكثر فظاعة من سجني ومن كل أساليب العقاب والتنكيل

الأخرى. كذلك كنت أفكر في الذين هم في الخارج. وكنت أتساءل بعد كل يوم يمر هل لا زالوا يتذكرونني؟ ولعلهم لا يعرفون هل مت أو لا زلت على قيد الحياة؟. ولعلهم يذكرونني ليوم أو لساعة أو أعبرهم في لحظة ما كذكرى قديمة. وأكاد أجن حين أفكر أهم في الأخير سيواصلون حياهم من دوني.

بعد ستة أشهر من السجن والمعاناة دعاني المسؤول نفسه إلى مكتبه، بدا في تلك المرة على غير عادته ووقاحته. عرض علي سيجارة من علبته المرفهة فأبيت، لكنه أصرّ، فسحبت واحدة مرتبكا. حينها تقدم بنفسه وأشعلها لي. بينما أنا أستغرب كل حركة يقوم بها، وأتوقع مناورة ما..

تفرست فيه أنتظر مفاجأة جديدة، لكنه قال وهو يتظاهر بتسوية أوراق أمامه:

- لقد تقرر إطلاق سراحك بعدما تبين أنك لا تمثل أي تهديد.(*)

(*) يعتبر هذا أول اعتقال سياسي تعسفي تعرض له البطل. وكان عبد القادر بعد ذلك قد تبنى الفكر اليساري وآمن به، أما أيامها فقد كانت الدولة تطارد الشيوعيين وترى فيهم الخطر الذي يتهددها؛ أو هذا ما كان عليه الحال في جل الدول العربية التي ظلت تخشى هذا الفكر وتعمد إلى محاربته وتزج بأصحابه في السجون. وإن كانت أغلب هذه الدول حينها – وللمفارقة- تتبنى الاشتراكية نهجا لسياساتها.
إننا نفهم أن هذه البلدان وبعد استقلالها وجدت نفسها تعاني من فراغ فكري وعقائدي ولهذا سارعت إلى تبني فكر أحد أقطاب الصراع غير مخيرة. ولعلها مالت إلى الاشتراكية لأن مواطنيها كانوا يطمحون إلى العدالة والمساواة والتي برأيها لم يكن يتوفر عليها إلا القطب الذي ساندهم في محنتهم ودعمهم بالسلاح أيام ثورتهم وسعيهم للتحرر. لكن

....

الواضح أيضا – وهذا ما لم يقله أحد – أن الاشتراكية تتوفر على ما ترغب فيه الزعامة العربية من استفراد بالحكم وتعطيل لكل أسلوب ديمقراطي. مدعية – وفي نفس الوقت – ومن خلال ما يسمى بالسياسة الدولية، وأمام أنظار العالم المنقسم على نفسه بأن الاستعمار الحديث صار يقوم على الرأسمال وهو النهج الذي تعتمده الدول الغربية، بحيث جعلت من الدول الرأسمالية البعبع الذي يجب أن تخشاه شعوبهم وتحذره؛ مُؤَمِّنة بذلك حقها في الاستمرار والحكم. أما وداخليا فإنها كانت تعتقد أن ما من شيء يتهددها كالفكر الشيوعي الذي أساسه الثورة والتغيير. ومخافة أن تقلب الطاولة عليها راحت تحارب أبناءها الوطنيين ممن كانوا ينتمون للتيار الشيوعي.

ولعل من زجوا بعبد القادر في السجن كانوا يعرفون والده، وكانوا يرونه يسير على خطا الرجل الذي لم يعجبهم فكره. الرجل الذي قاموا باعتقاله وتعذيبه على أيام الاستقلال الأولى حتى آثر الهجرة إلى بلد العدو الغاصب لما فيه من حرية، مؤثرا العيش فيه على البقاء في بلده التي حارب لأجل حريتها وما عاد فيها شيء اسمه حرية. ثم ها هم يتعقبون الابن ويفعلون به ما فعلوه مع الأب. وهذه هي حالهم مع كل من لم يعجبهم فكره. ثم ها هو البطل وكوالده يرى خلاصه في الهجرة وينتهي إليها..

- 5 -

أطلقوا سراحي أخيراً. فإذا بـــي أخرج من سجن إلى آخر أكثر إظلاما!

اكتشفت أن فرقتي قد شتتت. وتفاجأت بزواج حبيبتي. وأمـــي بدورها تستعد للزواج من صاحب الأنف المعقوف.

وأمام ما حصل لم يكن لي من نصير غير الدموع. بكيت كمـــا لم أبك يوما. وأما أمي فقد هتفت تقول لي مستاءة: "يا خي واش ربيـــت في بيتي. لا تبكي غير النساء!". وكأنها لم يعجبها حالي وهي تتواطؤ ضدي!

كنت أشعر بالغصة مضاعفة، ولهذا كنت أبكي. ثم من سنَّ هذا القانون المجحف والأرعن، وأراد من الرجال أن يكونوا مجرد صـــفيح جامد!

في الليلة الأولى لخروجي من السجن بدأت أشعر بفراغ رهيب، وكأن الأحلام المسلوبة مني قد أفرغتني عن آخري، ونسيت أن تؤثث داخلي الذي صال وجال فيه الهم والغم.

في تلك الليلة أيضا سكرت. كنت أفعل ذلـــك للمـــرة الأولى. كنت كمن يريد أن ينسى الحزن علّه ينساه ويتجنب دربه في المقبـــل من الأيام. رافقت بعض عشراء السوء كما يحلو للجميع أن ينعتهم، وفي صحبتهم شربت. دخلت بيتنا في وقت متأخر مـــن الليـــل وفي فراشي بكيت من جديد.

شعرت بعد ذلك بالراحة والحرية كمن اغتسل وتعمد. ولكني في الصباح وبعدما طارت السكرة وأثرها؛ وبعدما صحوت أدركت أن الحزن يظل عالقا كالوشم لا يمحوه شيء. وكان عليّ أن أتدبر حيلة أخرى.

أي الخيارات كانت لي!.. لا شيء غير التلف والسير إلى الضياع.

عندما تُسرق منك أحلامك إما أن تموت بالحسرة وإما أن تتمرد. وفي كل الأحوال "راح تجيبها في روحك"، ولن تضر إلا نفسك.

لقد أدركت أنه ما من أحلام بقيت لي على هذه الأرض الغادرة والمتوحشة. وبدأت أشعر بالاختناق. ودار رأسي على أثر ذلك. ولم أجد ما استند عليه. ولم أدر كيف ألتقط أنفاسي!

ثم بدأ كل شيء يدفع بي إلى الرحيل والهجرة.

- 6 -

كنت في فترة شبابـــي الأول متحمسا أرغـــب في الانطـــلاق بعيدا عن العالم الذي شكله الرواد. وبدأت أبحث عن قالب جديـــد وأنشد شكلا مختلفا من المســـرح يقـــدر أن يســـتوعب أفكـــاري وتصوراتي. حاولت أن أبدع بعيدا عـــن أدوات ولغـــة المؤسســـين ونظرتهم التي تميل إلى الشكل المبسط والقريب من الفودفيل وكوميديا "دي لارتي"(*) الارتجالية واستسهال فكرة المسرح في سبيل إبـــداع جديد غير مسبوق أكرس فيه ذاتي كواحد من المجـــددين في الفـــن المسرحي الذي برأيي يجب أن يرتكز إلى تطلعات الجماهير المتواترة.

ومن حكايا أمنا الغولة وقصص الجازية والضاوية وزينة وصور ألف ليلة وليلة، ومن تلك الأجواء السحرية تشـــكل وعيـــي الأول. ولقد كُتِب لهذه القصص أن تمتزج في فترة لاحقة بحكايات والـــدي وبطولات المجاهدين وأبطال المقاومة الشعبية وبرجـــالات النضـــال السياسي..

في فرنسا حاولت أن أواصل تجربتي. سعيت لإرســـاء مســـرح جديد يحفل بالغايات غير مهتم بالشكل التقليدي المعروف أو بالربح. انتقلت من فكرة أن المسرح للفرجة والتســـلية إلى اعتبـــاره منصـــة

(*) كوميديا دي لارتي فن مسرحي شعبـــي أساسه الارتجال والعفوية. نشأ بايطاليا وعرف بها منذ تاريخ 1550م

لشحن الجماهير والكشف عن تطلعاتها وفضح حجـــم التحـــولات الاجتماعية الحاصلة، حافلا بالحياة اليومية ومسلطا الضوء على طبقة بعينها. الناس البسطاء والكادحين في سبيل حياة أفضل. محاولا بكل ما أوتيت من دربة وإمكانات أن أفضح أساليب الابتزاز الرخيصة أو ما شاب التقدم نحو المستقبل من عراقيل تكبله وتخنقه. هادفـــا مـــن خلال كل ذلك الوصول إلى مجتمع حر وديمقراطـــي، خـــال مـــن استغلال الإنسان لأخيه الإنسان. مبدعا في نفس الوقت شكلا جديدا غير مسبوق في المسرح، وهو أقرب إلى المسرح السياســـي. وقوامـــه الحكاية على أن يتم التشخيص فيه.

أشهد أني كنت واقعا في فترة شبابـــي الأول تحت تأثير كتّاب غربيين من أمثال شكسبير وإبسن وبرنارد شو. كما اكتشفت بحكم تجربتي في فرنسا المسرح الوجودي ومسرح العبث. ثم انفتحت على عالم غير محدود بعدما وجدت ما يوافق رؤاي الخاصة وما يمكنـــه أن يستوعب أفكاري وتطلعاتي. وبرأي أن الشعوب التي عانت طـــويلا من الاضطهاد والظلم والاستبداد هي وحدها المرشحة ودون سواها لإنجاز رؤيا كاملة وتحقيق القفزة النوعية والتجديد في المسرح لأنهـــا عبره ستتطرق إلى تلك البؤر المحجوب عنها الضوء. ومنـــها فقـــط يمكنها أن تنطلق لتشكل عوالمها الخاصة. وإن تعرفي علـــى مســـرح "برخت" شكل نقطة تحول أساسية في مساري الفني.(*)

برخت مسرحي ألماني (1898–1956). وسمت تجربته المسرحية بالمسرح الملحمي ودعا إلى التغريب في المسرح والذي يقول بلا إندماج الممثل في المسرحية. نبذ كذلك مبدأ أرسطو والذي يقوم على الوحدات الثلاث. هاجر في فترة لاحقة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. من أهم أعمالـــه دائرة الطباشير القوزاقية. الأم الشجاعة وأولادها. الإنسان الطيـــب في

....

ستيسوان. إلا أن أي محاولة لإيجاد الصلة بين مسرحيات عبـــد القـــادر ومسرح برخت يعتبر أمرا صعبا ومحفوفا بالمخاطر والمطبات.

مسرح عبد القادر سردي. والتشخيص فيه غير متطلب. يبدو لأول وهلة عفويا وتلقائيا لكنه ليس اعتباطيا. على المتلقي فيه أن يمتلك حسا جماليا وإلماما شاملا بمختلف نواحي العرض والاستعراض، أساسه الفرجة، ولا يخلو من التعبئة والتوعية. يجعل المشاهد عنصرا فاعلا ومشاركا في العرض وليس مجرد مشاهد مستلب غايته التنفيس. غالبا ما يستلهم موضوعه من التراث أو من البيئة الاجتماعية، وكلاهما رافد مهم في أعماله التي تنزع إلى أن تكون مستقلة بذاتها.

- 7 -

لم أستوعب جملة "عبد الرحمن كاكي" في حينها:

كانت ابحث عن نفسك بعيدا عنا، معناها أرجوك ألا تعرض الفرقة إلى هزة عنيفة، وأنت أدرى بهشاشتها وبما أعمله في سبيل لمِّ شملها. كانت تستوعب أيضا فكرة أن طموحك وإن كان لا يتوافق مع أفكارنا، فإنه ليس بالضرورة يتعارض معها. وربما كان يقصد كذلك أن كلانا حجر عثرة في طريق الآخر. وأنك إذا كنت طموحا وجادا بما يكفي، فها أنا أخلي سبيلك. وأرني ما ستقدر على عمله.

دموعه أمامي في مستشفى باريس وأنا أزوره بعد حادث السيارة الأليم الذي وقع له وكأنها دموع والدي التي لم أرها. كانت مزيجا خالصا من الحب والأبوة ورجاء المغفرة. وبدأت أراه عظيما أو هكذا قُدر له أن يكون دوما..

ضيعتني باريس بعد هجرتي إليها. وعاد هو من هناك ليخلقني كما خلقني أول مرة. فهل هو القدر يأتيني في ثوب كاكي مرة أخرى؟

أخبرني أنه سيسعى لدى المسؤولين لإعادة الاعتبار لي. وهذا ما حصل بمجرد رجوعه إلى أرض الوطن. فلقد استدعيت إلى منصب مدير الإخراج المسرحي بالمسرح الجهوي بوهران. وما كنت لأحلم بأكثر من هذا..

- 8 -

.. وداهمتني الرائحة حاضرة وقوية!

انقبض قلبـــي واحتبس تنهدي وأنا أحاول أن أجد لها مثيلا في وجداني. وكانت الرائحة رائحة وطن، وكانت ممزوجة بسنين غربـــة طويلة.

وجدتُ المطار الذي نزلت فيه يغرق في فوضى عارمة. ومضيت أقطع أشواطه في خطوات ثقيلة أمام حركـــة المســـافرين المتـــدافعين والمتزاحمين أمام نقاط التفتيش. واستسلمت لطابور فوضوي تَـــزاحم فيه تجار الكابات والحقائب ورجال ضجرون من كل شيء وعجائز تزعق حتى من دون سبب وأطفال يبكون لمجرد البكاء. وتذكرت أيام الطوابير للحصول على الخبز المفقود.

لم تكن الغربة ضمن خطتي يوما، لكني فجأة وجدت نفســـي أعيش في باريس التي كانت بمثابة الحل السحري أمام المشاكل الـــتي عصفت بـــي على حين غرة والمعضلات التي وجدت نفسي وجهـــا لوجه معها وكم الهمِّ الذي أصابني.

لقد كنت أعتقد طول مدة هجرتي أن ما أحرزه في بلاد المهجر ما كان ليتحقق لولا كدي وجهدي ونشاطي. وكـــان يمكـــنني أن أواصل العيش في باريس ما دامت حياتي تمضي قدما وعبـــارة عـــن وصلات من النجاح منقطع النظير.

لا، لم أكن راض يوما عن حياتي هناك. ورغم سنين غربتي الطويلة لم أنس أنني أنتمي إلى أرض غير تلك الأرض التي أخذت أعيش عليها. كما ظلت العودة هاجسي. ووجدت نفسي منشغلا بها وأفكر فيها في أكثر من مناسبة، لكني كذلك كنت وفي كل مرة أعود فأؤجل البت في أمرها معتبرا الظرف غير مناسب، ثم أنسى في خضم يومياتي ما كنت أحلم به دوما.

لقد قال لي أصدقائي في باريس إنه من الجنون والعبث الرجوع إلى بلدي. واستعجبوا كيف أقبل بمقايضة كل ما حققته على أرضهم بمنصب جاف في وطن لن يكون ما يمنحه لي أكثر من وهم أو هذا ما سيتكشف عنه حلمي ساعة الحقيقة. والحق أنه كانت لي دائما أعذاري ومبرراتي، ثم إن إغراء البقاء لذيذ، ومع ذلك عبثا رحت أقاوم فكرة العودة وأتجاهلها. لقد كانت هذه المرة أقوى مني. وإن ما وعدني به كاكي والإشارات المطمئنة التي راحت تصلني من الوطن بعد ذلك تباعا شكلت الحافز لدي، وجعلتني أحسم أمري.

لقد مللت من الهروب إلى الأمام. وأعترف أن الخيار كان صعبا لكن لا بد منه. لطالما هددتني الحياة بلا معنى، لكنني حقا وجدت نفسي أفكر في منحها أكثر من معنى وأنا أقرر العودة.

- 9 -

أعيش نفس المشاعر التي أملت علي الرحيل والهجرة ذات يوم، ولا شيء معي غير الوحدة وسؤال واحد يتكرر للمرة المليون وينخر الدماغ الذي أترقب انفجاره في أيِّ لحظة: "ماذا أفعل وسط هذا الفراغ الذي لا معنى له، وفي هذا العالم المغشوش؟!"..

في فرنسا قد يصنع مجدك عمل كبير تنجزه، وأما "هنا" فلا يسع لغير الفضيحة أن تجعلك في الواجهة.

بعد حادثة الصحافة المشؤومة وما انجر عنها من تداعيات خطرة اعتراني خوف كبير. خوف من الذين يسيؤون فهمي. خوف من الذين يتعمدون النيل مني. خوف من السلطات والاعتقال والتحقيق. خوف من التعذيب والاغتيال والتصفية. خوف من الأنفاس التي تحسب علي أو تلك التي سأحاسب عليها.

الجميع يتكالب ضدي وهم يُعِدونني لساحة الإعدام، كما حشدوا الحشود وشحنوا التُبع وجعلوا منهم شاهدا على المهزلة التي لن تنتهي إلا بموتي، ما دام الحقد قد صار عقيدة المسلمين. كما هناك من المثقفين الذين اعتقدت خطأ أن وظيفتهم في الحياة تحريك الساكن مثلي من يزايد علي ويعتقد أني ما عدت إلى البلاد إلا لأسلبه ما يتوهم أنه حقه. والعجيب أن تجد بينهم من يفاجؤك بالقول أنه ما كان عليك أن تكون مستفزا لمشاعر المتدينين، وكأن ما كان لكلامي

من غرض إلا التصادم مع أمثالهم أو النيل منهم. كما لا ينسى أن يوصيك في آخر ديباجة له أن تعمل على التنصل من موقفك وأن تعتذر ولا بد أن الأمر يبدوا له بسيطا ولا ضير منه، ثم ينبهك أنه عليك أن تركن إلى الظِلِّ حتى لا تزهق روحك في غمرة الفوضى والانفلات وقد ابتليت بهما البلاد؛ كذلك يصر على أن "اللي خاف سلم". وأما المتعاطفون فثلّة لها صوت الموتى أو صمتهم.

- 10 -

".. أُرتِقُ ما تَفتَقَ مِن جُبَّة حَاكها الله"!

لم ترد هذه الجملة في حوار أجري مع عبد القادر يوم وطـأت قدماه مطار هواري بومدين أثناء عودته إلى أرض الـوطن، فحينـها وكما يذكر جيدا لم يجد في استقباله أحد. كذلك لم يصدر عنه هذا الكلام يوم تنصيبه مديرا للإخراج بالمسرح الجهوي لوهران، فـذلك اليوم قد مرَّ باردا وباهتا وبدون تغطية من الإعلام.

ما حدث فعلا أنه وعلى هامش مهرجان مسرح الهـواة بمدينـة مستغانم وعلى مائدة العشاء وفي حديث عام بين الخلان والرفقاء وُلدت هذه الجملة. في عفوية وانسجام مع الذات نطق بها صاحبها وهو يعتقـد أنه يعبر من خلالها على فكرته التي كان مشغولا بطرحها تماما. ولقد قام أحد الصحفيين المغمورين الحاضرين بتلقف جملة عبد القادر. ولعله رأى فيها فرصته وسبقا صحفيا. فظهرت الجملة في اليوم الموالي بخط عـريض وتتوسط صفحة الثقافة لجريدة الاتحاد الحكومية كما تَوضح أن فكـرة المقال لا علاقة لها بالفن وتحمل رسالة قوية ضد مسرحي تعمد التطاول على الذات الإلهية، مما أثار لاحقا زوبعة كبيرة وردودا عديدة. وانشـغل عبد القادر لاحقا بترتيق كلامه الذي أسيء فهمه.

ليس غريبا أن تكون جميع الفنون على علاقة بالدين. والمسـرح مثلا نشأ من الطقوس الدينية التي كانت تقام للآلهة باخوس وأعيـاد

ديونيزوس ثم بدأ لاحقا بالانفصال عنها إلى أن تحرر منها. وإذا كان أفلاطون يرى أن المحاكاة أسلوب من أساليب القول، ثم رفضها باعتبارها استنساخا للواقع وللشكل الظاهر وليس للفكرة أو "الماهية". وقام باستبعاد الشعراء من مدينته الفاضلة؛ فإن أرسطو قد أشار إلى أنها (المحاكاة) غريزة طبيعية عند الإنسان واعتبرها أساس كل الفنون. وهو يرى المحاكاة في شكلين: محاكاة الفعل بالفعل، ومحاكاة الفعل بالرواية عنه. ولا بد أن عبد القادر حين أدلى بتصريحه اعتقد أنه لا يبتعد كثيرا عن المفهوم الذي قال به أرسطو، والذي تمخضت عنه جلُّ نظريات الفن القديمة والحديثة على السواء. واعتقد أنه بقوله: ".. أرتق ما تفتق من جبة حاكها الله" يوجز نظرته إلى الفن، كما أن جملته تمثل أقوى استعارة ممكنة لهذه النظرة.

لقد تصور أنه يمكنه أن يقول في بلده وبين رفقائه ما اعتاد على قوله في فرنسا. ثم أنه لو ألقى بكلامه هذا في محفل في بلاد الغرب لكان اعتبر نظرية جديدة في الفن له حقوق الملكية العظيمة عليها؛ أما وقد قال ما قاله في بلد مثل الجزائر فذلك لا يعني إلا أمرا واحدا. أنه وضع نفسه في وجه المدفع الأصولي الذي يستحكم في الواقع سرا وعلانية. وأن محاكم التفتيش التي لا تهادن ستطاله وقد صار صوتها اليوم مسموعا أكثر من أي وقت مضى. ولن يلبث أن يجد الجميع ينظرون إليه نظرتهم إلى خائن وعميل ومرتد، خصوصا وأنه قادم من الجبهة الأخرى.

مجبرا وجد نفسه يفكر في وظيفته التي استلمها حديثا، كذلك راح يفكر في كل الذي خلفه وراءه هناك في باريس. وكرد فعل لم يبد مفهوما حينها وجرى تأويله لاحقا تأويلات عدة وكيفما اتفق لاذ بالعزلة.

على مضض قرر الصمت باعتباره الحل الأمثل لوضعه. واعتبر أن الظرف لا يسمح بأكثر من هذا. وحتما حدث نفسه، أن من يعيش في سجن تصادر حريته ويصير رهن محبسه وسجانه. ولا بأس بإغماض عين وفتح أخرى. وبدأ الصوت الراديكالي والمعارض والقوي يخفت في أعماله، واستبدل بصوت أخر ليس مهادنا لكنه أقل حِدَّة.

- 11 -

هل يسعه أن يقول إنه أخطأ!

في فرنسا ورغم عروض الزواج المدهشة التي قُدمت له ظل عبد القادر يرفض فكرة الارتباط غير مستعد ليقايض حريته ولا لأن يخسر سماءه التي يحلق فيها؛ لكن حين عودته إلى الجزائر تغيرت قناعته، وعاد يفكر أنه لا ضير إذا ما زاد على القيود التي راحت تشكمه واحدا بزواجه. وكان له أن تزوَج، على أنه لاحقا وجد الزوجة هجره بعدما أمّنت وضعا يكفل لها العيش دون الحاجة إليه..(*)

(*) "نحن لا نكتب عن الأنين، وعن جرحنا المفتوح..
"نحن لا نكتب إلا عن الفجيعة التي خلفناها وراء ظهورنا، وعن الذاكرة التي شفينا منها؛ وأما الوجع الذي لا يزال يحاصرنا ويعصرنا فلا يسعنا أمامه إلا التزام الصمت.
ما من طريقة وسط نقول بها عطبنا. ونرضى أن نكز ونعض على ما ينخرنا بنواجذنا على أن نُطلع أحدا على دموعنا..
إننا لا نوثّق إلا ما اعتقدنا أننا عوّضناه بما هو أجدر وأبلغ قيمة؛ وما من كاتب مستعد أن ينزل من علياء مقامه فيعترف أمام الملإ بفداحة هزائمه ومرارة خساراته؛ وينهي حكايته مع الخيبة ككلب يلعق جراحه يطيبها ويسترضيها..!"
هذا مقطع من المذكرات، وأظنه يفسر لماذا تجنب عبد القادر جانبا مهما من حياته الشخصية في مذكراته. إننا ونحن نكتب حياتنا لا يسعنا إلا أن نحتاط كمن يخشى الفضيحة، هناك دائما حد أدنى للبوح.

تذكرها بنتا لوالد كوّن ثروته في فرنسا، وعاد ليحيا بقية أيامه على أرضه كما كان يحلو له أن يقــول. وردة كاسمهـــا، جميلـــة في شكلها ومثيرة تعلق بها أبناء الحي جميعهم. تمنّى أول ما رآها لو تقوم بينهما علاقة ما. لكن سرعان ما قدر أن واحدة مثلها لا يمكنــه أن يحظى بها إلا عبر رابطة مقدسة.

وتذكر أيضا كيف أرسل من يخطب ودها، وكيف ضـــحكت عليه وقالت عنه في سخرية:

- أنا التي ما سواش الرجال ظفري أرتبط بمهرج!

حينها حصد أوهامه التي ظل يغذيها ويتخيل إمكانية تحققهـــا. ومني بالخيبة الموجعة. وحكم أنها نهاية مطمعه فيها؛ لكنه وجدها بعد فترة ودون سابق إخطار تقتحم عليه مكتبه وتسأله:

- هل يمكن أن تقبلوني ممثلة مبتدئة بينكم؟

لا يدري من كان ذلك الذي زرع في ذهنها فكرة أن تصـــبح نجمة. لكنها عندما سعت إليه ووقفت قبالته تريـــد أن تصـــنع مـــن حلمها حقيقة لم يقدر إلا أن يغذي فيها ذلك الأمل. وقال لها بفرحة عارمة:

- يمكنك أن تعتبري نفسك منذ اليوم واحدة مـــن أعضـــاء الفرقة.

يوم رفضته اعتقد أنها فتاة لا تخلو من عجرفة، لكنه ما لبث أن ندم على تسرعه في الحكم عليها. وعندما سنحت لـــه أول فرصـــة دعاها إلى "كافيتريا" مناسبة يؤمها الشـــباب فرحبـــت بدعوتـــه في سرور. وكان كل شيء يسير على خير ما يرام، إلى أن بدأت تتضايق من التمثيل نتيجة الصعوبات التي واجهتها. خصوصا وأن الفن يرتكز

على دعامة هامة وهي الموهبة، والتي لم تكن متوفرة لديها. وفي أكثر من مناسبة حاول أن يؤكد لها أن الكثير من التمثيل أساسه الممارسة أيضا. وأنه ليس عليها إلا الصبر وصعود السلم من أول درجاته حتى يتم لها النجاح. مؤكدا لها أنه سيفعل كل ما في وسعه ليراها تصعد تلك الدرجات تباعا نحو التألق. وكم احتار وعجب عندما وجدها بعد فترة ألفة تتجنبه. ثم انتبه إليها وهي تبالغ في تحرشها بمديره. وضبطها ذات مرة في مكتب هذا الأخير في وضع مريب فاكتسحه هم وضيق. وعمل على حسم القضية كلها بعدما أصبحت عائقا ضد تطلعاته. و لم يجد من سبيل إلا دعوتها إلى مكتبه. وهناك قال لها في تصميم وبلا مقدمات:

- كل ما هنالك أني دعوتك لأمر فكرت أن ألقيه هكذا على الغارب. ولك أن تقبلي به أو أن ترفضيه..

تساءلت مخمنة ما الأمر. لكنه دعاها إلى الجلوس، فجلست وبيديها الاثنتين أشارت تفسح له المجال ليتفضل ويوضح لها ما يريده..

- في الواقع أعتزم مقابلة والدك إذا ما سمحت لي بذلك.
- ماذا قلت! لماذا؟

هكذا هتفت في قلق لم تستطع مداراته من شدة المفاجأة..

- أعتقد أنه ربما ليس هذا الوضع الصحيح للأمور. لكن أنا أطلبك للزواج. فما رأيك؟

تردد، ثم قذف بما يعتلج في داخله دفعة واحدة. وبدا أن مثل هذا الكلام آخر ما كانت تتوقعه وردة، فتلقفت كلماته بابتسامة باهتة. ثم ضحكت مستغربة الأمر كله..

- لكن صدقني، أنا لا أفكر في الزواج الآن!

ولم يجد ما يقوله أمام صراحتها. وخمن في الحد الأدنى الممكن تحقيقه. وعاد يعرض عليها الأمر لكن هذه المرة بطريقة أخرى. وقال لها:

- أنت أيضا صدقيني. في الوقت الراهن لا أتوسم منك إلا أن تفكري.

لم تكن ملزمة بشيء أمامه. وآذن قولها أنها ستفكر بانتهاء المقابلة. لكن الأيام المقبلة لم تحمل له أي جديد. بل كانت هناك إشارات مخيفة ضد تطلعاته كلها. فلقد أخذت الفتاة تتذمر من الشغل في الفرقة، وأخذت تكثر من التغيب والاحتجاج. على أنه أبى الاستسلام، وانتهز في أحد المرات فرصة مرورها بمكتبه، وسألها في صوت خافت:

- ما رأيك في القضية؟

- أية قضية!

تساءلت كمن نسي الأمر برمته، ثم استأنفت تقول بمنطق حاسم:

- ربما عليك أن تنسى فكرتك نهائيا. لستُ على استعداد لأي ارتباط مهما كان نوعه في الوقت الراهن.

وحملت له الأيام اللاحقة حقيقة رفضها له. فقد قفزت هي الدخيلة والمبتدئة في الفن وتحت التمرين إلى بطلة مسلسل تلفزيوني كفلته لها علاقاتها المريبة بمديره. كأن أبواب السعادة تسد من دونه ثانية!.. وكأنه كتب عليه ألا ينال نصيبه منهاَ!.. ثم إن ضياعها من بين يديه أقصى ضربة توجه إليه من القدر. وتساءل من سيطلق على قلبه المفجوع رصاصة الرحمة ليريحه من عذابه وآلامه جميعها؟

ولم يكن له من خيار فاندفع نحو العمل في رغبة مخلصة علّه يتجاوز محنته. وأكب عليه في حمى لم يعتدها في نفسه منذ شبابه

الأول. وإن ظل ارتباطه بالسياسة متقلبا بحكم الظروف وما كان يجد على الساحة، فقدم عروضا اعتبرت تعبيرا عن نهج البلاد وسياستها في تلك الآونة. وبعد نجاح مسرحيته في مهرجان بالمغرب، ثم في فعاليات المسرح بتركيا عاد إلى الجزائر ليصبح مديرا للمسرح الجهوي بوهران، وأحد الوجوه المسرحية والفنية البارزة في البلاد. وعادت وردة تقبل عليه من جديد فعجب لطابعها المقتحم. وكانت قد طلبت منه أن يتقابلا في مطعم مناسب فاستجاب لرغبتها. وبعد خروجهما منه تأبطت ذراعه على حين غرّة وهي تسأله:

- متى ستتقدم وتطلب يدي من والدي؟

وإذ عادت تقترح عليه فكرته القديمة عينها دهش. ووجد نفسه يوافق في ترحيب لم يخل من مفاجأة. وهو لم يحاول أن يقرن أفعالها ويجعلها مرادفا لكلمة الحب. وكان راضيا وقانعا بكلمة شرف. وكانت الجملة: "متى ستطلبني من والدي؟" وحدها كافية لتجعله يتأكد من أنها تحبه. فهو لا يتصور أن يكون هناك ارتباط إلا وكان مبنيا عن حب. ألم يكن هو راغبا فيها عن حب! ألم تكن تعادل عنده رغبته في الحياة نفسها! ألا يكون الزواج دائما هكذا!

تصور أنه انتصر لنفسه بزواجه منها. ثم بات متيقنا أنه أخطأ بهذا الزواج. فقد وجد نفسه يتأملها على أصلها بعدما انكشفت أمامه. في ليلة الدخلة وبعدما قدمت له نفسها بسخاء. وجدها تطلب منه أن يسعى جاهدا ليجعلها بطلة أعماله. لم يكن هناك شيء يحول دون طموحها، حتى ولو كان الحب نفسه. وإنها تصبو إلى ما يكفل لها طموحها في انتهازية سافرة. وكان أن بدأ يغرق في الحضيض بعد الضربة القاسمة!

- 12 -

لطالما اعتبر المرأة مخلوقا حساسا، وأن الزوجة ظِل لزوجها. وبرأيه أن المرأة تحب الزوج الناجح في عمله والذي يوفر لها أسباب العيش. لهذا تصور أنه سوف يؤثر فيها بأفكاره وستجد نفسها تقتنع بأشياء تأخذها عنه، ولن تلبث أن تتغير. لكن بمرور الوقت أدرك عبد القادر أنه فتح على نفسه أبواب الجحيم جميعها. كانت زوجته تحاججه وتأخذ معه وترد في كل شيء. وكانت تصر عليه أن يصطحبها أينما رحل وفي كل مكان يطرقه. وكانت تصر على العناية بمظهرها وإظهار محاسنها. وكانت تصر على الظهور بصورة المرأة التي تفهم في الفن وفي كل شيء. وكانت تصر على مجالسة الممثلين والمسؤولين. وتصر على مصاحبتهم حتى إلى خلواقم الخاصة. وكانت تصر إذا ما عادت إلى البيت أن تحكي في سيرهم غير مبالية إلا بما يرضيها. وما كان يمني النفس به قبل الزواج تعرت حقيقته فإذا هو مسخ مخيف. وبات لا يرجو إلا أن تتركه في سلام. وحتى يحصل ذلك أرخى لها السير وتركها تسرح على هواها بعدما سكن شرنقته.

أذعن لها في كل شيء مؤثرا التهدئة، وأصر على تمثيل دور الزوج السعيد. ثم استسلم للخطأ فجاء الأولاد. وأصبح مربوطا بحبل يشد عنقه ويخنقه كلما فكر في الخلاص. وإنَّ أي رجل له نخوة

وكرامة ويفكر في شرفه كان سيطلقها على الفور، لكنه ظل مترددا وغير قادر على الإقدام. وكثيرا ما أنب نفسه وعنفها على ترددها وإهمالها لشرفه حتى إذا ما وصل إلى الإقرار بعدم صلاحها وأنه يجب تطليقها عاد على البدء متسائلا: ألا يمكن أن تغيرها الأيام؟!.. وكان يتمنى أن تغيرها. وكما غيرتها إلى السلب أن تغيرها إلى الإيجاب. وبقي هكذا يتأمل في حياته غير قادر أن يبت فيها بقرار فاصل. وظل يدور في حلقة مفرغة!

فاجأته بأنها تحاول تجربة صوتها في الغناء وكأنها لم تبرأ بعد من حلم الشهرة. ووقّعت حلمها بإصدار أول شريط لها. وعندما لم يحقق لها ما كانت تصبو إليه، أغواها منتج كبير بإنتاج "فيديو كليب" يدعمه بإشهار جيد في التلفزيون والراديو. أو هذا ما أخبرها به السيد "جوكار" والذي نصب نفسه وكيلا لأعمالها. قال إنه سيتولى كافة الأمور المتعلقة بنجاحها. حدد لها بعد ذلك موضوع وشكل وأسلوب غنائها، فأبدت بعض المخاوف، لكنه أبدى بدوره بعض القلق. فأي إخلال بجانب من الجوانب التي يطرحها أمامها كفيل بإضعاف فرص نجاحها. وكان الأمر مكلفا، ويقوم على عقبات يجب القفز عليها وعدم الاحتفال بها. وبرأيه أن فرص النجاح مرهونة بمدى استعدادها للتضحية. فلا شيء دون مقابل. ورأت جميلة أنه يجب عيش التجربة فإن كسبت فازت بجميع أحلامها، بينما هي الآن تخسر بعدما لم يتحقق لها إلا الفتات.

وتحقق حلمها. فُتِحت أبواب المجد لها بعدما تعلق الشباب بكل هزة من جسدها وبكل ثنية مكشوفة من لحمها. ولقد أخذ الجميع يردد أغنيتها بعدما اعتبروها أغنية الموسم:

"أرواح، أرواح، عندي..
هذه الليلة.
ندخلك داري، وتشوف حلاوتي..
هذه الليلة.."

في البدء قال عبد القادر لها: "أن تصبحي فنانة فهذا أمر عظيم". وحدثها: "الغناء كذلك فن جميل. وانظري ما حازت عليه أم كلثوم ووردة الجزائرية..". لكنه لم يكن يتصور أنها تقبل على عمل سيصرفها عن كل مسؤولياتها ومجد يستغلها. ثم توضحت الحقيقة الجديدة أمامه.

كانت تدخل البيت تبشره أنها قبضت عشرة ملايين مقابل شريط كذا، وعشرين أخرى مقابل إحياء حفل كذا. فكان الفن عندها يعني الربح والخسارة، كما كان يعني لها التنصل من كل واجباتها والترحيب بكل الذين يذلون أنفسهم لأجلها. ولم تعد الحياة عندها إلا شهرة ونجومية وتألقا وعالم أضواء.

أنشأت عالما خاصا بها. وراحت تمضي جل وقتها ما بين استوديوهات التسجيل والتصوير وفي حفلات تعقد بمناسبة وبدونها، أو تكون عند شلة من الأصحاب تربطهم علاقات غير مفهومة. وكأن البيت لم يعد إلا غرفة نوم كبيرة. أما ساعة جلوسهما إلى بعضهما البعض فقد كانت ساعة نكد طويلة. إذ لا يلبث أن يتحول سؤال أو استفسار إلى شقاق ينتهي بمشاجرة. فما إن يلمح إلى إهمالها لشؤون البيت أو يعبر عن استيائه من الحالة التي تردى إليها الأولاد حتى تهتف: "لست خادمة عند أحد، وتكفي الخادمة لتقوم بأعباء البيت فيكون كل شيء على ما يرام..". ناشدها باسم الرابطة

والأولاد أن تنثني لكنها لم تأبه ولم تبال. وقال لها مـــرة ينصـــحها: "احذري! إنك تلعبين بالنار..". فردت عليه حينها وهـــي تطقطـــق علكة بين أسنانها: "أمثالك أخذوا حقهم من البلاد أما أنت فتصـــر على دفن نفسك بين المبادئ التي لا تسمن ولا تغني مـــن جـــوع!". وكم من مرة حاول أن يعري أمامها قذارتها علّها تنتصح، داعيا إياها أن تبقى بعيدا عن الشهرة التي أساسها إفساد الأذواق. فهنـــاك مـــن الفنون ما هو أقرب إلى الهرج والفوضى. وحذرها أن مـــا تفعلـــه لا معنى له إلا العبث. وهي الآن تعبث بشرفها وشرف زوجها. وفاجأته وهي تستميت في الدفاع عن فكرتها الجديدة في الفن، والتي تنطلـــق من فكرة أن النجاح مرهون بأن نتساهل بعض الشيء. وقالت لـــه الدنيا نفسها قد تغيرت، وليس الزمن الذي نعيشه بالزمن الذي عاشه أجدادنا. وكانت ترى أنه زمن آخر علينا فيه أن نـــنحني ونطـــأطئ رؤوسنا قليلا. فهل كان معنى الزمن الآخر عندها ذلك الذي يجـــب أن يرضى فيه بدور الهزي؟

ثارت ثائرته يوم شاهد "جوكار" يوصلها بسيارته إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، ثم وهي تبادله قبلتين أمام مدخل العمـــارة. قال لها حينها بغضب حقيقي: "إنك تتعمدين الإساءة إلى كـــرامتي، وأنا ما عدت أحتمل!". وردت عليه وردة في غضب وقلق: "لكـــن هل تتصور أني أخدعك؟"، ثم ما لبثت أن واصلت في تـــوتر "إنـــك تتعمد إهانتي. أو كأنك صرت تغار مني ومن نجاحاتي. إنـــك حقـــا أناني! ثم ما الذي تريده مني ويجعلك راض. هل ترغـــب أن تـــراني أكنس وأطبخ وأغسل وأنظف كأي خادمة تحت نعليك!".. ثم بعـــد أنفاس واصلت: "يا سيدي مذ عرفتك وأنت لا تريد أن ترى العـــالم

إلا بمنظارك. يجب عليك أن تحترم عملي بخصوصياته كما كان عليّ أن أحترم عملك". وكم بدا لها بائسا ومضحكا في تلك اللحظة حتى أنها ختمت كلامها بعبارة نارية أطلقتها في وجهه بلا وجـــل: "وإن كنت ترانا نسير في طريق مسدود. فأنا مستعدة للطـــلاق علـــى أن أخسر فني وما حققته من نجاح..".

- 13 -

في تلك الليلة وبينما زوجته غارقة في نومهـا وتشـغل طـول السرير وعرضه بقي عبد القادر لوحده على كنبة الصـالون حـتى الصباح يملؤه الأسى والقهر. لم يجد وضعا مريحا يمكنه مـن النـوم، وظل كالسمكة التي أخرجت من مائها يتخبط ويراوح مكانه متنقلا ما بين المطبخ أين حضَّر أكثر من فنجان للقهوة وبين الكنبة أين ظل يرشف قهوته ويدخن وبين دورة المياه أين كان يطرح مـا يشـربه. كان مستاء لما آل إليه وضعه وكارها لكل شيء. وانشـغل يعيـد التفكير في حياته كلها، محاولا أن ينظر إلى ما يسكن المنطقة المظلمـة من وجدانه.

لقد فهم أخيرا أن ما كان يثيرهما في الحياة كان دائما ينبع مـن قناعات متناقضة. وأن السر في ديمومة الحياة عنـدها رغباتهـا غـير الملجومة، وأن أمرها معه حسم ساعة قايضت وظيفتـها الإنسـانية كزوجة وأم بتسلمها أعلى مراتب الشهرة. لم يكن هناك من حـل وسط، فانتهى بلزوم هجرانها.

قام صباح ذلك اليوم وغادر البيت قبل أن تسـتيقظ زوجتـه. قصد أحد الأصدقاء وسأله هل يمكنه أن يوفر له مبيتا لبعضة يـوم. ورحب به "قدور" في بيته ورتب له غرفة عنده، وحدثه أنـه يمكنـه البقاء عدد الأيام التي يشاء.

توقع بعدها أن تسأل وردة عنه أحد الأصدقاء المشتركين أو قد تطلبه في مقر عمله. وخاب فأله. فهي لم تهتم لغيابه. ولعلها باتت تشعر أنها أكثر حرية وانطلاقا. لم يسلم عبد القادر وككل مرة بجدوى ما فعل. وما لبث أن وجد نفسه يفكر في العودة إلى بيته. ولعل الأولاد اشتاقوا له أيضا. وبعد أسبوع وجد نفسه يعود أدراجه. تردد في الصعود إلى المسكن. وفضل أن يطلب زوجته على الهاتف ليمنح العلة لنفسه وليطمئن على الأوضاع قبل ذلك. وأتاه صوتها يقول إنها بصدد المغادرة إلى بيت والديها بسبب تدهور صحة أمها المفاجئ. شعر حينها بضياع فرصة سانحة للصلح. ولم يجد ما يفعله سوى الجلوس في مقهى قريب. ومن هناك شاهدها وهي تخرج بصحبة الأولاد من باب العمارة. ثم وهي تركب سيارتها وتقلع بها. ومضت ساعة من الزمن لم يعرف خلالها ماذا يفعل. ثم فجأة لمحها تدخل العمارة من جديد. فكيف رجعت!.. وأين الأولاد!.. ثم من ذلك الذي يدخل في صحبتها!

كان النور قد راح يتلاشى وبدأ الظلام يزحف على المكان. ولم يكن بإمكانه أن يستهين بالأمر أكثر مما فعل وهو يقف وجها لوجه أمام الارتياب الفظيع الذي عصف به والقلق القاتل الذي سكنه. نالت منه الهواجس والأفكار، وقلق قاتل سكنه، فقام يطلبها على الهاتف من جديد. وجاءه صوتها هذه المرة مترددا يسأل:

- من معي؟

وعندما تعرفت عليه عادت تقول:

- كن مطمئنا، أنا خارجة الآن بصحبة الأولاد..

لم يقدر أن يقف مكتوف اليدين. وحافز قوي قام يدفعه إلى الأمام. صعد السلالم في خفة وعصبية. وما هي إلا لحظات حتى كان يقف أمام باب الشقة.

تنفس بعمق وهو يحاول أن يحدس المصير ويتصوره. دق بعد ذلك الباب، و لم يلبث أن أتاه صوتها من خلفه يسأل:

- من هناك؟

وجدت وردة نفسها وجها لوجه أمام عبد القادر. وأخذت تتطلع إليه والارتباك والدهشة يلفانها. وبان واضحا أنها كانت تتوقع أي شيء آخر إلا أن تجده أمامها. وحاولت أن تسيطر على الوضع عندما راحت تسأله في انزعاج ولهوجة:

- ما الذي جاء بك إلى البيت؟ ثم ما الذي تريده مني!
- وجدتني مارا بالقرب من هنا، وقلت ربما يمكنني أن أصحبك والأولاد إلى منزل والديك!

امتعضت من كلامه الذي لم يرق لها أو بسبب شيء آخر كانت تحاول مداراته. وكانت لا تزال مسمرة أمام الباب لا تفسح له المجال ليدلف إلى الداخل. فسألها عابثا:

- ألا يمكنني أن أدخل؟ ألا تقولي لي تفضل؟.. أليس هذا بيتي أيضا؟

التفتت حول نفسها مرات دون أن تعرف ما يجب عمله. وكانت تزداد ارتباكا، فكان يزداد يقينا بأنه غير مرغوب فيه، وبأنها لا بد تعيش موعدا مريبا. وربما غريمه الآن مختبئ كجرذ تحت السرير..

- أين هم الأولاد؟ وكأن لا أثر لهم هنا!

وحاول الاندفاع إلى الداخل لكنها صدَّته وبقيت مسمرة أمام الباب لا تسمح له بالدخول، حتى هتف فيها يسأل مستغربا كمن لم يفهم:

- هل هناك ما تخشينه!

فزعت وارتدت ودارت حول نفسها. ثم حاولت أن تستند على أرض صلبة. وآمنت أنه عليها أن تبدأ حالا بالهجوم، فقالت وهي تظهر غضبا أمردا:

- ماذا تريد أن تقول؟ بدل أن تبذل جهدك في إصلاح الوضع الذي انفرط، تجيء إلى بيتي لتتهمني في شرفي. كم أنت وقح!

حاولت أن تغلق الباب في وجهه. لكنه ظل مسمرا أمامها يتأملها. وفكر أن يندفع إلى الداخل، ثم تردد وخاف أن لا يطلع معه الأمر على الشكل الذي تصوره، فبقي مكانه جامدا.

هتفت: - أرجوك أن تغادر الآن! والجيران لا بد أنهم يتصنتون من خلف الأبواب، وغدا تجدهم قد أطلقوا لخيالهم وألسنتهم العنان..

وتساءل: هل يهمها حقا أمر الجيران؟!

وداهمته فكرة مريبة. لماذا لا يقبض على عنقها ويخنقها كأي زانية وجب فيها القتل، ولم يقف مكانه جامدا ولا يندفع إلى الداخل يبحث عن غريمه فيصارعه!

وفي البعيد انطلق صفير القطار الذي يعرفه. كان قطار الميناء يزف موعده. وكانت الساعة وقت رحيله أين سينتقل بكامل حمولته..

المزمور الثالث

تشظي الظلّ

- 1 -

في حوالي التاسعة صباحا غادر عبد القادر شقته باتجـاه مقـر عمله. حينها كانت المدينة لا يزال يغلفها الندى. واكتشف في الجـو برودة منفرة فحمل بياقة سترته حول رقبته يقاوم تدفق الهواء البـارد الذي أخذ يتسرب إلى كامل جسده.

الشحاذ المقعد في مكانه ككل يوم رغم رداءة الطقس. لا شيء يمكن أن يعطله عن وظيفته التي لم يحسم فيها بعد عبد القادر ماهي.

تجاوزه لا ينظر إليه؛ وجالت عيناه في الفضاء الذي يحيط بـه. جس كل شبر من الأرض حوله. العمارات ومداخلـها وزواياهـا الجانبية وعندما اطمأن قليلا استخرج علبة سـجائره، وأشـعل أول سيجارة له في هذا الصباح.

عبر الحافلة – وكالعادة – انشغل يراقب الرجـال والشـباب الغادين إلى أعمالهم بسحنهم الكئيبة وملابسهم المهملة، وراح يتـابع النساء والبنات المنطلقات نحو مشاغلهن وهن تحت أرديتـهن الـتي تحجب هوياقمن والتي لبسنها تحت الضغط والتهديد. وكانت ملامح الجميع تبدو مكدودة ومتعبة وكأنهم يصلون الليل بالنهار فلا ينامون. أما أصحاب المحلات فلا عمل لهم إلا تفحص المارة والوافـدين إلى محالهم بعيون مرتابة ومتشككة؛ بينما اختفت من واجهاقم ملابـس النساء الغربية والموضة ومواد الزينة، لتصبح بضاعة كاسدة لا تبـاع

إلا في الخلفيات وخفية كالسلع المهربة والمخدرات التي لا تقـــتنى إلا بواسطة.

في ساحة الاستقلال نزل. وأخذ يقطع ما تبقى من مســـافة إلى ميدان السلاح ماشيا. حاثا خطاه معتبرا الأمر رياضة صباحية. ولاح له المسرح في شكله الكالح والكئيب تحفة قديمة لا تمت لهـــذا العـــالم بصلة. والواقع أنه أحد المسارح الفرنسية، وبني في الأصـــل كـــدار للأوبرا على الطراز "الباروكي". قامـــت علـــى طرفيـــه منارتـــان توسطتهما وفوق مدخله الفسيح والعالي إلهة الفن وهي تحمل بيـــدها قيثارة وعلى جانبيها تمثالان آخران. شيد البناية المهندس المعمـــاري الشهير "أينار" في بداية القرن العشرين بعدما استوحى تصميمه مـــن النموذج الإيطالي. أما السلطات الجزائرية فلم تقم ببناء مسرح واحد منذ الاستقلال. بل دخلت مسارح عديدة من الحقبة الاستعمارية في حالة من الجمود والغلق نتيجة الأوضاع السيئة والتقادم. وكان هـــذا المسرح نفسه في حاجة إلى إعادة تأهيل وصـــيانة وتـــرميم كامـــل. فأعمال الزينة التي قامت بالخشب والجبس تآكلت وتساقطت بفعـــل القدم والرطوبة. كما أن قاعة العرض لم تعد تتوفر إلا علـــى صـــالة أرضية لحشد الجمهور بعدما أصبحت الشرف الثلاث والتي كانـــت ذات يوم مفخرته آيلة للسقوط. كذلك عفا الـــزمن علـــى الـــبلاط وصارت الكراسي المهترئة بنصف عمر وخلعت نصف الأبواب.

حيا عبد القادر عمي هواري الحارس ودخل مباشرة إلى المســـرح. مشى في رواق ضيق شحيح الإنارة. ولم تكن هناك إلا بضـــع كـــوات صغيرة مزودة بزجاج ملون لا يسمح بمرور الكمية الكافية من الضـــوء فكانت مصابيح النيّون مفتوحة طوال اليوم، ناهيك عن الرطوبة والعفن

نتيجة عدم وجود سبيل إلى التهوية الطبيعية وتعطل أجهزة التكييف. عرّج على الإدارة فأخبرته فتيحة السكرتيرة أن مدير قصر الثقافة طلبه على الهاتف. وقال إنه يريده أن يتصل به حالما يصل. وهلل سعيد الذي ظهر فجأة في المكان، يعلق وقد سمع نتفا من حديثها:

- ربما وصلتنا منحة تونس!

كان في رفقة قادة الذي رد عليه مشككا:

- لا أظن. كما لا أرجو في هذا الشهر إلا أن يصرفوا لنا مرتباتنا في حينها..
- وكأن الراتب ثروة!

قالها سعيد في تعجب، فرد عليه قادة مرة أخرى وهو يصور حقيقة وضعهما:

- ربما أنت ميسور الحال ما دمت تساعد نفسك بعمل آخر. لكن الأمر بالنسبة لي مختلف تماما. لقد أصبح الراتب كله دينا حتى قبل أن أقبضه.

استهجن سعيد كلام قادة. ورأى فيه تحاملا غير مبرر. وقال له يدعوه:

- تعال إذن واعمل معي. قف طوال اليوم تحت أشعة الشمس. ونادي معي على البطاطا والطماطم والخس..

كيف يكون المرء مشحونا بكل هذا القدر من العبث، وتكون له كل هذه القدرة على الحديث والحوار واليوم لا يزال في بدايته أو لم يفتح عينيه بعد!

تساءل عبد القادر بينه وبين نفسه وهو يتابع نقاش وسفسطة الإخوة الأعداء الذي لم يرقه. لم يشأ أن يقحم نفسه في الموضوع

وقام يتجاوزهما إلى مكتبه والذي كان عبارة عن حجـــرة واســـعة ضمت إلى جانب المكتب الفخم الذي يتوسطها خزانة أثريـــة ظـــل يحرص على تزويدها بالكتب والمراجع ذات الاختصاص.

أتاه عمي هواري بقهوة الصباح. كانت هذه حاله كلمـــا رأى عبد القادر يدخل مكتبه. ثم ما لبثت أن ظهرت إيمان في أثره.

بادر عبد القادر إلى فتح محفظته. استخرج منها بعض الأوراق، وناولها إياها. طلب منها أن ترقنها على الآلة الكاتبة، وعندما التفتت الفتاة مغادرة أمسك بيدها وحاول سحبها إليه؛ وانتبه إليها تهتف في فزع حقيقي:

- آه، دعني. أرجوك ليس هنا!

بدت أنها لم تتوقع حركته. وإن كانت كمن بوغـــت، فقـــد تلاشى انزعاجها أول ما رنت إليه. وكان واضحا أن عبـــد القـــادر يتحكم في الوضع ويدرك ما يقوم به. وقام من مكانه دون أن يفلت يدها. وبعد خطوتين كبيرتين كان قد أقفل باب مكتبه. ومال عليها فأغمضت عيناها وهي تتلقى قبلته الحارة.

- قل إنك تحبني.
- أحبك أكثر من أي شيء آخر في الدنيا.
- أنا لا أصدقك.
- حقا، سأريك إذا..

وحاول أن يمازحها عندما أخذ يدعي أنه يحاول أن يجردها من ملابسها. حينها أخذت الفتاة تقاومه في ارتباك وهي لا تكف عـــن الضحك..

- أرجوك لنترك هذا ليوم الغد عندما أزورك في البيت.

- حسنا، اتفقنا.

انتزع منها موعدا دون أن تدرك ذلك. وأشعره ذلك بالرضـــا. وبعد مغادرتها حمل سماعة الهاتف، وطلب مدير قصر الثقافة..

- أريد السيد بلحوسين، أخبريه أن السيد عبد القادر مـــدير المسرح الجهوي معه..
- انتظر لحظة. إنه معك الآن..

- 2 -

في وقت الظهيرة غادر عبد القادر إلى محل صغير للوجبات السريعة. أكل هناك طبقا من البطاطا المقلية وكريات من اللحم المفروم مع بعض الصلصة والهريسة، ثم عرج إلى مقهى مجاور أين طلب قهوة "موز".

وجد المقهى خفيفة الحركة. ولقد عكست الصور الزيتية التي كانت تزين جدرانها الأربع ملامح المدينة بأزقتها القديمة ومعالمها البارزة؛ وبدت حائلة ومغبرة كما لو طواها الزمن والتهمها التقادم.

وانتبه إلى صوت يهتف بالقرب منه:

- متى عدت؟ أنا لا أصدق أني أراك ثانية!

أجفل ملتفتا نحو مصدر الصوت. وكان السيد كهلا لم تقع عليه عيناه يوما. و لم ينقذه من حيرته إلا صوت آخر هتف من على جانبه

- لم أجد بدا من العودة.
- الحالة مزرية. إنهم يفسدون علينا الدنيا جميعها.
- وأنت كيف حالك؟ وماذا تعمل؟
- في حال لا يحسد عليها.
- خير إن شاء الله..

- سرحت من العمل فيمن سرحوا. قالوا: "المؤسسة غير قادرة على الإنتاج"، لتباع لأحد أصحاب الكِتاف العِراض بثمن خردة جزمة.
- الله يحرقها بلاد..
- أجبرونا على حياة البجعة التي إذا ما داهمها الخطر احتضنت رأسها بجناحيها وظلت تنتظر..

وكان لا يزال يدخن ويحتسي قهوته عندما استقرت عيناه على صبي صغير دخل المقهى متسولا. حدث نفسه أن عار التسول كان ليزول نهائيا بعد الاستقلال، وغير غريب ما يحدث اليوم. ها هم الحالمون بغد أفضل وممن لم تسع أحلامهم البلاد يتواطؤون مع ناهبي الحق مضاعفا والمتسيدين غصبا وكرها ليؤول بنا الحال إلى الحضيض والدرك الأسفل. واستدرك أنه قد أمضى وقتا طويلا في الخارج. وعندما عاد إلى مكتبه استرخى وتمطى قليلا على أريكة كانت هناك قبل أن يقرر المغادرة إلى قصر الثقافة.

- 3 -

يقع قصر الثقافة أمام ساحة "قرقيطا" وفي تقاطع طرق كبير يجمع بين أهم شوارع المدنية. ومساحات واسعة من جدرانه الخارجية مغطاة بفسيفساء تعود إلى الحقبة الاستعمارية، وتمثل آلهة اليونان والرومان يخوضون أعمال الربوبية. مدخل البناء عبارة عن بهو رئيس واسع عالي السقف يفضي بدوره إلى بهوين على الجانبين. واكتشف عبد القادر حال دخوله أن أحد الجناحين يحتضن معرضا لرسومات فنان شاب مغمور، كذلك أقيم في الجناح الثاني معرض لبيع الكتب الأدبية، أما أمامه فقد امتدت أدراج رخامية حلزونية تصل إلى الدورين العلويين. وعلى طول الأدراج وعلى الجدار علقت صور زيتية تمثل أعلام المدينة في مختلف الفنون.

ارتقى عبد القادر الأدراج إلى الدور الثاني والذي كان فيه مكتب المدير والإدارة إلى جانب صالات عرض صغيرة تخصص في الغالب لعرض الأزياء وكقاعات للمحاضرات. وكان المدير رجلا أصلع نحيلا يرتدي بدلة سوداء. ولقد استقبله مبتسما ومد له يده يصافحه بحرارة. وكان إلى جانبه في المكتب سيدة قصيرة ممتلئة تحمل ابتسامة متواضعة، قام المدير يعرفه بها..

- إنها فرصة سعيدة لنعرفك بالسيدة فاتن، دكتورة عراقية وأستاذة في الإخراج المسرحي. تُدرس في جامعة السانيا.

ومغرمة بشكسبير. وهي هنا بصدد البحث عن قاعة عرض تقدم فيها عملها الجديد "مكبث"..

وقف عبد القادر كالمصدوم. و لم يعرف كيف يضبط مشاعره بين الإحباط والدهشة. لأول مرة يعرف أن المسرح يدرس كاختصاص في جامعة وهران. وعجب من الهوة السحيقة التي تفصل بين أصحاب الهم الواحد.

ثم واصل السيد بلحوسين حديثه عن الدكتورة، وقال ينبه عبد القادر إلى أحد النقاط التي يراها ذات أهمية:

- واعلم كذلك يا سيدي، أنها تقدم عملها باللغة العربية الفصحى، وتراهن على نجاحه!

كان في كلامه ما يشي بالاستغراب والاستهجان. أما عبد القادر فكانت له وجهة نظر أخرى، لهذا قال يشجع السيدة:

- يجب الإشادة بعملك. والواقع أن هذا ما نحتاجه اليوم تماما. أتمنى لك التوفيق من كل قلبي..

وتطرقا بالحديث إلى مواضيع أخرى عديدة، ونوهت الدكتورة بالنزعة التفاؤلية التي تتضمنها أعمال عبد القادر. وهتف السيد بلحوسين يقول بعدما سمع كلامها:

- هذا عن أعماله، لكن الواقع شيء آخر. إنه بصدد انجاز بحث عظيم عن المسرح الجزائري. وهو يحاول فيه جمع وإحصاء الأعمال المسرحية الوطنية منذ إرهاصاتها الأولى. ولأن ما يقوم به عمل جبار لا يقدر عليه رجل لوحده، فهو في حاجة إلى مساندة ودعم غير متوفرين لحد الآن. ولهذا ستجدينه غير متفائل هذه المرة!

وتذكر عبد القادر ما جاء لأجله، فسأل صديقه هـــل هنـــاك جديد، ولماذا طلبه. وكمن تنبه فتح المدير أحد أدراج مكتبه وقـــدم إليه ورقة مطوية، وهو يقول:

- إليك بهذه الإرسالية. أحضرتها لك معي من المديرية. هناك حفلة تكريمية لك بمناسبة نجاح عرضك في تونس.

وبان الأسف على ملامح عبد القادر الذي توقع أن يكون للأمر علاقة بما يعكف عليه حاليا. لكن لا بأس فهو يدرك تماما كيف تسير الأمور في هذا البلد. هنا حتى ولو ظللت طول حياتك تدفع بالصخرة إلى الأعلى لن يكترث لك أحد. هنا أزمة مردها اللامبالاة. وليس له أن يشعر بالبؤس أمام هذا الإفلاس.

وتشعب بهم الحديث مرة ثانية. وطرقوا مواضيع أخرى عديدة. وكانت السيدة قد أبدت رأيها وتصورها في أكثر من مناسبة. وافتتن عبد القادر بقوة شخصيتها وأدرك قدرتها في مجالها وحسن إطلاعها. وحين قام مستأذنا في الانصراف قامت بدورها؛ فترافقا حتى البـــاب الخارجي.

في الطريق راحت تسرد عليه في عجالة جملة من المشاكل الـــتي تعترضها. وكان على رأسها إيجاد قاعة عرض مناسبة تقـــدم فيهـــا أعمالها. وعندما سألها عن الرد الذي أعطاه لها المدير، قالت إنه تعلل بالأعمال الكثيرة المبرمجة. كما أخبرها أنه لا مجال لإقحام عملـــها في أي مناسبة قادمة. حينها اقترب منها عبد القادر بشكل مريب وأسر لها يقول كمن يودعها سرا خطيرا..

- لم تكن هناك أعمال مبرمجة ولا شيء. كل مـــا هنالـــك أن عملك ناطق باللغة الفصحى. والمشكلة دوما هـــي في اللغـــة

العربية. إنهم يدعون أن الجمهور لا يمكنـــه أن يستســـيغها. والحق أن الأمر ليس له علاقة بالثقافة بل له علاقة بالسياسة.

وهتفت السيدة متعجبة، وطلبت منه أن يوضح لها أكثر، فهـــي غريبة عن هذا البلد. وقال عبد القادر يصور لها الوضع:

– أغلب الذين يسيطرون على المناصب العليـــا مفرنســـون ويجهلون اللغة العربية من أساسها. وهذا يسبب لهم عقـــدة كبيرة وإزعاجا خطيرا يحاولون القفز عليه من خلال عـــدم إفساح المجال للمعربين. والحقيقة أن هذا الصراع ممتد منـــذ أيام الاستعمار. ولقد ظهر واضحا وجليا بعد الاســـتقلال. عندما تقرئين الدستور تجدين أن اللغة العربية هـــي اللغـــة الوطنية والرسمية. ثم إنك ترين أن كل الأعمـــال تُصـــرف باللغة الفرنسية. ولتأخذيني مثالا على ذلك. لقد كتبت أوّل أعمالي باللغة الفصحى، واجتهدت بعد ذلك في الـــدفاع عنها. ثم تخليت عن كل ما حققته بعد هجرتي إلى فرنســـا، فهناك تحولت مجبرا إلى الكتابة باللغة الفرنسية. بعد عودتي ارتضيت الخيار الصعب وعدت أكتب أعمـــالي بالعاميـــة. والسبب راجع عندي لأسباب عديدة ولعل أهمها مستوى الممثل التحصيلي، وعدم قدرته على تذوق اللغة العربيـــة. ولهذا أرجو أن يكون هذا اللقاء تصـــويبا للقـــاطرة الـــتي انحرفت عن سكتها بفعل الظروف القاهرة والـــتي وقفنـــا أمامها عاجزين. إني أعتقد أن الظروف اليوم تغيرت وأنه لا بد من المحاولة من جديد. وها نحن نشد على يدك ونعـــول عليك. وثقي أننا سنكون لك خير سند.

وقبل أن يصافحها مودعا كان قد طلب منها أن تعـــرج علـــى مكتبه بالمسرح الجهوي في مستهل الأسبوع القادم ليرى ما يمكن أن يقدمه لها. حينها تهلل وجهها وأشرق وهي تستقبل البشارة، وبامتنان خالص راحت تشكره.

- 4 -

سار عبد القادر منحدرا باتجاه ساحة الكاتدرائية. ومن هنـــاك عبر الطريق إلى شارع "العربـــي بن مهيدي"، ثم تابع سيره إلى سوق "لاباستيه".

كان يحاول تبضع ما يحتاجه عندما داهمه دوي هائل اهتـــز لـــه المكان من حوله. وفي لحظة وجد نفسه ملقى على الأرض من هـــول الانفجار. وعاوده وعيه فتأمل ما حوله. سحابة كثيفـــة مـــن الغبـــار والدخان الأسود تسد منافذ الهواء حد الاختنـــاق. صـــراخ وعويـــل واستغاثات ومصابون ينتظرون من يأخذ بيدهم. جثث محترقة وأخرى متفحمة، وأشلاء بشرية متناثرة هنا وهناك بينما آثار الـــدماء في كـــل مكان. ولقد اختلطت الأشياء: قمامة، خضار، بضائع، ألواح خشبية، عوارض حديدية، أكداس من الزجاج وحجارة منهارة مع الفوضـــى البشرية مخلفة صورة قاتمة وكأن زلزالا مدمرا مرّ من هنا. ثم انتبـــه إلى سيارة تقف مزمجرة على بعد أمتار منه وسائقها يفتح باها الخلفي أيـــن دفع أحدهم بشاب مخضب بالدم لتنطلق السيارة من جديد، لكن هذه المرة إلى الخلف. وانتبه إلى امرأة مسنة تفترش الأرض وتنفش شـــعرها وتلطم وجهها وتبكي في ولولة حادة صبيا صغيرا لم يبلغ عامه الخامس يرقد في بركة من الدماء الحارة. واقتحمه صوت مناد:

– يا خاوتي، تعالوا ساعدونا. الناس هنا في حاجة إليكم..

لم يكن بوسعه الهرب. كان هناك ما يدفعه إلى أن يبقى وسط المكان. وشعور داخلي أنبأه أن هناك ما يجب عمله. وحاول النهوض، وعرج على قدمه المتصلبة بفعل ارتطامها بشيء ما متقدما نحو مسرح العملية علّه يستطيع المساعدة. واصطدم أحدهم بكتفه بقوة فكاد يوقعه أرضا.

فجأة انقبض واستبد به ذعر شديد. التفت وأخذ يحث خطاه باتجاه منفذ قريب. استقل سيارة أجرة أمام سوق "مارشيه مشليه" حيث الأزهار لا تزال قائمة هناك. وبسبب وضعه بانت له بلا معنى. إنها لا تمت إلى هذه المدينة وما يحدث فيها بصلة. وفي داخل السيارة داهمه خور ووهن. تمدد على الكرسي بكامل جسده، وحاول أن يسترخي لكنه لم يستطع.

وقال صاحب التاكسي: - هل شاهدت ما حدث؟

أجابه في حزن بالغ: - نعم، لقد كنت وسط الانفجار.

ورمقه السائق باهتمام من خلال المرآة العاكسة. ثم سأله بعدما تأمل ملامحه المتعبة:

- هل تشكو من شيء ما؟

قال بلا مبالاة: - فقط هناك بعض الألم في رجلي اليسرى..

- يمكنني أن أعرج بك إلى المستشفى..
- لا، خذني فقط إلى البيت.
- لا بد أن ما حصل فظيع!
- نعم، ككل مرة. شيء لا يُتصور!
- يقولون أن الانفجار استهدف مقر القنصلية الاسبانية.
- فرضا أن الأمر كذلك. لكن عامة الشعب من يدفع الثمن! بالله قل لي ما ذنب صبي صغير يلقى حتفه هناك!

ودمدم السائق هذه المرة في صوت غامض يشبه الفحيح:

- لكن من يمكنه أن يصنع كل هذا؟ حقا أنا لا أصدق!

ثم أردف يواصل:

- ثم ما رأيك في المجزرة التي وقعت في "بن طلحة". هناك من شاهدهم يهبطون من هليكوبترات الجيش..

حينها وجه إليه عبد القادر نظرة استفهام وريبة. وتساءل:

- ماذا تريد أن تقول؟

وفجأة اضمحل السائق. هو يقينا لا يعرف السيد الذي يُقِلـــه، لهذا عاد فقال في شبه اعتذار:

- أنا لا ألمح إلى أي شيء.

عندما نزل عبد القادر من سيارة التاكسي كان الظلام قد شرع يلف المدينة في دورة جديدة. وجد نفسه متوترا، بينما بدت رجلـــه أكثر تصلبا وعنادا وأبت أن تسعفه في مشيه. وشعر بالسوء لأنـــه لم يعرج على المستشفى. وفكر أن يعالجها أول ما يدخل بالماء الساخن مع بعض الملح فقد تتحسن. وأمام باب العمارة حـــاول أن يتـــنفس بملء رئتيه. لكن استقبلته رائحة بول حامزة كانت لا تزال ترقد هناك في المدخل وسببت له غثيانا مفاجئا..(*)

(*) نشرت مجلة محلية خبر هذا الانفجار والذي تم بتاريخ 22 فبراير 1994. وقد نفذت العملية بواسطة سيارة مفخخة. وكان منفذها ينحدر مـــن مدينة شلف. واسمه صلاح الدين بوروبة، وهو طبيب شاب في السابعة والعشرين من عمره. كان حينها مجندا وفارا من الخدمة الوطنية. قـــدر عدد ضحايا التفجير بسبعة قتلى وبأكثر من ثلاثين جريحا. وتقرر بعـــد حادث التفجير غلق القنصلية الاسبانية إلى إشعار آخر، لتتعطل مشاغل العشرات ممن كانوا يتوافدون عليها يوميا.

- 5 -

في تلك الليلة اجتمع عبد القادر في بيته مع شلة الأصحاب: بوعلام مِيزرية وقدور البزناسي والمشري الشاعر. زاروه كما العادة، وكان هذا حالهم كل خميس. يلجؤون إلى بيته. يشربون معا، ويدخنون ويتسامرون إلى ساعة متأخرة من الليل. وأحيانا يضطرون إلى المبيت عنده.

وبوعلام مزيرية لحم على عظم. بِوجهه أثر جذري قديم. مدمن كبير على الحشيش. وفي حالات الصحو كثير الشكوى والتذمر. غالبا ما يعلن أنه لم ينل حظه من هذه الدنيا. وهو مرتبط به بحكم العمل معا.

أما قدور البزناسي فتاجر كبير معروف في السوق. ارتبط به بزمالة تعود إلى تعارف الزوجات. والواقع أنه متزوج من ثلاث نساء، يقول إنه ارتبط بهن عن حب. مديد القامة، ضخم الجثة. ويصر بخلافهم على ارتداء طقم بدلات كاملة. كما يرى أن حذاءه يجب أن يكون لامعا دائما لأنه يعكس صورة عن شخصيته أو هكذا قالت له فتاة باريسية أغرم بها ذات يوم.

وبعكس قدور فإن المشري الشاعر نحيل ويميل إلى القصر مع إحديداب في عموده الفقري. ينوء كاهله بهموم الدنيا كلها. صديق قديم ومعلم بمدرسة ثانوية. يعيل خمسة أولاد وأمهم وله أخت مطلقة

وأم مقعدة. مهتم بالكتب الأدبية، وكثيرا ما ينضم شعرا أو خاطرة ويصر على قراءها لهم باعتبارهم جمهوره الوحيد. بينما يظل حلمه الأكبر أن ينشر له ديوان شعري واحد قبل وفاته.

في سهرهم الطويلة تجدهم يناقشون أمور حياهم الراهنة. يشكون ظلم الزمن وغدر الأيام. يعلقون على المتناقضات من حولهم. ولا بأس أن يتبادلوا النكات وإن كانت داعرة. وقد يُسمع وسط هدرهم، قرقعة قارورة جديدة تفتح. تجشأ أو سعال أحدهم بعد سيجارة مثخنة بالكيف. وأحيانا ضحكة ماجنة معربدة لا لزوم لها. في حين تظل تظلهم سحابة كثيفة من الدخان..

قص عليهم عبد القادر ما حصل معه، وأخبرهم كيف كان شاهدا على الانفجار وعلى المأساة. ولقد وجدوا في قصة عبد القادر متنفسهم. لهذا بدؤوا بالحديث دون ضابط أو قيد..

– أمس هجموا على عائلة في "قديل" ونكلوا بها..
– عثروا على ولد جارتنا مذبوحا في سيارته عندما كان في طريقه إلى العاصمة.
– انفجرت سيارة مفخخة في مركز للشرطة بتيزي وزو.
– قرأت في الصحف أن غابات الأخضرية كلها محاصرة، والضرب من الجانبين. يتوقعون أن يكون أمير "الجيا" محاصرا وجماعته هناك..
– يقولون ذلك في حين أكد لي أحدهم أن قرية قرب مدينة البويرة أبيدت عن بكرة أبيها دون أن يجرأ جندي واحد على الخروج من ثكنة لا تبعد إلا كيلومترين اثنين من القرية.

- ربما هو الخوف من الكمائن، فهي تتكـــرر معهـــم كـــل مرة.
- ما نحن مقبلون عليه لا يسر الخاطر أبدا!
- ما نحن مقبلون عليه حرب حقيقية وسوف ترون.
- أحيانا أحدث نفسي أن أنتهي على أيديهم أحسن من هذه العيشة المزرية..
- قل الحمد لله. واشكر ربك أن تســـريح العمـــال وغلـــق المؤسسات لا يطال سلك التعليم والمعلمين.
- هاه، حينها أهرب من البيت، وأخلي نفســـي مـــن كـــل مسؤولية هي اليوم على عاتقي.
- ولتعاشر أم الأولاد أي قواد يقدر أن يسد أفواه الصغار.
- أرجوكم كل شيء إلا الأعراض. اتركونا نكمل ســـهرتنا على صفاء أو دوام الحال من المحال!
- إذا كان الأمر كذلك جائزا يمكنني أنـــا أيضـــا أن أهجـــر زوجتي..
- لكن زوجتك يا أخي بوعلام، منتهية الصلاحية!
- يا ماكر، لماذا قلت ذلك؟ هل جربتها ووجدتها لا تصلح أم ماذا!
- لا جربتها ولا هم يحزنون، إنما الطيور على أشكالها تقع.
- ونِعم الرأي ما دام الذي ينطق به زير نساء ومتخصص.
- الأفضل لزوجة المشري أن تبحث لها عن أمير جماعة، فمعه فقط يمكنها أن تعيش معززة مكرمة.
- وربما من هناك ستنادي عليه ليتبعها، فيطلع علينا ذات ليلة

لابسا جلابة وفي يده محشوشة وراغبا في أن يقطـــع لنـــا رؤوسنا.

- سأذكره يومها بالليالي الملاح التي عاشها في شـــقتي فربمـــا يغفر لي..
- وأنا يمكنني أن آخذه بالأحضان واطلب منـــه أن يجـــد لي مكانا بينهم على أن أكون برتبة وزير أو أكثر.
- على ذكر الوزير، هاكم آخر نكتة عن ثقافتنا المخرومة..
- علاش، ماذا حصل أيضا؟
- يا رفاقي، وزير الثقافة وفي الأيام التكريميـــة الأولى لمحمـــد ديب أصر وباعتزاز أن يكون أول من يتناول الكلمة. وكما يقول المثل: "جا يكحلها عماها". تصـــوروا أن مداخلتـــه جاءت تأبينية للسيد وهو لا يزال حيا يرزق..
- يا لطيف!
- دعنا من السخرية..
- يعتقد أننا لا نكرم إلا من تغمده ربه وأصبح في عداد الأموات!
- والمصيبة أن تلفزيوننا عرض جانبا هاما من هذه المهزلة..
- ولكني أعرف أن مداخلات الوزراء والمســـؤولين يكتبـــها مستشارون وأصحاب اختصاص!
- يمكن لأي شيء أن يتم كذلك في بلاد أخرى، لكن هـــذه البلاد وعلى رأي الممثل عادل إمـــام، لـــيس لهـــا إلا في المقدمات والمؤخرات..
- "بنيان الطين لا تعليه يعيا ويطيح ساسه وولد الغير لا تربيه لازم مرجوعه لناسه".

- هل هذا بيت شعر جديد؟
- لماذا؟ إنه مثل شعبـــي قديم..
- لا، فقط أريد أن أطمئن على من سأسلمه وزارة الثقافـــة عندنا.
- كنت أعتقد أن المشري الأحق بها!
- المشري الذي تتحدث عنه يبدو أنه ليس معنا تماما!
- هاي، وينك؟ انسطلت من سيجارة الحشيش الأولى!
- ماذا بك. أي بلاد للعجائب أغرتك بالسفر إليها؟
- أنا بربكم. أريد أن أفر من بلادكم هذه والتي هـــي بـــلاد العجائب بامتياز إلى بلاد لا عجائب فيها!
- لم نعتدك مغموما هكذا! هل من سبب لهذا المزاج السيء؟
- الولد البكر لم يظهر منذ يومين..
- ولكنك لم تخبرنا بذلك!
- لكن هل قمت بالبحث عنـــه عنـــد المعـــارف أو بعـــض أصحابه؟
- لقد سألت عنه في كل مكان، لكن دون جدوى..
- وهل اتصلت بالشرطة؟
- لقد رأيت أن انتظر قليلا وأتريث..
- يجب أن تطلع بمسؤولياتك فهذا ابنك.
- وأنا لن أفرط فيه. لكن فقط لو أعرف مكانه!
- ربما هناك من ضحك عليه وورطه معه، أو وقع تحت تأثير جماعة ما..
- أظنه أبعد ما يكون عن تلك الجماعات الهدامة..

- لا يمكنك أن تعرف ذلك أبدا.
- ولكنه ابني، وأنا أعرفه جيدا..
- هذا ما يمكن لكل والد أن يقوله، لكن للحقيقة دوما وجه آخر.
- وبصفتك والده ماذا تعتقد أنه حصل؟
- الواقع أنه أظهر انطواء مفاجئا عقب رسوبه في البكالوريا. ثم أظهر رغبة في الزواج من فتاة في الحي. وعندما قلت له تدبر لنفسك شغلا ثم فكر في الزواج، علا صوته ورد علي بوقاحة، فطردته من البيت..
- تفاءل خيرا يا رجل..
- خذ نفسا جديدا وستنجلي عنك الهموم كلها..
- هل تعتقد ذلك؟.. كم أغبطك على راحة البال التي تنعم بها يا سي بوعلام..
- لا تفسد الرجل يا خويا..
- وكأنكم تتحدثون عن قاصر. أنا فقط أريده أن ينسى مصيبته!
- دعونا من حديث المصائب وليضع لنا أحدكم أسطوانة مناسبة..
- وماذا تفضل كسماع أنت؟
- أغنية خالد: "داتني السكرة.. داتني،

داتني المحنة.. داتني

لا زواج، لا مكتوب..

كي غادي ندير!.."

- إن ذوقك منحط.
- وهل من حيلة. ذوقي رضعته من ثدي هذا الـوطن ومـن أرجاؤه العفنة..

و تردد هناك في البعيد إطلاق نار متقطع أعقبه هدير متواصـل للرصاص. وما لبث أن خيم الصمت على الجميع بعـدما اعتـرهم مشاعر محبطة. وأصاخوا السمع لعلهم يدركون أين تجري المعركـة وأين يقع ضرب النار؟

المزمور الرابع

قليل من الحب

كثير من الخيبة

- 1 -

كان مشروعه يبدو للوهلة الأولى أمرا ميسورا وسهل المنال. ظن أن ما عليه إلا طرق الأبواب حتى تنفتح أمامه لكن وبعدما خاض فيه اكتشف ضخامته، وبات موقنا أنه يتطلب مجهودا خارقا لا يقدر عليه رجل لوحده.

كان يمكن أن يكون إحصاء وجمع "ريبرتوار" المسرح الجزائري أمرا هينا إذا ما توافرت المسارح على أرشيف كامل يشهد على ما مر بها من فرق وأعمال، لكن المسارح الجزائرية لم تتوفر على أمر كهذا، ثم حتى وإن توفرت فإن تلك الأعمال تظل مبهمة لغياب نصوصها الأصلية أو على الأقل إشارة إلى مواضيعها وما تتضمنه.

كانت مبادرته تهدف إلى جمع أكبر قدر من الأعمال الفنية المسرحية المتناثرة هنا وهناك والضائعة ما بين أرشيف المسارح الجهوية وبين جامعي التحف والآثار الثمينة وبين كتاب وباحثين عمدوا إلى جمع هذه الأعمال قصد الاستفادة منها أو كتركات تناقلوها عبر الأجيال. وكم كان مضنيا وشاقا بحثه عن تلك المخطوطات. فقد اضطر في أكثر من مرة إلى السفر من أجلها. وأحيانا سافر إلى أماكن بعيدة مستعينا في ذلك بزوادته الخاصة وبمال جيبه. وهذا ما حدث معه أيضا عندما سمع بوجود مخطوط مسرحي في مكتبة الجامع الكبير بمدينة بوسعادة. سافر إلى هناك تحدوه الرغبة

في التعرف على ذلك الكنز. وعندما اكتشفه غلبه الانبهار. كان نصا أصليا لمسرحية فرنسية غير معروفة. كما رجح أن تكون لأحد المستوطنين الذين عاشوا في الجزائر إبان فترة الثورات الشعبية. صور فيها صاحبها حكاية قائد فرنسي يقع في غرام امرأة جزائرية توهمه باستجابتها لنداءاته لأجل الانتقام لعائلتها التي أبيدت في أحد معارك الاحتلال، في شكل أقرب إلى مسرحيات "راسين" الكلاسيكية. كما ورد فيها اسم القائدة الجزائرية "لالة فاطمة نسومر". ولا بد أن المسرحية كانت تؤشر لفترتها. وغير بعيد أن تكون قد كتبت في تلك الفترة أيضا.

لقد اعترضه ألف عائق وعائق. وأبلى حسنا في تجاوز عقبات عديدة. لكن كذلك كانت هناك عقبات لن تقدر أن تذللها إلا السلطات المسؤولة إذا ما أخذت على عاتقها هذه المهمة.

كان أمامه عشرات الأسماء المسرحية. وكان لهذه العشرات عشرات الأعمال المعروضة. وهكذا وجد نفسه أمام معضلة حقيقية وهي ضيق الوقت مهما اتسع. وما فتئ يتساءل ما جدوى محاولته وسط الكم الهائل من الأعمال، والتي تتطلب كل حالة فيها بحثا عميقا ودقيقا.

إن مشروعا كهذا يتطلب حشد عدد كبير من المتعاونين وذوي الاختصاص والكفاءة، وهو يدرك جيدا أنه كان يؤدي دوره كاملا. وما تبقى لا يخصه ويتجاوزه إلى السلطات التي تظل تتهرب دوما من مسؤولياتها، معللة ذلك تارة بضعف الميزانية وتارة أخرى بضعف الإمكانات والكفاءات أو معتبرة الأمر يتجاوز قدراتها أو يخرج عن دائرة اختصاصها.

قام بالتحقيق والتدقيق في هذه المسرحيات بنفسه. وكان أحيانا يسود صفحات عديدة ثم يكتشف ما يدحضها أو لا يلبث أن يغير نظرته إليها بعدما يكتشف جديدا ينقدها. وحينها كان لا بد أن يعود من حيث بدأ. فتجده ينطلق من جديد وقد استعان هذه المرة بما تكوَّن لديه من أفكار مختلفة ونظرة أعمق وأقرب إلى الحقيقة عينها. وإن الأمر كذلك صعب وممل بحيث فكر في أكثر من مرة أن يتخلى عن مشروعه نهائيا لولا رفضه الاستسلام وقد عاوده الحماس ليسوِّد فقرات جيدة وعلى الصورة التي كان يرجوها وترضيه.

كم كانت مهمته صعبة وشاقة ومكلفة، وقد أكسبته دراية ومهنية وزادته خبرة وأشبعته ثقافة وغذت رصيده اللغوي. وبعدما قام بدراسة كافة المخطوطات المتاحة وضع أول قائمة بالمسرحيات الجزائرية. وامتدت الفترة التي رصدها من بداية فترة العشرينات إلى ما قبل الاستقلال. وخرج من هذه التجربة بمجموعة من الملاحظات الهامة والتي تكشف عن خاصية وخصوصية المسرح الجزائري من حيث طبيعته وشكله وركائزه وأهدافه.(*)

(*) في مذكراته وجدت عبد القادر قد تطرق بالإشارة إلى هذه النقطة في أكثر من مناسبة مبرزا خصوصية المسرح الجزائري وخصائصه. وبعد مراجعات عديدة لها (المذكرات) حاولت بدوري أن أستوعب ما كان يعنيه وأن أتقصى وأتتبع ما ورد عنه، ملخصا مجموع تلك الملاحظات في:

- أن المسرح الجزائري لم يرتبط بمبنى المسرح والخشبة والستارة وصالة المتفرجين.
- الممثل الجزائري كان يتقمص دوره بالفطرة بعيدا عن النظريات العلمية التي وضعها أساتذة ومنظرو هذا الفن من أمثال "ستان سلافسكي" لتهذيب وتشكيل فن الممثل.

....

- كان الممثل يتميز بعفوية وتحرر عجيبين. وما كان يحرزه سواه بالجهد والتعب، كان يتوافر لديه بشكل طبيعي وفطري.
- المُشاهد كان مسحورا بالخيال. وحضور الديكور ومحاولة توصيف الزمان والمكان لم تكن ضرورية، لأن المشاهد سيشكل كل ذلك بحسب هواه وبحس شاعري وبسرعة في التقبل والتصديق وانفعال بالأحداث لا نظير له.
- لم يحفل معدو المسرحيات بالديكور والإنارة وبكافة العناصر التقنية الأخرى في إخراج وعرض مسرحياتهم لنقص الإمكانات من ناحية، ومعتمدين من ناحية ثانية على الذاكرة المبدعة للمشاهد.
- لم يأخذ المسرح الجزائري عن المسرحيات العالمية، ولم يرتبط بنخبة المثقفين. بل كان يستقي موضوعاته من التراث والموروث الشعبي، هادفا لإرضاء العامة من الشعب.
- مجمل الأعمال المعروضة لا تخضع للتقسيم الأرسطي (كوميديا، تراجيديا)، ولا تلتزم بمبدأ الوحدات الثلاث (الزمان، المكان، الموضوع). كما أنها في مجملها أقرب إلى كوميديا "دي لارتي" الإيطالية، والتي كانت تقوم أساسا على الارتجال وحضور البديهة.
- تجاوزت بعض المسرحيات ذلك إلى ما يسمى بالميلودراما أو الفودفيل أو الفارس الغنائي، ثم في فترة متأخرة نسبيا ظهر المسرح السياسي. واعتمدت أغلب المسرحيات على الحكايات الشعبية التي تناقلها الرواة والجوالون أو على البطولات الخارقة أو النكت اللاذعة والتي تشهر بالطمع والشح والجشع والخيانة وكافة الأمراض الاجتماعية الأخرى..

- 2 -

كان عبد القادر يواصل عمله على أنغام الموسيقى الكلاسيكية يستمتع بـ "أوراتوريو- المسيح" للعبقري هاندل(*) عندما انتبه إلى جرس الباب يرن. قام يستقبل القادم. وأقبلت إيمان في صورة بهية ومتألقة وكما كان يرغب أن يراها دوما.

أبدى سعادته بإطلالتها. وقبلها على خديها وهو يتنسم عبق عطرها الرقيق. وفيما هي تعبر الرواق إلى الصالون سألته عن أحواله. أخبرها أنه صار في أحسن حال بعد مقدمها ورؤيته لها في بيته. توردت وجنتاها إثر ذلك وداهمها الحبور والانشراح بعد كلماته الغزلية. وكان قد أعارها "كاسيت- فيديو" عليه مونولوج جديد لـ "فلاق(**) فسألها بجدية:

- هل أعجبك المونولوج؟

حينها تقدمت نحوه. وبعبث الطفلة فيها قالت:

(*) هو جورج فريديريك هاندل. (1685-1759). انكليزي من أصل ألماني. عايش العصر الباروكي، وعانى من اكتئاب هوسي حتى صار يشاهد في الشوارع الألمانية يكلم نفسه. أعجب الملك الإنجليزي جورج الأول بموسيقاه، وفي عهده ذاع صيته. تعتبر موسيقى الماء وأوراتوريو المسيح من أنجح عروضه، وتعد اليوم من الروائع الخالدة.

(**) محمد فلاق ممثل كوميدي جزائري ساخر، اشتهر بأدائه لأدوار المونولوج.

- نعم، لقد أعجبني لكني أرى الآن أمرين لا يروقانني!

تصنع الدهشة وهو يسأل مرتابا:

- وما هما هذان الأمران؟
- أولا السيجارة على فمك..

قالت ذلك وهي تقوم بحركة خاطفة ومباغتة لتسحبها من فمه، ثم أردفت:

- وثانيا هذه الموسيقى التي لا أفهم كيف تروقك!

قاوم رغبة كبيرة في الضحك. وقال مبتسما وغافلا إشارتها إلى السيجارة:

- كاتب كبير أسماها بموسيقى الفكر والوجدان. وهي بذلك تقابل موسيقى الحواس والابتذال والتي تغزو أسواق هذا الزمان. ثم إنها الموسيقى الوحيدة التي تلهب خيالي وأحاسيسي وتحفزني على العمل، حتى إني لا أتصور نفسي قادرا على الكتابة من دونها.
- فقط أنت لا تزال غير مستعد لتغيير ذوقك في الموسيقى. وترفض الاعتراف بأن ما تسمعه موضة قديمة غير مؤمن بمنطق التطور.
- ضمنيا اعترف أنها مسألة ذوق. كما أنه يجب ألا ينصب أحد نفسه رقيبا على ما يريده الآخرون. وصدقيني إن سعى الناس لاحترام أذواق بعضهم البعض لما تدهورت بنا الحال وأصبحنا على ما نحن عليه..
- ها أنت تجعل من الموسيقى قضية سياسية!
- بل أقصد أن التذوق يعني الاختلاف. وأنا لم أشر إلا لاحترام هذا الاختلاف!

- هل أعد لك القهوة؟

بطريقة لبقة أقفلت الفتاة باب السياسة التي كانت تسبب لها العصاب -كما كانت تحب أن تقول دوما- منتقلة إلى مشاعر أكثر رقة، حيث كان يروق لها أن تمثل دور الزوجة السعيدة التي لا هم لها إلا أن تدور في فلك زوجها. كانت كثيرا ما تغمره بتدبيرها كزوجة حقيقية، وترى في ذلك دورا مكملا لأي دور آخر كُتِب لها أن تلعبه؛ بينما كان هو على العكس من ذلك يرفض في إصرار وفي كل مرة قيامها بمثل هذه الأعباء. ولطالما أخبرها بأنه تعوَّد العيش بمفرده مذ كان في باريس. ولا يزعجه أبدا القيام بالأعباءِ المنزلية، بل يجد متعته في ذلك أحيانا.

قامت بنزع معطفها وخمارها وهبت إلى المطبخ. ومن هناك جاءه صوتها يستفسر دون سابق إنذار:

- لماذا تتنكر الدولة لأمثال هؤلاء الممثلين المقتدرين. ولا يعرض تلفزيوننا مثل هذه الأعمال؟

وكانت تتحدث عن "فلاق"، فقال يوضح لها الأمر كما كان يراه ويفهمه:

- إنها أعمال ممنوعة كأخرى كثيرة لأنها تكشف وتعري الجوانب الخفية للسلطة والمسؤولين، وتؤشر على مواطن الداءِ في هذا البلد. ثم إنه يجب أن تكوني متأكدة أن هذا البلد لا يفتح ذراعيه إلا للرداءة. وإن الأعمال التي يطالعنا بها التلفزيون، والمسلسلات التي نراها عليه بين الحين والآخر، ومحاولة تكريس المبتدئين في الفن بدل المحترفين الذين عهدناهم والذين يغيبون بشكل مقصود إنما وراءه

صفقات مشبوهة وابتزاز رخيص للمشاهد. كما أنها تعطي صورة حقيقية لمن يدير هذا الجهاز الخطير، وتكشف مستواه وأفكاره وأهدافه. ليسود علينا أدعياء الفن كما ساد علينا الأدعياء في كل شيء في هذا البلد.

بعد عشر دقائق وضعت القهوة أمامه. وقامت تسأله هذه المرة في موضوع آخر وعلى محياها ابتسامة كبيرة:

- هل كان أصدقاؤك هنا البارحة؟

أجابها بنعم. فقالت وإحدى عيناها تطرف في إشارة ذات معنى:

- وأظنكم أمضيتم ليلة كبيرة كالعادة!

استرجع نتفا من صور البارحة، وقال يمازحها وينكد عليها:

- نعم، كانت ليلة حلوة، وأحلى ما فيها أني خلالها نسيت أمرك تماما!

- آه، هكذا إذن!

وكان يرشف من فنجان القهوة أمامه، عندما جلست إلى جانبه وهي تقول:

- أنا دائما أستغرب ويحيرني أمرك. تقول إنكم سهرتم حتى ساعة متأخرة من الليل. كما تزعم أنك تنهض أيام العطل متأخرا. ففي أي وقت تكتب؟

- لست معنيا بالوقت. وأحيانا يجافيني النوم فأكتب طوال الليل، وأحيانا أخرى -كاليوم مثلا- أعمل بعد استيقاظي. أنا واحد من الذين يدعون إلى الكتابة ساعة تتفتح الأنفس عليها. لأنه قد تأتي ساعات أخرى لن تتمكني فيها من إنجاز شيء. والخشية أن يمتد ذلك لأيام أو لأسابيع طويلة..

- 3 -

تعرف عليها قبل ستة أشهر وذلك عندما أقدمت الوزارة على ضم بعض الشباب المتخرج والعاطل عن العمل إلى مؤسسات الدولة آملة في امتصاص فائض البطالة المتزايد وإضعاف الأصوات المنددة بتهاون السلطات في إيجاد فرص عمل للشباب. وسرعان ما لفتت انتباهه. بدل لها بعض النظرات والكلمات وعرف فيها طابع المرأة المحتشمة والقانعة. كما جاءت إفادة بعض المستخدمين تحمل ما كان يرجوه ويتمناه. فهي جامعية حاصلة على ليسانس في الإعلام الآلي. متزوجة وطالق حديثا. تعيش مع والدها ولها أخ متزوج يعمل إطارا في العاصمة.

أكد لنفسه أنها أكثر واحدة تناسبه، وبما أنها مطلقة فهي لن تطالبه بشيء. ورأى أن يوقظ فيها لهفتها إلى الحب والإشباع حتى تصبح ملك يده. متصورا أن معاشرتها لزوجها مدة من الزمن ثم غياب هذا الأخير أشعل فيها جذوة لا يمكن نسيانها بسهولة. وعسى أن تعمر هذه العلاقة طويلا فيتجاوز لهفته إلى النساء وسعيه المحموم خلفهن.

عمل على حسم أمره معها، فسألها ذات مرة في مكتبه:

- هل ترحبين بعمل إضافي إلى جانب عملك هنا؟

حينها واجهته بنظرة مرتابة. وهتفت تسأل مستفسرة:

- أين؟

تابع فقال في ارتباك بينما عيناه معلقتان على صدرها العامر:

- عندي في البيت..

بان عليها الغضب لكنها لم تتجاوز حدودها، واكتفت بأن سألته متوجسة:

- وماذا أعمل هناك؟

قال يواجه شكوكها:

- أحتاج إلى مساعد يتقن الكمبيوتر لأجل نسخ مسودات بحث أنا بصدد الإعداد له. كما سيكون الأمر مناسبا لتقدمي لي دروسا مساعدة في الإعلام الآلي الذي أكاد لا أفقه فيه شيئا. فما رأيك؟

تجلى في نظرها احترام مشوب بقلق. وقالت:

- سأفكر في الموضوع..

وكان في قبضة غريزته عندما قال يحسم الأمر وينقل في ضربة واحدة الكرة إلى ملعبها:

- سأنتظرك هذا المساء. فأرجو ألا تخيبي ظني..

- 4 -

عندما فتح لها الباب أول مرة لم يجد أمامه مـــا كـــان يتوقعـــه بالضبط. فهذه الفتاة كانت قد حضرت كما التقى بها صباح ذلـــك اليوم في العمل. بدون مساحيق أو أي تأنق. حتى أنه شـــك في أنهـــا وقفت أمام المرآة قبل مجيئها بعكس كل النساء اللواتي زرنه في بيته.

دعاها لتتفضل. لكنها لم تنس عندما تخطت عتبة شقته أن تنبهه قائلة:

- لولا ثقتي بك وحاجتك إلى المساعدة لما جازفت بالحضور.

سألها وهو يسترق إليها النظر:

- وكأن هناك ما تخشينه!

- لست أخشى شيئا، وإنما أسعى إلى الحفاظ على كرامتي.

ردت عليه بكلمات ظهرت وكأنها تصدر من آلة حتى جعلتـــه يرتاب فيما يريده منها. وزاد وجسه فتساءل مرة أخرى جادا:

- وهل هناك من يمكنه أن يطعن في كرامتك؟

- لا تنس أني الآن مع رجل غريب وفي بيته!

- ولكنك هنا لأجل العمل!

- هذا ما لا يمكن أن يقوله سواك..

لأول مرة يجعله أحدهم يشعر بالخوف والتراخي. لذلك قـــرر التمهل والتماس أضمن السبل إليها، كما قدر عدم التسرع والتـــهور

مدركا خطورتهما. خصوصا وأنه لم يبدر منها ما يشي بغير رغبتها في العمل. واكتفى بأن راقبها عن بعد. ولم يسع للاقتراب منها أو تأجيج شكوكها محاولا جهده أن يمنحها أكبر قدر من الثقة والأمان. وظلت الأيام على حالها فلم تحمل له أي جديد يذكر. وأدرك أنه تسرع وتورط معها. وبات يتساءل كيف يتجاوز آخر عقبة إليها. وتصور أن الأمر طال كثيرا عندما طلب منها الجلوس إلى جانبه. تذرع بحجة أنه يود أن يطلعها على فقرة ما كانت هناك على الورق أمامه. حتى إذا ما تقدمت بما يسمح سحبها نحوه فوقعت بين أحضانه. وفي حركة خاطفة سرق منها قبلة قدَّر بعدها أن تستسلم له. لكنها حملت بذراعيها أمامها وراحت تصد هجومه مظهرة تصميما حقيقيا في الدفاع عن نفسها كما وشت نظراتها باحتقار مشوب بغضب أمرد.

توترت أعصابه تحت قوة إصرارها في صده والدفاع عن نفسها. واندفع من جديد يعيد الهجوم غير معترف بالهزيمة. وأقبل عليها في جنون عاصف ورغبة محمومة لم يقدر على لجمها أكثر مما فعل وكأنه أصيب بلوثة خبيثة استشرت في دمه. فإما الفوز بها وإما الكارثة الماحقة، وكلاهما خير من الانتظار وقضم الأظافر. لكنه وبعد كل محاولاته عاد واعترف بالهزيمة وأذعن لمشيئتها، وهو يدرك كم تورط معها.

أدرك أيضا أنه جر على نفسه متاعب كان في غنى عنها. وبعد مغادرتها عاتب نفسه. وقال إن ما كان بينهما من ود انهار لحظة حاول العبث بها. وخمن كيف يقابلها بعد ذلك. وفكر ماذا يفعل حتى أعياه الفكر وأعيته الحيلة. وتوقع أنها النهاية!

- 5 -

الفتاة فلقة من ضوء القمر المنير. وهي تحبك وتسكن آلامــك وجراحك في الليل الطويل، ليل الظلمة والخوف والقلق والآلام. تقبل عليك في براءة ونقاء وتمنحك نفسها في رضا وبسخاء. ولا ترجــو منك إلا الوفاء، فتسايرها وتهادنها في سبيل مأرب شخصي تفوز به. لكن إلى متى يستمر هذا الحال؟

لتعترف أن النفاق والاستغلال يجريان في دمك، وأنه لا فــرق بينك وبين أي انتهازي يشغل منصبه ليفوز بعطايا ليست من حقه.

لتعترف أنك ذئب في مسوح راهب وأسد من فصيلة المفترسين وبركان ينفس عن نفسه ولا يرحم..

كنت كمن كان غافيا واستيقظ. على دم ملوث أخذ يجري عبر عروقه. إن هناك ما يعصر مني القلب وبشدة ويضغط على صــدغي ويسبب لي صداعا فظيعا.

ها أنا أشعر بثقل يتشكل هناك في العمــق وبرغبــة ملحــة في البكاء. ثم ها هو صوت أشبه بصوت الضمير ينطلق مــن داخلــي، ينطق ويقول: "شهواني، داعر، فاسق كبير، فاجر زان، عربيد ماجن، وغير ذلك فأنت لا تساوي نكلة!".(*)

(*) في هذا النص ما هو مضمر. عبد القادر هنا لا يتحــدث عــن إيمــان صراحة. وكأننا نلمس شيئا مواربا، أمر يرغب في كتمانه بشدة. فهــل كان يخجل من مشاعره ويحاول مداراتها؟ ربما إذا كان يشعر أن هــذه المشاعر تخصه وحده وليس مجبرا على التصريح بها.

- 6 -

لم يكن قادرا على أن يمنع ويكبح جموح روحه المتعطشة إلى النساء، أو يقنع نفسه بعدم السعي إليهن. وكان يقول لنفسه أنه ككل الرجال سيظل بحاجة إلى امرأة يفرغ في أحضانها شهوته وكبته وتوتراته.

كان إذا ما استبدت به وطأة الوحدة يشرع في التقاط واحدة سهلة، وأول من تفتح ذراعيها له. وقد صار يصادفهن كثيرا بحكم مركزه. معتبرا دوافعهن إليه لن تعد إلا مطمعا في ترقية أو مال أو شهرة أو حظوة. لكن كذلك كان هناك ما يخشاه..

كان يمكن أن يشهرن به، فكان يتوخى الحذر في اختياراته ويتردد كثيرا في صيده. ولا يدعوهن إلى بيته إلا بعدما يوحين إليه بالأمان. فإذا ما اكتشف أنه أخطأ في الاختيار يصرفهن أو يتجنبهن حتى قبل أي اتصال بينهما. فيما راح يحتفظ بأرقام هواتف البعض ممن اطمأن إليهن وصرن لديه أهل ثقة فيطلبهن عند الحاجة. منتبها أن يباعد بين اتصال وآخر، مخافة أن تتعلق به إحداهن فتطارده حتى توجع له رأسه. وليس معنى هذا أنه كان راضيا أو سعيدا بما يحدث معه. فقد كانت تعبره لحظات يكره فيها نفسه تماما. مؤمنا أنه بذلك يتصرف عكس مبادئه وما يؤمن به، خصوصا عندما يضطر إلى التلاعب بمشاعر نساء عشقنه فعلا.

كان يقول لنفسه: "ما من سبيل آخر، وما من حيلة!". وكالمغلوب على أمره تجده يضطر إلى أن يساير بعضهن ممن كن أكثر عنادا ولا يرغبن في السقوط فيجعل من فكرة الزواج هدفا تنتهي إليه علاقته بهن. وفي سبيل ذلك كن يمنحنه ما يشاء. حتى إذا عدن وطالبنه بوعده شعر بفداحة ما تورط فيه. وكان كذلك يدور في حلقة مفرغة..

- 7 -

بعد تلك الواقعة في بيته ورَدِ فِعل إيمان غير المتوقع حَسم أمره. قال إنه عليه أن ينكرها ويزيحها من تفكيره واهتمامه إلى حين، لكنه عاد فتساءل ماذا لو طلع منها كـلام في الشـغل؟.. أي فضـيحة ستتسبب له فيها هناك؟.. ثم بأي وجه سيلقى المستخدمين وزمـلاءه بعد ذلك؟

جزع لما تصورها قادرة أن تلحق به الأذى في العمل. وأدرك أنه سيقضي ليلة ثقيلة مشبعة بكوابيس مزعجة، هذا إذا ما قـدر علـى النوم أصلا. وفي صباح الغد قرر المرور بمكتبها. ألقى تحيتـه وكـأن شيئا لم يكن. ووجدها ترد على تحيته بابتسامتها المعهـودة وبتحيـة أحسن منها فانشرح فؤاده وزايلته وساوسه إلى حين. لكنـه عـاد فتساءل هل تكون نسيت ما حدث بينهما أم أنها الآن مع صـاحباتها يتندرن بقصتها معه ويسخرن منه؟ ولم يلبث أن اختلق حجة وطلبها إلى مكتبه. وما إن وقفت أمامه حتى بادر إلى الاعتذار. لكنها قالـت في صوت لا يحمل أي ضغينة:

- تلك كانت غلطتي، وما كان يجب علي الحضور إلى بيـت رجل غريب.

رغب عن ذلك الحديث الذي يشعره بالذنب. وأمـام محاسـن جسدها راح يعترف:

- لكني أريد أن أعترف لك بمشاعري اتجاهك. لقد اكتشفت أني أحبك..

وعلى غير ما توقع وجد أن تصريحه لم يؤثر فيها. قالت له في نغمة جادة ودون أن تفقد رباطة جأشها:

- للحب مسلك واحد صريح!
- ماذا تقصدين؟
- أعني الزواج..

ذهل للمفاجأة غير المتوقعة. ثم أسف للأثر الذي انطبع على الفتاة وهي تلحظ ما طرأ عليه من تغير وانزعاج. وقال ينتشل نفسه من وضع الغريق:

- تماما؛ سيكون النهاية الطبيعية لكل علاقة حب!

لكنها عادت تقاطعه من جديد. هذه المرة قالت في سخرية واضحة:

- تربيت أنا على أن الزواج هو بداية للحب وليس خاتمته.
- كنت أعني أن الزواج تتويج له!
- ليس بالضرورة. كما أني واثقة أن أمك تزوجت والدك وعاشرته دون حاجتهم لحب مسبق.

حينها فكر أن يقول لها إنه بدوره يعرف حالات من الحب قتلها الزواج، وأنه خير صورة على ذلك، لكنه أحجم عن تلك الطريقة في الحديث. فهي لم تكن لتؤدي الغرض المنشود، بل بالعكس كانت ستزيد في توتر الأجواء وتأجيج نار الصراع بينهما. وهو لم يكن مستعدا ليخسرها تحت أي ظرف بعد تجاوبها المدهش مع ما حدث له معها.

وجد نفسه ينتهج خطة جديدة لم يدر كيف خطرت على باله، فكأنه كان على سابق معرفة بها مثل أي فكرة جديرة بنفسها تظل مركونة في مكان ما من الدماغ حتى إذا وجد المرء نفسه عالقا أمام مأزق طارئ ظهرت فجأة تكشف عن نفسها، وحلت لتنقذه وتنتشله من ورطته والضياع في اللحظة المناسبة. وفكر المهم أن يخرج رابحا. وقال لها هذه المرة في تسليم:

- كوني على ثقة أن زواجنا بات منذ اللحظة أمرا محسوما..

وهتفت غير مصدقة:

- هل تعني حقا ما تقول؟

لكنه عاد فقال في حذر وحيطة:

- فقط أرجو أن تمنحيني بعض الوقت لأرتب شؤوني، ثم أتفرغ لأمر زواجنا.

هل حقا كان يقصد كل كلمة قالها؟.. لقد تهلل وجه الفتاة بفرح طاغ لم تستطع مغالبته أو مداراته. وراحت من نشوتها تقول ممتنة:

- ستجدني حينها في انتظارك..

وكالحَدَّاد الذي عليه أن يضرب قطعة الحديد متى كانت ساخنة عاد فقال يسألها:

- لكن هل ستحضرين اليوم في الموعد؟

ثم راح يعزف على أوتار خفية لا يعرفها غيره فأظهر لها أهميتها والدور الخطير الذي باتت تلعبه في حياته الراهنة:

- لا يمكنني أن أتخلى عنك بعدما أظهرت لي كفاءة في العمل إلى جانب أني اعتدت التعامل معك. ثم إن تخليت عني في

هذه الفترة سيضعف تركيزي وسأضطر للتوقف عن إتمام مشروعي..

ارتبكت أمام كلماته، وحارت ماذا تقول، وبدت كالمستسلمة عندما أعلنت:

- سوف تجدني إلى جانبك متى احتجتني.

هكذا قالت أخيرا مبدية بعض اللين. وظلت نفسه قلقة بلا مستقر وأما عقله فغشيه الاضطراب. وها هو يقتات من هواجسه القديمة فكأنه لم يصدق بعد الذي حصل بينهما قبل لحظات. وفي المساء عاد من المسرح إلى بيته رأسا ينتظرها. وعاش لحظات ثقيلة ومحرجة مارس خلالها الصبر والعناد ثم اللعنة. وكم اعتبر نفسه محظوظا عندما وجدها تدق باب شقته أخيرا..

- فكرتُ ألا دخل للعمل في ما حدث بيننا، وجئت لأجله على أن أعود سريعا..

في تلك المرة هجم عليها كأسد جائع يقع على فريسة سهلة. التصق بها تحت قوة دافعة لا سيطرة له عليها. جذبها نحوه. وحاول عبور حدود الضيق والقلق والتوجس والكدر والزمان والمكان وكل شيء.. حتى صرخت في وجهه فزعة:

- أرجوك، أنا لا أمارس هذه القذارة. هذا غير ممكن. لنؤجل ذلك إلى ما بعد زواجنا!

لم يهتم لكلماتها. وبدأ بملامستها ومداعبتها متوقعا أن تتفتح شهيتها للوصال بمجرد الاحتكاك بها في مواضع الإحساس، لكنها ظلت رغم كل محاولاته وجهده متوترة ومتقلصة. عندها لم يجد بدا من أن يقول لها بالحرف الواحد:

- ما دامت هذه رغبتك فلن أقربك ثانية، ولن أغصبك على شيء لا تريدينه!

أشعرها نبرته أن الأمر على هذا الوجه لا يسلم أيضا. إن استجابته لرغبتها ما هو إلا تجاوز وقفز على رغبته هو. وبدا لها أنه منزعج رغم الحسم الذي أبداه. حتى سألته متخوفة:

- هل أنت غاضب حقا!

لم يشأ أن يرد عليها، كذلك عادت ملامحه لتذكرها برغبته وقد اكتست - في هذه الحالة- بالغضب والأسف والانكسار. فكان أن دفع بها لأول مرة إلى الحيرة والتردد، ثم الاستسلام والإذعان له ما دامت الأمور ستسير بهما إلى الزواج لا محالة.(*)

(*) لا أدري، لعلي أكون قد تجاوزت قليلا فصرت أكتب عن رغباتي الملجومة والتي لم أعشها!.. والواقع أني لا أزال أقف أمام حالتي مندهشا ومستغربا، وأسأل عن هذا الذي كان يمنعني من أن أقرب الخمر والنساء ومختلف ملذات الحياة الأخرى.. وكأن شخصية عبد القادر هنا لا تكاد تشبهني في شيء، أو أني كنت أتصرف عكسها تماما. ثم هل يكون الواعز الديني والذي لقنته خلال حياتي السبب؟.. فقد حفظت القرآن منذ صباي، وكنت أرتاد المسجد على سن مبكرة. ورغم بعده النسبي عن مسكننا فقد كنت أؤدي فيه الصلوات جميعها بما فيها صلاة الفجر. لبست كذلك اللباس الأفغاني، كما استعملت السواك وتمنيت لو تنبت لي لحية قريبا. واستمتعت بالسماع إلى مختلف الأسطوانات الدينية والتي لا حديث لها إلا عن الحساب والعقاب وعذاب القبر والاحتراق في نار الجحيم، كذلك لا أزال أذكر أن عمي كان سكيرا، وأبي مدخنا شرها، وخالي ضُبط متلبسا بفعل الزنا، وجدي من أمي مزواجا وجدي من والدي نقابيا وسياسيا فاشلا..

لم أكن أملك جرأته قط. وربما هذا ما يشكل الفارق بيني وبين عبد القادر. كذلك لطالما اعتقدت أن الفارق بين من يدعي تخلقه وسواه هو

....

في مقدار الجرأة عند كليهما. ولا زلت أعتقد أن الالتزام الأخلاقي مرده غالبا الضعف والانكفاء، أو كأني كنت فقط أشبه حالنا اليوم. فنحن أكثر الشعوب ورعا في العلن وأكثرها فسقا في الخفاء.. ثم هل يهم الأمر حقا؟!

الآن أنا واقع تحت سطوة غواية الكتابة، ومع ذلك لا أدري هل كنت أنطلق من عبد القادر لأنتهي إليّ أم العكس. أنطلق مني لأتحدث عنه. وفي حيرتي هذه أعي تماما أنه ليس لي إلا أن أواصل الدوران في هذه المتاهة. أقصد أن أواصل كتابة هذه الرواية.

- 8 -

تعلمت إيمان كيف تتقبل الأمر على عِلته. وراحت تستسلم له في غالب الأحيان دونما إزعاج يذكر، اللهم إلا ما كانت تظهره من رفض لين وفتور هما نتيجة خجل لم تتخلص منه بعد.

كان ذلك يمنحها الفرصة لأن تهيئ له نفسها؛ بينما تظل رغبتها لابثة هناك في أعماقها لا تسمح لها بالظهور أو أن تسيطر عليهـــا. ثم أليست المرأة دائما أشبه بقطعة سكر في فنجان قهوة لها أن تنتظر حتى تحركها يد ماهرة لتطرح حلاوتها..

كانت تتخلص من ملابسها متفاجئة بعريها. لتسرع إلى الفراش فتدخل تحته، وهناك فقط يمكنها أن تستسلم له. حتى إذا ما أخـــذ في الاندفاع وجدت نفسها خاضعة له وتناست ذلك الإحساس المـــذل والمخجل، ولا تعود تغمرها إلا سعادة وسكرة لم تعرفها في زواجها حيث كان ممنوع عليها أن تظهر أي متعة مع زوج لم يكن مقـــدِرا و لم يكن يهتم حين يقبل عليها إلا بتصريف شهوته.

في هذه المرة، وعندما خارت قواه وكف أخـــيرا عـــن عبثـــه. استرخى عبد القادر وتمطى على جانبها. لم ينتبه إليها إلا وهي تبكي وتخنقها العبرات.

كانت عيناها مبللتين بالدمع ومحمرتين كعـــين أرنـــب بـــري محاصر. ووجد نفسه ينظر إليها في استغراب ودهشة. وبدا كبليد لا

يفقه ما يحدث أمامه عندما أخذت تضربه بقبضتيها علـــى صـــدره، وتصرخ:

- أظنك من فاز أخيرا. أظنك تفوز دائمـــا. لقـــد حققـــت مرادك، وإنك تلهو بـــي.. إنك تلهو بـــي ما دمت تراني واحدة من اللواتي تعتقد..

المزمور الخامس

فِتنة

- 1 -

أمام المرآة ألقى عبد القادر على نفسه نظرة أخيرة(*). وعندما اطمأن نزل إلى السيد بلحوسين الذي كان ينتظره داخل سيارته بيجو 405.

لم يكن يرتاح لهذا الجو من الحفلات. فهي برأيه تُعقد في الغالب لأمور مشبوهة لا علاقة لها بالفن، والذي يجده في كل مرة قناعا لمآرب أخرى. وعند وصولهما وجدا صالة الحفلة غاصة بالمدعوين. وبدت القاعة كبيرة ومتوجة بالزينة وبالأضواء الملونة،

(*) لم ألتق به في حياته، لكني رأيت صورا له منشورة كما شاهدته في بعض المسرحيات المسجلة والأفلام التي شارك فيها. وحاولت اعتمادا على ذلك أن أقدم وصفا له يتضمن مظهره وشكله. سوّدت العشرات من الصفحات، لكنني لم أرض عن أي وصف قدمته فيه. واقتنعت أخيرا أن لا سبيل لي غير نشر هذا النص الذي يصفه وقد تضمنته مذكراته. وهو على لسان عاشقة مولهة:
"هل يمكنك العودة والمجيء؟
أريدك كما كنت أشتهيك دوما..
بسترتك الجلدية السوداء، وسروال الجينز، والقميص السماوي المفتوح على مستوى الصدر.
بشعرك المفلفل، وعينيك السوداوين، ووجهك غير المحلوق في إهمال.
بنفس بساطتك وعفويتك وابتسامتك!"
للأمانة النص مع نصوص أخرى عديدة يصلح أن يصدر في مجموعة شعرية مستقلة.

والجو مرحا تصدح فيه موسيقى راقصة. كما تم مراعاة أدق التفاصيل، فأقيمت موائد طويلة عليها أصناف فاخرة من المأكولات، وأعد مشرب كبير ضم كافة المشروبات حلالها وحرامها. وظهر الرجال ببدلات أنيقة، وارتدت النسوة أجمل ما لديهن من ملابس السهرات فكن متألقات كنجمات السينما. كذلك توافدت على الحفل شخصيات لا تمت إلى الفن بصلة، ولم يبال البعض فاصطحب معه جميلات مكشوفات سافرات لا مباليات تجدهن كلما نظرت إليهن يضحكن..

ودعي إلى مجموعة ضمت نخبة من المثقفين. ووسط جمع من الصحفيين والأدباء والفنانين رفعت الأنخاب عاليا واحتسيت الكؤوس على شرفه. وتوافد ضيوف جدد. وصافح أناس يعرفهم وآخرون لم تربطه بهم سابق معرفة. وضج المكان بالحديث وشاع المرح. وروى البعض نوادرهم على الملأ وتبادل آخرون نكت داعرة وضجوا بالضحك. وأيقن بما لا يدع مجالا للشك أنه وسط مكان لا يمت إلى الثقافة بصلة. وكأن الحفل مفتعل، والغرض منه تدشين هذا المرقص الذي دعيت إليه وجوه المدينة المعروفة لتتم له الدعاية المناسبة باسم الثقافة والمثقفين.

انتحى جانبا رفقة السيد بلحوسين. ووقفا بعيدا يتابعان ما يجري حولهما بضيق وبرم. ولم يلبث أن أقبل عليهما السيد "بلعور" مدير الثقافة بالولاية يرحب بهما. وكان السيد بلعور متميزا كعادته بشعره الطويل المرسل خلفه وشاربه المستقيم المدبب. وهو أحد أعضاء فرقة الموجة الزرقاء الموسيقية وعازف على القيثار. وفي وقت سابق شغل منصب مدير لمهرجان الأغنية الشبابية قبل أن يتوقف

نشاط المهرجان بسبب الأحوال الأمنية المتدهورة. أما المنصب الذي يشغله اليوم فلقد رشح إليه عبد القادر قبله لكنه رفضه. وقد سأل بلعور ذات مرة عبد القادر كيف أمكنه أن يرفض منصبا كان سيتيح له امتيازات عديدة وسلطة كبيرة؟ فرد عليه حينها وقال له: "هذا المنصب خلق لأصحاب الأنفس الهامدة، وأنا لست منهم!". ولم يهضم هذا الأخير جملته بعدما وجد فيها إساءة تمس شخصه، ومن يومها والتيار لا يمر بينهما..

وفي عرض حديث عام سأل بلعور عبد القادر قائلا:

- ما مشكلتك مع وزيرنا؟

تعجب عبد القادر من كلامه، وهتف مرتابا:

- ومن يتحدث عن مشاكل لي معه!

وواصل بلعور على نفس النبرة:

- لكني سمعت أن ما حدث في تونس لم يرقه.

حينها حسم عبد القادر أمره ورد عليه قاطعا الطريق أمامه دون أن يبدي أي امتعاض:

- هذا من شأنه، وحري بك أن تُوَّجه سؤالك إلى السيد الوزير، لا إلي أنا!

استفز الجواب المدير الذي قرر عدم الصمت ومواصلة لعبته إلى أبعد حد..

- هناك شائعة تقول أن الجائزة لم تحصل عليها إلا بعد تدخله مباشرة..

كانت الكلمات الأخيرة تحمل استفزازا واضحا ومقصودا. لكن عبد القادر رد على محاوره ببرودة وذكاء:

- ماذا تعني؟ هل تريد إهانتي بهذا الكلام، أم تتقصد الإساءة والطعن في نزاهة معالي الوزير؟

وجعلت كلمات عبد القادر الأخيرة بلعور يهتف في اختناق ويقول:

- أنا لا أعني أي شيء بالضرورة..
- وأنا لا أهتم مطلقا بما تعنيه.

كانت ضربة قاضية عجلت بوضع حد للكلام في الموضوع. وغير بلعور مجرى الحديث. وسأل عبد القادر وهو يشير إلى ما هو حوله متباهيا:

- ما رأيك بجو الحفلة؟

كان هذا السؤال النقطة التي أفاضت الكأس. لم يقدر عبد القادر هذه المرة أن يتمالك نفسه أو يضبط أعصابه، وقال في انفعال حاد:

- ولكن أين هي هذه الحفلة؟ نحن في ملهى ليلي ليس أكثر. ثم اسمح لي أن أسألك كم قبضت من وراء هذه الصفقة؟

ذُهل بلعور حتى فغر فاه..

- ماذا تعني؟
- ذلك الذي عنّ على بالك تماما!

استفز هذا الكلام المدير الذي وجد كلامه صادما فبان عليه الغضب بدوره..

- لا تكن جلفا سيئا إلى هذه الدرجة، وتقابل تكريمي لك بهذه الفجاجة. إنك تجعلني أندم أنك كنت ضيف الشرف هنا!

ورد عليه عبد القادر بلا أسف:

- ليتك تندم حتى لا تفكر في دعوتي مرة أخرى إلى شيء مريب كهذا!
- لا بد أن الحفلة لم ترقك..
- ولا بد أنها تعجبك أنت..
- نعم، إنها تعجبني ما دام صرف عليها الكثير..

ودارت الدائرة. وعمد عبد القادر على استفزاز مديره عندما سأله:

- لكن هيا، أسر إلي وأخبرني في أي خانة قيَّدت نفقاتها؟

ولم يتحمل بلعور كل هذه الضربات الموجعة، وصار ينفث في غيظ ويقول:

- أتشكك كذلك في سوء تسييري، أنت تتعمد إثارتي!

وتدخل بلحوسين يلطف الأجواء المحتدمة. وقال يخاطب كليهما:

- ما هكذا يجب أن يكون أصحاب المهنة الواحدة؟

ثم التفت إلى السيد بلعور قائلا:

- لا بد أن عبد القادر لا يقصد ما قاله. ولا بد أن يكون مزاجك سيدي المدير معتلا قليلا حتى تغضب بهذا الشكل غير المبرر. ما بكما؟ وكأنكما نسيتما أنكما في فرح!

تقدم عبد القادر على إثر ذلك منصرفا عن الجمع، ثم ما لبث أن لحق به السيد بلحوسين، وهو يقول:

- أرى أن الخط لا يمر بينك وبينه وليس بينك وبين الوزير!

حينها رد عليه عبد القادر موثقا كل كلمة يقولها ويشد عليها:

- الخط لا يمر أبدا بين المثقفين وأشباه المثقفين، وأمثـــالهم أن تحتقرهم أفضل.
- ولكنك أول واحد يعرف ماذا تطول أيديهم وكـــم هـــم نافذون. فهم يشغلون دوما أعلى المناصب..

لم يكن عبد القادر ليختلف مع السيد بلحوسين حـــول هـــذه النقطة، لكنه أيضا كان يعي أمرا آخر، لهذا قال له مؤكدا:

- إنهم لن يقدروا أن يضروك ما دامـــوا في حاجـــة إليـــك. وسيظلون يتملقونك رغم كل شيء لأنهـــم في قـــراراتهم يخشونك ويعرفون قيمة أنفسهم جيدا..

– 2 –

انشغل عبد القادر بمتابعة بعض أجواء الحفل وإن على مضض. كان يفكر أن يمكث قليلا قبل أن ينسحب. إنه وإن ساءه الوضع لا يريد أن يجلب الانتباه إليه في حفل أقيم على شرفه، ويُشعِر بعض من هم هنا بسببه بانزعاجه وضيقه. وعلى حين غرة انتبه إلى جميلة – وكان على سابق معرفة بها– تدخل في صحبة رجل ضخم مهندم يدخن سيجارا ويسير بخيلاء كالأمراء. وإنَّ أخبارها قد انقطعت عنه منذ مدة طويلة؛ ولا بد أنها تعيش زواجا آخر مثيرا!

كانت هذه السيدة ابنة أحد أكبر الصناعيين الجزائريين. ورغم حداثة سنها فقد تولت إدارة أعمال والدها، وكانت معروفة على صعيد المال والأعمال. استغلت أيام الانفتاح الأولى وأسست لنفسها مجموعة كبيرة من المشاريع الخاصة. يقصدها الجميع ويخطب ودها كل من يريد عملا أو يطمح في صفقة أو واسطة بما لها من علاقات وامتيازات. انتقلت من زوج إلى آخر كما انتقلت بين عمل وآخر. والغريب أن زوجته هي من قدَّمها إليه عندما كانت صاحبة أكبر أستوديو لإنتاج الأغاني والأشرطة. وما لبث أن لفتَ انتباهها وأبدتْ إعجابها الشديد به. أخبرته مرة أن الجميع يتقرب منها بحكم مركزها ولأجل مالها، أما الذين لا يحفلون بهكذا غايات لا تجدهم ينتبهون إليها، ولهذا فهي دائما ما تكون وحيدة. حكت له عن زيجاتها غير

الموفقة. وقالت له إن زوجتك لا بد أن تكون أسعد امرأة على وجه الأرض ما دمت أنت زوجها. كما هاتفته آخر مرة في مكتبه وسألته هل يمكنه أن يمر عليها في "فيلتها" بحي النخيل لأمر طارئ وخــاص. وفي بيتها وعندما تبدت له في كامل مفاتنها، قال لها بالحرف الواحد: "جميلة، أنا رجل متزوج ورب أسرة!"؛ فأفحمها وجعلها تقف أمامه في موقف مذل وكدجاجة منتوفة الريش، هي التي لم يتجرأ رجل قبله أن يرفض لها طلبا.

الآن أكثر من سنة كاملة تفصل عن آخر لقاء جمع بينــهما. وإن كان هو من سعى إلى تجنبها لأسباب لم تعد موجودة اليوم. وأمــل أن تعود الأيام الخوالي. لكن كيف لها أن تنسى ما لحقها على يديه من أذية وعار. ورغب أن يجتمع بها ولو لدقيقة. بل فكر في لحظــة مجنونــة أن يقتحم عليها طاولتها. يضع سكينتها ويقف أمامها معتذرا، فتعود الأيام إلى سابق عهدها وكأن شيئا لم يحدث. ثم تعلق نظره بالسيد الذي جــاء في صحبتها. وتساءل منزعجا: "هل يكون عريسا جديدا؟"..

قامت وهي تجلس إلى طاولتها بنزع معطفها. وتكشفت لــه في فستان السهرة الذهبــي بصورة أبهى وبما لم يخطر له علــى بــال. وحدث نفسه، من قال إنها سيدة في الأربعين؟.. وبل إنها في رشــاقة وخفة وجمال وأناقة فتاة في العشرين، لكن كيف السبيل إليها الآن؟

تملكته الحسرة وأسف لما فعله بها. وود من قلبه لو يعود حبل ما انفرط. وفي هذا الجو وفي ظل إحساسه بالضيق والكدر لم يجد مــا يفعله غير متابعة حركاتها وسكناتها. وبدا منشغلا بها إلى الحد الــذي جعل فيه السيد بلحوسين ينتبه إليه.

سأله بلحوسين:

- هل تعرف جميلة؟

وأجابه عبد القادر ببعض الارتباك:

- كانت لي فيما مضى معرفة بسيطة بها..

و لم تفت المدير نظرات صاحبه إليها لهذا عاد فقال:

- لكن من يلمح نظراتك إليها يقول أنها لم تكن أقل من عشيقة سابقة!

لكن عبد القادر راح يفند مزاعم صاحبه، ويقول:

- وهل تتصورها ترضى بواحد مثلي!

وأمام كلماته لم يكن أمام الأخير إلا أن يعترف:

- إنها لن ترض بأقل من الذي يجلس إلى جانبها..

- هل تعرف السيد؟

- إنه السيد "كِبيرْ"وهو أحد النافذين في إدارة الجمارك..

أخيرا انتبهت إليه. نفحته ببعض النظرات و لم تنكره. وعندما قام السيد النافذ في إدارة الجمارك لحاجة وجدها تبتسم له في دلال وترحيب، حتى عجب لأمرها. وفي حركة مباغتة حملت بيدها ولوحت له. لكنه تشرب إشارتها بقلق ووجف قلبه وحار ماذا يفعل. أيتقدم إليها أم يلبث مكانه؟.. ثم بأي صفة يلقاها، وكيف يمكنه أن يخاطبها، وماذا لو عاد السيد ثانية!

ما حدث بعد ذلك لم يدر بخلده أبدا. تقدم إليه أحد السعاة، وأخبره أن السيدة التي تجلس هناك – وكان يشير إليها- تطلب منك أن توافيها إلى طاولتها..

التقط أنفاسه في عسر. ومن شدة المفاجأة تبلبل في مكانه وبدا كأخرق. وحاول أن يضبط أعصابه ومشاعره. ثم ابتسم إلى السيد

بلحوسين واستسمحه مستأذنا. وخطا إلى طاولتها وبطنه يقرقر. كما أخذ قلبه يدق بعنف كمقبل على خطب جلل.

شد على يدها الممدودة إليه برقة ورحب بها في أدب. وعندما جلس إلى طاولتها، قالت له بالحرف الواحد:

- إنه من دواعي سروري أن أراك هنا..

رد عبد القادر عليها بلباقة وبصوت مثقل بالحرج، قائلا:

- أنا كذلك ممتن لهذه الصدفة السعيدة التي جمعتنا ثانية..

تبادلا الكلام وفي خضم الحديث أبدى إعجابه الشديد بها وبأناقتها وجمالها. وسألها عن سبب مقاطعتها له، فهو لم يرها منذ فترة طويلة. وأدركت أنه يلعب بالألفاظ ويقفز على الحقائق ويشوه الوقائع، لكنها جارته وأخبرته أنها لا تكون إلا منشغلة. وإنها أمضت حوالي ستة أشهر في باريس، وحوالي مثلها في العاصمة. وهي الآن هنا لتدشين هذا المركب المهم. ومن خلال حديثها استشف أنها لم ترتبط طول هذه الفترة. وفاجأته عندما أعلنت تقول:

- وأنا شريكة هنا بالنصف مع السيد الذي رأيتني أدخل في صحبته..

لم يخنه حدسه، وبحكم خبرته ما عادت تنطلي عليه حيلهم. إن الأمر وفق ما تصوره تماما. وأعقب ذلك إحساس بالرضا جاوز إحساسه بالكدر. وقامت جميلة فسلمت على أحدهم بعدما اقترب من طاولتها، بينما قالت تعلق بعد أن غادر:

- إنه مقاول. وهو يهتم بي ويتودد إلي في الآونة الأخيرة؛ وأظن أني سوف أقرصه..

- على ذلك كان يجب دعوته إلى مجالستك!

- كنتَ حينها ستجدها فرصة مواتية للانسحاب. أعرف طبعك. على كل إنه رجل طموح. ولهذا ستجده ولو بعد عام ينتظر لفتة مني..
- هل هكذا تنظرين إلى طلبات الزواج؟
- حتى لا يحصل وأخرج منها بما يؤلمني تعلمت كيف أراها مجرد صفقة. مجبرة صديقتك.
- بعيدا عن العواطف والحب أشك أنه سيستمر..
- هل هذا ما تعتقده؟.. أنا أعرف زيجات كثيرة مستمرة ولا يهددها شيء ما دامت مصالح الطرفين مستمرة.
- وإذا ما كتب وانفرطت؟
- لا أحد يفكر في الخسارة، كما لا أحد يسعى للإضرار بمصالحه، بخلاف الحب فإنه يمكن أن يكون مطية لأشياء أخرى.

هل كانت حينها تشير إليه أو تقصد شيئا محددا؟ أم أن ما قالته هو منطقها وفلسفتها في الحياة؟.. هل كانت تعني أنها وبرغم زيجاتها المتعددة ليس هناك ما يؤلمها، بينما لا يزال هو يشهد آثار طلاقه على نفسه؟.. خمن لكنه كان بلا بوصلة و لم يعرف كيف يدري..

وسألها لكن بلا دافع، بل لمجرد الكلام:

- وهل تعتقدين أنك جنيت من زيجاتك ما يمثل القيمة؟
- يمكنك أن تعتبرهم من ربح في الأخير عندما حققوا أحلامهم على حسابي. كنتُ دوما صك عبورهم إلى الضفة الأخرى.

ثم ساد الصمت للحظة. وخرقته وهي تقول بنفس مرحة:

- لكن ألا تفكر أنت في الزواج؟

ودون أن يهتم بالجواب على سؤالها، رد عليها يقول:

- إذا كنتِ أنت في حُكم المتزوجة، فأخبريني ماذا وجدت فيه!.. وإذا كنت غير متزوجة فأخبريني كيف تطيقين الأمر؟

وردت عليه في سخرية:

- إني أتنقل بين الزواج والطلاق، لكن دون توفيق حقيقي. وكلتا الحالتين علقم، فالرجال سواء..
- انتبهي إلى أنك تضعينني معهم في سلة واحدة!
- وكيف أفعل وأنت رجل مثلهم!.. لكن لتتابع معي. ماذا سيحدث لو جمعنا بين رجل وامرأة معقدين من فكرة الزواج كمثلي ومثلك!
- المثل يقول "الطيور على أشكالها تقع".
- وأنا على عكسك تماما، أكاد أجزم أن الزواج في تلك الحالة يمكنه أن يصمد أكثر فهو سيكرس توافقا يجمع بين ثنائية العمل والفن مثلا.

ابتسم من كلامها الأخير وهو يخمن كم هي جادة في عرضها؟ وقطع عليهما حديثهما رجل آخر أقبل إلى طاولتها يدعوها إلى رقصة معه، لكنها اعتذرت له قائلة:

- آسفة، أنا منشغلة بالسيد عبد القادر ضيف شرف هذه الحفلة. ربما في وقت لاحق..

وراح الرجل ينظر إلى عبد القادر مدققا في ملامحه، ثم هتف مغتبطا يقول:

- آه، أنت نتاع المسرح؟ لقد سمعت عنك..

وتكفلت جميلة بتقديم السيد لعبد القادر. قالت إنه نائب في البرلمان ورجل أعمال. وقال عبد القادر إنه سعيد بالتعرف عليه. وعاد الرجل ورجاه لو يصعد إلى المنصة ليسليهم قليلا. حينها رد عليه عبد القادر وهو يكبت غيظا لضحالة فكرة السيد عن المسرح، وقال:

- ربما في فرصة أخرى. فأنت ترى أني لم أجلب معي عدتي وماكياجي. كما أني نسيت أنفي الأحمر الكبير..

- 3 -

طرفت جميلة بإحدى عينيها، وهي تشير أمامها، ثم قالت:

- انظر إلى من يعتلي المنصة الآن!

انتبه عبد القادر إلى زوجته وردة تصعد إلى المنصة للغناء. وخمن من يكون هذا المتهور الذي دعاها إلى هنا!.. ثم أي جنون ركب هذه الساقطة، ومن سوَّل لها الحضور إلى حفلة تقام على شرفه ولتكريمه!

وقالت جميلة وكأنما لتغيظه:

- هل أنت منتبه إليها الآن!.. إنها تبدو أصغر سنا وكأنك كنت تسلبها حيويتها. ألا تظن أنها الآن ملكة بلا منازع. واحدة مثلها ما كان يجب أن تختزلها هموم البيت والعائلة!

لم ترقه لعبة جميلة. ورغب عن مجاراتها في لعبتها. وود لو يقول لها بملء فمه إن مزاحها ثقيل لم يرقه. وغير بعيد أن تكون هي من دعاها إلى الحفل. وحبذا لو يقدر على التنصل ليقوم خارجا. أما جميلة فواصلت لعبتها في إصرار ولامبالاة كاملة بشخصه. وكأنها مصممة على انتزاع اعتراف صريح منه بخصوص زوجته. وقالت تستفز مشاعره:

- أظن أنها من خرج رابحا بعد الطلاق!

رد عليها في غضب ومكر:

- كأزواجك تماما..

تساءل لماذا تتعمد إثارته!.. هل لرغبة في نفسها أم أنها تستلذ بوقع كلماتها عليه عندما ترصد اختلاجات روحه وما يضمره!.. إنه مستعد ليراهن بحياته مقابل أن يعرف ما تفكر فيه هذه المرأة وما ترمي إليه!

ثم إن جميلة غيرت من نبرة حديثها. وقالت وكأنها امرأة أخرى تماما:

- تجدني الآن أخمن كم الأمر مهين لو أنك لا تزال زوجا لها!

- نعم، ولكن القضية انتهت الآن.

وبينه وبين نفسه تساءل، هل الأمر انتهى حقا؟

كانت أغلب عيون الحاضرين مسلطة على زوجته وعلى عريها وغنائها وتحركاتها الفاضحة. كما كانت هناك عيون أخرى ترقبه لكن بحذر. أما الغمز واللمز فمحال أن يسلم منهما. ووجد نفسه يشعر بالإحراج والارتباك.

حاول الابتسام، وعلى مضض عاد فقال مواصلا كلاما شعر أنه قطعه:

- أظنها الآن حرة في حياتها. ولها أن تفعل ما تشاء.

- والأولاد؟ ما كان يجب أن تتركهم لها بأي حال من الأحوال.

على أي وتر تلعب هذه المشاكسة؛ وهل كل همها اللحظة إزعاجه وفقط!

أخبرها أنهم اختاروا جانب أمهم، وأنه احترم رغبتهم. وقالت هي إن جانب زوجته يتمتع بالوفرة فلا عجب أن اختاروا العيش معها. وقال إنه يعتقد أنها من ضغط عليهم، وما من حيلة أمامه..

- لكن يمكنك أن تسترجعهم وتفوز بهم عندما تشرع هي في الزواج ثانية..

ولم تزد إلا في إندهاشه عندما طلبت منه أن يراقصها. اعتذر لها وأخبرها أنه لا يستطيع. فقالت عاتبة عليه في شيطنة:

- يجب أن تنتبه جيدا، فهذه هي المرة الثانية التي ترفض لي فيها طلبا!
- لا أقدر. وأرجوك ألا تعقدي الأمور بيننا أكثر..
- ولكن هل تتوقع أن أكون كريمة معك دوما! إنك تضطرني إلى أمور لم أعهدها في حياتي أبدا!

بعد فترة قصيرة اعتذر لها، وقال إنه يجب أن يغادر. ومدت له يدها مودعة وهي تقول:

- حسنا، دعنا نراك. وسأكون ممنونة جدا لو تكرمت بزيارتي في يوم من الأيام..
- لكني لا أعرف لك عنوانا!
- لا تتحامق، فأنا لم أغير محل إقامتي القديم..

كانت دعوة صريحة لا مجال للشك في ذلك. وإنها تقول له علنا إن رغبتها فيه لم تتغير ولم تزل على سابق عهدها. فهل وافق الأمر رغبته هذه المرة؟

الآن فقط يمكنه أن يشعر بأن الحفلة لم تكن عبثا أو عبئا ثقيلا عليه..

وفي السيارة وفي طريق العودة، قال بلحوسين ينكد على صديقه عبد القادر متعمدا:

- هل كان في اللقاء موعد قريب أم أنك خرجت من المولد بدون حمص كما يقول أصحابنا المصريون؟
- لا موعد ولا شيء. كل ما جمعنا حديث عادي وعابر..
- أيها الكذاب المنافق، هذا كقولك لي من قبل إنك لا تعرفها. لقد بت أخاف عليك. ومشورتي لك أن تتزوج سريعا حتى لا تفسد!
- هل هذه مشورة أم غيرة صريحة؟
- ولماذا أغار منك؟
- إن لم يكن بسبب المرأة، فعلى الأقل بسبب حريتي!
- إذن ادع لي ربك أن يمنحني حرية كحريتك ويلهمني امرأة كجميلة..

واستغرقا في الضحك..

- 4 -

في تونس وفي مهرجان قرطاج وأثناء عرض مسرحية "بهلول المدينة" للمخرج العراقي بدر فوزي، انقطع التيار الكهربائي وغاصت القاعة في الظلام. ولأنه تعذر إصلاح العطل، طُلِبَ من الحضور مغادرة وإخلاء قاعة العرض في هدوء. لكن هذا القرار لم يعجب المخرج العراقي وفرقته الأردنية وبعضا من الحضور. واعتبروا أن ما حدث مفبرك ومقصود. والهدف منه تعطيل العرض الجريء الذي تقدمه فرقتهم المسرحية. ورفضوا الانصياع للأوامر. كما خرج المخرج من بين الجمع واعتلى المنصة وهو يصرخ بأعلى صوته أنه وفرقته غير مستعدين لأن يهضموا التطاول على عرض مسرحيتهم، وأكد أنهم لن يتزحزحوا من المكان حتى يعود كل شيء إلى أصله ويكملوا العرض..

وأمام إصرار أعضاء الفرقة عمد المنظمون إلى دفعهم نحو الكواليس بالقوة بغية السيطرة عليهم. وأثار ذلك موجة استياء كبيرة. وبلغ التوتر مداه عندما انضم بعض الحضور ممن لم يستوعبوا ما حصل إلى العراقي وفرقته. وعلت الأصوات المنددة والمستنكرة والمستهجنة لهذا الإجراء التعسفي بعدما رأت أنه لا يحمل رحابة صدر ويمثل ضيقا غير مبرر بالرأي الآخر.

عندما أدركت الإدارة أن الأمور تمضي من سيء إلى أسوأ وأنها تسير نحو الانفلات، فتحت بابا للحوار. وتدخل مديرها شخصيا.

وحاول تهدئة المحتجين كما طلب منهم السير معه إلى مكتبه لمناقشة ما حدث في جلسة مغلقة حفاظا على جو المهرجان وبعيدا عن كل بلبلة غير مقصودة قد تشوه صورته. وفي مكتبه بدأ الحديث عن المهرجان وقيمته كحدث ثقافي عربي بارز. كما لم ينس أن ينوه بالسلطات التونسية وعزمها الشديد على إنجاحه، وكذلك كانت تفعل على مر السنين. لكن المخرج العراقي قاطعه ولخص لب المشكلة في أن للمسرح العربي دور واحد مذ ظهر أول مرة، وهو يراه ينحصر في تعميق الوعي وتنمية الحس بالمتغيرات الحاصلة، ومحاولة إيجاد حلول حقيقية لمشاكل الأمة بعيدا عن رضا المسؤولين ومن والاهم.

وأظهر المدير دهشته واستغرابه من هذا الحديث. لكن أحد الحضور تدخل وقال إن انقطاع التيار الكهربائي تسبب في عدم إتمام عرض مسرحية الصديق بدر. ولهذا فهم يطمحون بإعادة إدراج عرض المسرحية من جديد تجنبا لكل حساسية أو لبس. وظهر أن المدير لم يستسغ مفردة اللبس. وقال إنه لا يقبل بمثل هكذا اتهام. لكنه عاد وتحت إلحاح الحضور الشديد على القبول بمقترحاتهم. ووعدهم بأنه سيعمل كل ما في وسعه ليدرج العرض ثانية وفي أقرب فرصة. فغادر المجتمعون بعد ذلك مكتبه وهم يعتقدون أنهم أحرزوا نصرا.

في يوم الغد عاد المخرج العراقي ليعلن أن مدير المهرجان سحب كلامه وتعهداته. وقال إنه ذهب شخصيا إلى مصلحة البرمجة. وهناك أكدوا له أنه لم تصلهم أي توصية جديدة بشأن عرضه. وطلب من رؤساء جميع الفرق المشاركة المساندة والدعم؛ فاستجاب له أكثر من

وفد. ورجعوا معه إلى المدير الذي قال هذه المرة وبشكل مباشر وصريح:

- إن عرض "بهلول المدينة" جاء متجنيا على البلاد العربية وسلطاتها في أكثر من جانب، وأنا متأكد أن صاحبها لو كان يسكن بلده العراق لما أقام مثل هذا العرض، ثم وقت المهرجان لا يسمح بإدراج العمل من جديد. وأني آسف لذلك..

كان التوتر قد بلغ بالمخرج العراقي مداه. فراح يخاطب المدير، ويقول في ضيق بعدما تلون وجهه بلون الدم:

- اسمعني جيدا يا حضرة المحترم. أنا أؤمن بأن للفن رسالة. وأؤمن كذلك بأن هذه الرسالة يجب أن تؤدى تحت أي ظرف. لقد كنت قادرا أن أظل أتمتع بشمس بلادي وبأهلي وأصحابي من حولي. لكن قايضت كل ذلك بالحرية عندما قررت الهجرة لأكسر الحدود التي كانت تعوقني وتختزل أحلامي وتجتزئ أفكاري. هل سبق لك وسمعت بالمسرحي العراقي "جوزي الغالي"؟ إنه مؤلف المسرحية الشهيرة "أين هي أمك؟ يا رفيقي..". إنه واحد من المنادين إلى الثورة، وأحد الرجال الذين وضعوا أسسها في العراق. لكنه عندما شاهدها تنحرف عن مسارها هاجمها. سجن وعذب بعد ذلك، ثم هرب دون أن يدري أحد كيف ليقضي بقية حياته في المنفى. واختتم حياته بالانتحار، فهل تدري لماذا؟ لأنه لم يطق العيش بلا دور. فهل تفهمني!.. أنا تعلمت منه أن أبحث عن دور لي،

ومستعد أن أبذل في سبيل هذا الدور حياتي، وحسنا ربما
وصلك كلامي تماما الآن.

قال بدر كلماته ثم خرج إلى زملائه. وأخبرهم أن اللجنة الوصية تماطل فقط كسبا للوقت. وأنهم بلا عمل شيء سيكونون أشبه بجعجعة بلا طحين. وطالبهم أن يكونوا يدا واحدة. وكانوا كذلك عندما انتهوا إلى قرار واحد، وأصروا على مقاطعة حفل الاختتام. واعتبروه حلا عادلا ومسؤولا أمام تعنت القائمين على المهرجان.

- 5 -

في الفندق الذي ضم الوفد الجزائري زارني الملحق الثقافي الجزائري في تونس شخصيا. وكان الملحق امرأة شابة وجميلة. حضرت لتنقل إلي تعليمات الوزارة. وظلت طول فترة اللقاء تتحدث مستعملة اللغة الفرنسية كوسيلة للتخاطب وتحرك بيديها الاثنتين. لم أهتم بتبجحها أمامي وظللت مشغولا بالنظر إلى أسنانها البيض اللامعة وكأني معني بمتابعة إشهار يخص معجون الأسنان إلى حين راحت تشحن كلامها بتحذيرات مبطنة تنم عن اهتمام غير مسبوق بالأمر من قِبل الجهات الوصية. قالت:

- يجب أن تفهم أن هذه المشاركة لا تخصك وحدك. فأنت هنا ممثلا لبلدك الجزائر.

حاولت الرد عليها في احتجاج واضح وتصميم، وقلت لها إنني وبصفتي أمثل أحد الوفود المشاركة قد اتفقت مع الوفود الأخرى على مقاطعة حفل الختام.

وكأن كلامي لم يعن لها شيئا لأنها واصلت خطابها في نبرة عالية:

- تعليمات الوزارة واضحة بهذا الشأن. كما أن الوزير يعدنا بجائزة أحسن إخراج. وهذا مكسب إضافي للثقافة الجزائرية ولمسرحنا، ولا يجب أن نتنازل عنه تحت أي ظرف.

أدركت أنهم يضعونني أمام الأمر الواقع. كانوا يجبرونني أن أقبل بالجائزة لأن ذلك يصب في صالحهم ويدخل في لعبة السياسة التي أمقتها. وفكرت أن أبقى مصرا على رفضي. لكن ماذا لو تعرضت لعملية ابتزاز دنيئة؟.. ربما لن يتوانوا عن إقالتي من إدارة المسرح لتضييع كل مشاريعي الأخرى؛ ثم ماذا لو قبلت بتوصيات الوزارة؟ في هذه الحالة أيضا لن أسلم من لسان زملائي، وغير مستبعد أن ينظروا إلي نظرتهم إلى خائن!

خمنت أن الأمر يحتاج إلى المرونة والمناورة، فقلت بلغة المهادنة:

- قبل حفل الختام سأكون قد راجعت موقفي. هذه هي الرسالة الوحيدة التي أملكها الآن.

علي أن أمتثل ولو ظاهريا، هكذا قلت لنفسي. ثم لأعيد حساباتي بعد ذلك على نار هادئة. في الأخير لن أفعل إلا ما يمليه علي ضميري وما أراه مناسبا.

تبادلنا نظرات لا معنى لها. وكانت الفتاة تبتسم لأول مرة وقد شعرت بالارتياح لمسعاها:

- أعتقد أنك ستبلي حسنا، وستكون عند حسن الظن..

وفي حفل الختام حضرت كل الفرق المشاركة باستثناء وفد الأردن ورئيسه العراقي. خيم الوجوم على الحضور. وكانت سحنات الجميع كامدة ونظراتهم مطفأة وكأنهم يرزحون تحت عبء ثقيل. بدوري ظللت مكوَّما في مكاني مشغولا بأفكاري المرهقة. شعور بالضيق راح يخنقني وأنا أنظر أمامي. لم أكن بالضرورة أرى ما يجري حولي وكأني خارج دائرة الوجود وما يحدث لا يمت إلي بصلة. كنت لا أزال مترنحا بين البلاء والبقاء على موقفي وبين محاولة القبول

بالتوصيات الصادرة عن السلطات العليا في بلادي. و لم يكن هنـــاك من حل وسط يلوح في الأفق، و لم يكن هناك ما يحفظ لي ماء الوجه!

كنت كالمحاصر خارج الزمن. و لم يبدأ معي الوقت إلا بعـــدما دوى اسمي كالنفير. حينها أخذت أنصت إلى ضربات قلبـــي بمزيـــد من التوجس والريبة. وأخذت أقطع الطريق نحو المنصة بأقدام مغلولة وبدوت كمن يعيش أصعب رحلة في حياته.

مهدت كلمات للمناسبة. وكنت عازما أن أعلن أمام الجميـــع رفضي لهذا النمط من السلوك المهيمن على الثقافة والمهين لها، لكـــني بعد أن اعتليت المنصة لم أزد عن كلمات الشـــكر والثنـــاء كلمـــة واحدة.(*)

(*) تعتبر جائزة تونس آخر جائزة تحصل عليها عبد القادر. كذلك نالـــت مسرحيات له جوائز وطنية ومغاربية وعربية ودولية. شارك بمسرحيات عديدة لاقت صدى واسعا في مهرجان مسرح الهواة في مدينة مستغانم. كما نال بالمغرب الشقيق جائزة أحسن عرض متكامل سنة 1990. وفي الأردن عام 1991 تحصل على جائزة أحسن نص مقتبس. ولعل جائزة أحسن إخراج في تركيا عام 1986، وجـــائزة أحســـن دور في بـــرلين الشرقية عام 1987 هما أحب الجوائز إلى قلبه.
هذا دون الإشارة إلى عديد الجوائز التي تحصل عليها بينما كان ممثلا في فرق جزائرية مختلفة أشرف على إخراج بعضها كل من مصطفى كاتب، علال المحب. حاج عمار. بوحابسي محمد وغيرهم..

- 6 -

كان يجب مقاطعة حفل الاختتام، وقطع الصلة نهائيا بالحبـــل. لكنه بقي مشدودا إليه، فسحبه نحو العجز الذي أوجدتـــه الممالقـــة. سار عبد القادر في اللعبة إلى نهايتها، متجاوزا قناعاته وما يؤمن بـــه وما اتفق عليه مع شركائه وما قطعه من وعد صريح. وعندما تســـلم الجائزة دمعت عيناه رغما عنه. وظن الحضور أنها دمـــوع الفـــرح. لكنها كانت دموعا بطعم مر. دموع التخاذل والخيانة.

كان يعرف أنه بلا مبررات، وأن ما عنده لا يعدو أن يكون إلا أعذارا واهية لن تحجب الحقيقة. والواقع أنه استسلم، وقـــد خـــان عندما استسلم.

بدأ يشعر بالذنب في تلك اللحظات، ثم أخذ ذلـــك الشـــعور يطغى ويتضخم ويسود..

كان يعتبر إلى حين قريب أن الرجال الذين يستسلمون ويبيعون ضمائرهم ما هم إلا خونة وعديمي المسؤولية. رجال يقفـــون ضـــد التاريخ وحجر عثرة في سبيل التطور والتقدم. وأخذت تجتازه صـــور فنانين وكتاب ومسرحيين باعوا ضـــمائرهم لســـلطة أو شـــهرة أو مكسب مادي، فخانوا عالم الأفكار وما يؤمنـــون بـــه. لكـــن وفي مقابلهم كان دائما هناك عالم من الكبار الذين رفضـــوا الانصـــياع لشتى المغريات. صحيح أن هذا العالم صغير ومحدود لكنـــه وحـــده

يحوي الرجال الذين بقيت هاماهم شـــامخة وبقـــي فنـــهم خالـــدا. ووحدهم من يشار إليهم وعبر كل الأزمان على أنهم رجال حقيقيون وأفذاذ.

كان بإمكانه أن يقول "لا" ويرفض الانصياع. لكنه استســـلم في الأخير وسقط ليختار طريق المنبطحين والموالين. وعجلة التـــاريخ بعد ذلك لن ترحمه وستدوسه وستسوِّيه بالطين.

جالت كل هذه الأفكار في عقله ودوَّرها يفكر فيهـــا طـــويلا حتى بعد خروجه من الحفل. نبذ فكرة العودة إلى الفندق في مثل تلك الساعة. وحاول البحث عن عزاء أو سلوى بالسير على كـــورنيش الشاطئ الطويل.

كثيرا ما كانت تملؤه الرغبة في السير وحيدا. يـــدرع شـــوارع مدينته في صباحاتها الباكرة حيث لم تحل فوضاها بعد و لم تكتسحها الضوضاء. يلجها دون وجهة معينة ويعتقد في كل مرة يخرج فيها أنه بصدد البحث عن شيء بعينه.. ربما عن كسرة خبز مفقودة، وربمـــا عن قبلة والد لم يشبعه، أو حضن أمٍّ لم يرتو منه.. ربما عـــن حبيبـــة غادرته دون وداع و لم يعد يلقاها.. وربما عن نفسه التي ضاعت منه في خضم هذه الحياة الملعونة و لم يعد يعثر فيها!

حاول أن يتلهى بتأمل ما حوله في انبهار كامل عله ينسى. و لم يكن قادرا على النسيان. وكان لا يفتأ يسترجع الأحداث بتفاصيلها القاتلة. وكم حاول أن يقنع نفسه أنه لم يكن على اســـتعداد لتقبـــل الجائزة وأنهم أجبروه؛ وكل ما فعله أنه انحنى للعاصفة حتى تمر بسلام!

إنه يود لو يصفو الحال ويعود كل شيء إلى طبيعته، لكن الأمر بات الآن ضربا من المحال. وصفاء الروح تبدد كما أخذ يتبدد كـــل

شيء جميل في حياته. ولهذا فهو يصر على حقده. وتراه يحقد على نفسه ويمقتها ويحتقرها كأبشع ما يكون الاحتقار.

أعيته الأفكار أكثر مما أعياه المشي. وبحث عن استراحة قريبة وما يتخفف به من إجهاده وتعبه. ما يصطرع في فكره لن تسكته إلا كأس مثلجة. هكذا فكر وهو يهم بدخول أول "ديسكو" صادفه. هناك وجد نفسه وسط جو راقص صادح بالموسيقى ووسط مجموعة من الشابات والشبان المشغولين بالثرثرة في لغط وهوج واستهتار. ناء بنفسه بعيدا قدر الإمكان. ثم حمل قنينة البيرة التي أتاه بها النادل وعب منها قليلا. وظل على هذه الحال فترة من الزمن.

انتبه إلى فتاة تنظر إليه باهتمام. كانت تجلس وحيدة. لحيمة سمراء لوحتها الشمس راحت تبادله الابتسام كلما رنا إليها. وحدث نفسه لا بد أنها على استعداد للميل إليه.

ما أحوجه إليها في ليله المظلم هذا. ستكون متنفسه، ومثلها قادر أن يبدد وحشته وينسيه ما يهرب منه. وقرر الوثوب إليها في الحال، فتخلص من القنينة بسرعة. سار نحوها بلا تردد وبدافع من الاستهتار بكل شيء.

وقف قبالتها ومد لها يده مسلما، حينها أشارت إليه بالجلوس لكنه أغفل إشارتها، وسألها هل هي على موعد؟ حركت رأسها دلالة على النفي، فسألها من جديد وهو لا يزال واقفا، هل ترغب أن تكون في صحبته على مائدة عشاء في فندق محترم؟

في المطعم لم تبد لهفتها إلى الطعام. وأخذت تأكل في لباقة وبكياسة مبالغ فيها، مستخدمة الشوكة والسكين أسوأ استخدام. وكانت تحاول أن تظهر كما لو أنها ملكة حقيقية. وحدث نفسه أنها

تحاول أن تستعيد بعضا من الكرامة المسلوبة علها تنسى اسم الدور الذي تؤديه. وفضل أن يسايرها حتى يغنمها.

في غرفة بأول فندق صادفهما نزع عنها ثيابها على عجل. وتبدت له في عريها كجنية مرغوبة أخذت تشعل فيه نارا وشهوة حارقة. التصق بها وشدها إليه بقوة وأخذ يمتص شفتيها وهو يحاول أن يسير بها إلى السرير. وعندما بانت عليه لهفته وجدها تضحك وتتساءل:

- أهكذا تعامل زوجتك؟ أم أنك ترغب في أن تنتهي مني بسرعة؟

لم يعر كلامها أدنى اهتمام. وبقي منشغلا بما هو فيه. وعلى السرير التحما واقتحمها كثور هائج فأخذت تتلوى وترسل أنينا أشبه بفحيح أفعى تزيد بذلك من اشتعاله وناره وسعيره.

سألته بعد ذلك:

- هل هذا كل ما ترغب فيه؟ أليست لك ميولا خاصة؟

لم يفهم إشارتها أول الأمر، وسأل:

- ماذا تقصدين؟
- كنت أرفض بعض الرجال بسبب رغباتهم الخاصة. لكني مع الوقت صرت أقبل بها ما دام لكل شيء ثمن ومقابل مناسب.

سألها هل تشرب؟ وقالت إنها تفضل أن تدخن. وحاول أن يخفي دهشته عندما راحت تلف سيجارة حشيش، ومن ثمة تتنفسها. قالت بلامبالاة:

- نصحني بتدخينها أحد الرجال في غرفة مماثلة. قال إنها تذهب الحياء وتقتل الخجل. واختبرتها على أمل أن أنسى اسم الدور الذي أقوم به..

دار بينهما حديث عام لتزجية الوقت. ووجدها تسـرد عليه تاريخ حياتها. قالت إنها وخلال سنواتها الأولى كانت متفوقة في دراستها. أما والدها فقد كان كثير السفر وشبه غائب عن البيت، والأم وجدت في أحضان رجل غريب ما لم تجده في كنف زوجها. والأخ هاجر إلى إيطاليا. ثم وصلتهم أخبار تفيد أنه دفن في الشيشان. وربما شارك في الحرب الدائرة هناك.

وواصلت تقول:

– كنت منذ البداية أشعر بالتيه والضياع، ثم من أين لي أن أعرف الطريق التي أخذت أخطو فيها؟ ألم يكن ذلك واجب الأولياء؟ وجدت نفسي وحيدة، وكنت أنشد الحياة. ألا يسمون الفترة التي سقطت فيها بالسن الحرجة؟ والفتاة في تلك السن ترغب في الانطلاق بعيدا عن كل قيد، وتحلم بعوالم جميلة، كما يبدو لها كل شيء ممكنا. وهكذا تأتي السقطة. وكل سقطة توجب أخرى. وبمرور الوقت ينعدم الإحساس بالألم. ثم ها أنا أفرج عن ما بين ساقيَّ لأي رجل يقدر أن يدفع ودون أن يساورني إحساس بالذنب أو الندم. كما لا يجب علي أن أغتم أو أبتئس فهذا المصير أنا من ارتضيته لنفسي..

ثم عمَّ صمت ثقيل اخترقته وهي تسأل:

– هل تعتقد أني عاهرة؟

وكمن دوهم على غرة، تبلبل وحار كيف يجيبها. وأمام صمته أردفت تقول:

– ولكن ماذا أفعل هنا معك، إذا لم أكن قحبة بكـل معـنى الكلمة؟

ثم أخذت تضحك في هستيريا، وكأنها تحاول أن تقفز على مشاعر معينة..

سحب أنفاسا من سيجارة أشعلها. وفكر فيها كحالة. إنسان واقع تحت ظرف قاهر بلا زاد أو معين، فما الذي ينتظر منه؟

أشفق عليها، وباهتمام سألها:

- هل سبق لك الزواج؟

وكمن بوغت سألته:

- لماذا هذا السؤال؟

قال لها بمزيد من الاهتمام:

- أفكر هل يمكنك احتراف مهنة أخرى. لا تزالين بعد شابة والحياة أمامك!

هتفت وقد بان عليها غضب شديد:

- هيا، قل لي أين يمكن أن يحدث هذا؟ ثم هل ستتزوجني أنت!.. الرجال هم دوما بمكيالين، فبعدما يقضون حاجتهم منك ينظرون إليك بقرف وقد لبسوا لباس التعفف.

ثم أدركت ما أقدمت عليه. قامت فانتزعت سيجارته من فمه وسحبت منها نفسين متتابعين. وقالت بلهجة اعتذار واضحة:

- بربك، دعنا من هذه السيرة، فلا يليق بي أن أعكر مزاجك. ثم لا تحاول أن تورطني. أنا هنا لأقبض ثمن هذه الليلة، ويجب أن تدفع بجزالة كأي سائح. ولا يمكنك أن تتعلل بأنك أمضيت ليلة سيئة.

فكر، إن لها ظروفها التي أجبرتها على السقوط كما أنه هو نفسه لا يكاد يختلف عنها بعد سقطته هذه الليلة، فكلاهما من طينة

واحدة. ثم لينظر إلى نفسه في المرآة وليكاشفها. هل حقا يمكن العودة وتصحيح العثرات والأخطاء أو ما كان يقوله للفتاة عبارات جوفاء وكلام لا رجاء منه!

وانسحبت الفتاة بعد فترة إلى الحمام للاغتسال، فتركته وحيدا. وما لبث أن عاودته أفكاره وهواجس يومه الحافل، فأخذ يتلفت يمينا ويسارا عله يتخلص منها. ولم يكن أمامه من مهرب فقام إليها. هب يدق عليها باب الحمام ويستأذنها في الدخول. وقبل أن تفتح له جاءه صوتها يقول:

- ها أنت تفضح نفسك. ألم أخبرك أن للرجال دوما رغبات خاصة!

فتحت له باب الحمام فاستحما معا. وعندما استأذنت في الرحيل نفحها أجرها وزيادة. وقال لها من جديد: - يجب أن تفكري. ربما يمكنك أن تحترفي مهنة أخرى. يمكن للإنسان دوما أن يغير مصيره ويكتب قدره من جديد. هذا ما أؤمن به أنا، وهذا ما يجب أن تؤمني به أنت أيضا..(*)

(*) الصوت المسموع في آخر هذا النص صوت أخلاقي بامتياز. هذا ما تبادر إلي وأنا أنتهي منه. وأراه الآن لا يتقاطع مع طبيعة عبد القادر ولا يمكنه أن يصدر عنه إلا من باب خشيته على الفتاة.
أيضا وجدت في مذكرات عبد القادر نصا يشبه هذه القصة على نحو ما. حيث ادعى أنه محاورة بينه وبين كاتبة ناشئة. كان موضوع الحوار حول الجنس. وقد حاول أن يوضح لها أن لا علاقة للدين أو لأفكارنا الخاصة بالإبداع بعدما سألها عن رأيها في العلاقة التي تربط بين امرأة ورجل خارج إطار الزواج.
رأت الفتاة في الفعل أنه زِنا وهي من المحرمات والكبائر. أخبرته بذلك في سرعة وحسم وعلى محياها أثار امتعاض واضحة. وكان عبد القادر

....

وكأنه يتوقع ويعرف ما ستقوله. ولهذا خاطبها وهو يقـــول: أتعجـــب كيف ترومين الصدق حين الكتابة وأنت تترصدين أبطالك بمثل هـــذا الحكم المسبق. كنت أعتقد أن الكاتب يقدم لأفكار أبطاله لا لأفكـــاره الخاصة، وحتى وإن بدا متحمسا لرأيه لاعتبارات عديدة لا يجب لـــه أن يقصي أفكار وأراء أبطاله. تلك الأفكار والآراء التي تشربتها نتيجة وضع أو تكوين ما. موضحا لها أن الالتباس الأكبر والذي يقع فيـــه غالبيـــة الكتاب وخصوصا في بداية مشوارهم الإبداعي حين يجعلون من أبطالهم بوقا لصوتهم الداخلي، ومجرد مرددين لأحكامهم المســبقة في الحيـــاة. ونصحها أن تترك شخصياتها حرة فقد يحدث أن تتعلم منها.

المزمور السادس

دائرة الطباشير الملوّن

- 1 -

قبل توجهه إلى مقر عمله لجأ عبد القادر إلى مقهى "بلاس هوت". بعد موجة البرد والصقيع غير المعهودة التي عصفت بالمدينة وجد نفسه يرغب في فنجان قهوة يسخن به عظامه. وجد المقهى مكتظا كعادته في مثل هذه الساعة، مغمورا بجلبة الرواد التي يتخللها بين الحين والآخر صوت النادل وهو ينادي على الطلبات.

اتجه مباشرة وكعادته إلى ركنه المفضل. جلس بعيدا عن الأنظار وفي زاوية تمكنه من مراقبة المدخل وحركة الزبائن من حوله. هناك شعر ببعض الدفء يسري عبر أوصاله. وحينها فقط أمكنه أن يستخرج جرائده التي اقتناها. فردها أمامه وراح يتفحص عناوينها.

لا حديث لهذه الجرائد إلا عن جرائم وفظائع تقترف هنا وهناك. وطالعته العناوين الكبيرة: "نزوح المئات بعد مجزرة بن طلحة"، "مقتل شرطي في بوفاريك"، "جثث على الطريق الوطني رقم 05"، "اختطافات واغتصاب بالأخضرية"، "كمين لقوات الأمن في مدينة مغنية". وكأن الدولة أصبحت غائبة!

لم ينتبه إلى أن هناك من أخذ ينادي باسمه حتى وجد يدا ثقيلة تسقط على كتفه. حمل برأسه فزعا وحاول النظر أمامه. فجأة غمرته فرحة كبيرة وهو يجد نفسه وجها لوجه مع صديقه الصحفي عمر.

قام يأخذه بالأحضان. وسأله متعجبا وهو يطلق موجة من الضحكات الموصولة والمعبرة:

- ألست في العاصمة؟.. إنها فرصة سعيدة أن ألتقي بك مجددا.

أخبره عمر أنه انتقل للعمل في وهران منذ أكثر من شهرين. وتعجب عبد القادر كيف أن صاحبه لم يحاول الاتصال به طول هذه المدة. حينها رد عليه عمر وملامحه تتلون بضحكة بريئة:

- ألا يقولون البعيد عن العين بعيد عن القلب؟

اندهش عبد القادر من صراحة صديقه؛ لكنه لم ينس أن يبتسم له. عرف منه أيضا أنه صار يقيم في أحد المحميات الأمنية الخاصة بالصحفيين والإعلاميين، والتي شيدتها الدولة في ظل تردي الأوضاع الأمنية.

- أظنك سمعت بها تلك المحميات التي حشرت فيها الدولة أمثالي..

إن الناظر إليه يفتقد فيه الصورة القديمة المحببة. لقد ذبل وجه عوده عن آخر مرة رآه فيها. يبدو كمن اكتسحه الهم. والإجهاد يراه يرتسم حول حدقتي عينيه المكدودتين. كما يذكر كيف انتهت عائلته في كمين استهدفه هو شخصيا. نجا بأعجوبة بينما فقد زوجته وولديه في ذلك الحادث. وقال له يواسيه:

- متى ستكف يا صاحبي عن هذا الحزن؟ أليس له من نهاية؟

تنهد عمر بمشقة. وزفر زفرة طويلة. ثم قال ينقل إليه هواجسه بدون مقدمات:

- ألا يعني الفرح النسيان؟.. كلما يحضرني سبب للفرح، أعبس فجأة. أتذكر من فقدهم وأقول لحالي. هل تشعر بالفرحة يا عمر؟ هل حقا نسيت من أحببتهم دوما؟.. كما قد يعني لي الفرح شيئا آخر فظيعا لا أجرؤ على تحمله، وهو أني أكون قد غفرت. هل تقدر أن تغفر أنت لمن طعنك في قلبك وتسبب في ذبحك ونكل بكل حياتك؟

هل يكون قد نسي؟ وهل غفر؟

يداهمه أحيانا الارتياب في جدوى الماضي بعدما ضاع هباء وبلا أسف و لم يُخلق منه ما هو جدير بحفظ ذكراه. ولولا أنه كان كذلك ذكرى والده وأحلام الشباب الأولى لتجاوزه مفكرا في المستقبل وحده. إنه يرغب في النسيان. لكن ليس من منطلق الكفر بكل شيء، بل من باب القدرة على الاستمرار. وإن مقاطعته لوالدته لا تزال على عهدها، فهو لم يغفر. وذكرى والده لا تزال حية وحاضرة في وجدانه وإن طالها غبار الزمن. أما نار حبه الأول فلا تزال تنهش منه اللحم والفكر وإن اضمحلت جذوتها تحت تأثير الحياة ومشاغلها. ومجرد هبة من ريح بسيطة قادرة على تأجيج النار الخاملة تحت الرماد. تلك النار التي بات يخشاها إلى الدرجة التي عاد فيها لا يلتفت خلفه خوفا من أن يدفعها إلى الاشتعال والاحتدام من جديد.

لقد بدآ لكأ جراحهما القديمة. مثقفان يقفان على عتبة تاريخ جديد يعصف بالبلد. شاهدا عدل، وإن كانت السكين مسلطة على رقبة كل منهما. مطاردان يعيشان في دوامة العنف ويشهدان همجية القتل والدمار. وجدانان يجدان نفسيهما أمام مجتمع يسن شريعة

العصور القديمة ناقما على كل ما هو موجود. مهمتــهما في الحيــاة التقاط ورصد صور من هذا المجتمع الذي يعيش أعمــق أزماتــه، ثم محاولة تكثيفها وإبرازها في إطار فني معين. هدفهما الأول والأخير في هذه الحياة تنوير الرأي العام، وكشف مسببات الأزمة التي تعصــف بالبلاد ولعبة الدم. همهما كل ما يخدم الإنسان والبشــرية والحيــاة. يعيشان الألم ويكابدان الخوف ويثقل عليهما اليأس، لكنهما ينشدان الفرح ما أمكن..

قال عبد القادر يروح عن نفسه ويبحث عما يســتظل بــه مــن الماضي:

- أتذكر فترة السبعينات؟
- الثورة وأحلام الشباب كلها قبرت. ولم يبق من تلك الأيام إلا الحنق والغضب اللذان ولدا الانفجار وقادا البلاد إلى ما أضحت عليه!
- حسبناه انفجارا سيصلح ما تلف من الأمور، لكنه سار بنا نحو الهاوية وسرّع في عملية السقوط والتي كانت بدوي.
- أحيانا يُخيل إلي أننا نتحمل مسؤولية المأساة التي حصلت..
- كيف؟
- ألا تعتقد معي أننا بقينا نتفرج على الموجة الجديــدة الــتي عصفت بنا وبالبلاد كما لو كنا غير مستعدين لها أو كأننا لم نكن مؤهلين لها ولجو الحرية التي أخذت ترفل فيه البلاد. لقد رحبنا وهللنا وشاركنا في المسيرات العظيمة. وعنــدما حانت ساعة الحسم صوتنا جميعنا ضد الدولة ننتقم منــها، فإذا بنا نُسلمها لمصير مجهول، ونُسلم معها أنفسنا!

- لم نكن ندري، واعتبرناها محاولة جادة لإعادة القطـــار إلى سكته الأصلية. لم يكن أحد يعلم أن ما حدث كان مخططا ومدبرا له ليلتهم العباد والبلاد وكل شيء.

وهتف عمر من أعماقه في حسرة بليغة:

- آه، أهكذا تنتهي الأحلام العظيمة؟
- وكأن هذه الأرض التي علمتنا معـــنى النخـــوة والرجولـــة أعادت النظر في كل شيء، ومدت لنا بظهرها وكأنها تقول أنها ما عادت تصلح لغير الركب.
- ضاعت هيبتها تحت ضربات الأوصياء ثم حفـــدتهم مـــن بعدهم. وأخيرا ها أنت ترى كيف يرتكب زبانيتهم الجدد عشرات الانتهاكات والمجازر مصرين على حرق كل شيء.
- وما من شعلة خابية تحت الرماد!
- ولا عجب أن تنتهي جميع أحلامنا العظيمة وكأنها لم تكن يوما. ثم خسارة الحرب التي قمنا بها والدم الذي دفعناه..
- وتأمل معي كيف أن هناك من يشمت وينكـــت باســـم تاريخنا وأمجادنا، حتى من اعتبرناهم دولا صديقة وشقيقة..
- السياسة كانت دائما لعبة مصالح ومراكز، وهي لا تعترف بالروابط أو بالعهود بقدر ما تستعملها كشعارات تلهي بها العامة من الشعب..

وكمن ضاق بحديث السياسة ورغب عنه قال عمر:

- حسبنا ما نحن فيه من هموم وأحزان..

جاراه عبد القادر كمن ينفر من هذه الهواجس جميعها. وقـــال يغير مجرى الحديث:

- بالمناسبة، كنت أتساءل لماذا لا تزورني في البيت؟
- وهل الزيارات ممكنة وسط هذا الجحيم؟
- بل هي مرجوة جدا. أنا في الحقيقة لا أتنفس إلا من خلالها.. أنظر سأحكي لك. كل عطلة أسبوع نلتقي نحن شلّة معينة في بيتي. نجتمع في سهرة طويلة تُسبب التلف في كل وظائفنا الحيوية إلا وظيفة اللغو والأكل والشرب. إنها اللحظات الوحيدة المتاح لنا فيها أن نضحك ونسخر من الموت الذي يطاردنا كل يوم وفي كل مكان..

قال عمر وهو يضحك:

- وكأني أسمع منك أنها سهرات للهو والمجون والعربدة؟
- يمكن أن تراها كذلك إذا ما أصدرت فيها حكما قاسيا وفاشيا، لكن إذا كان حكمك يتوخى الموضوعية فستجدنا مجرد صعاليك ومدمني حياة في زمن المأساة. إن هذا تكييف أبدعته الظروف الصارمة التي وجدنا أنفسنا عالقين وسطها..
- حتى إذا ما اقتحموا بيتك وفروا على أنفسهم مشقة اصطيادكم فردا فردا.
- لكننا حقا نحتاج إلى التنفيس عن أرواحنا المنهكة والمخنوقة.
- دعوة لطيفة منك ستوفر علي عناء تحضير العشاء ولو مرة في الأسبوع.
- بالمناسبة لماذا لا تفكر في الزواج ثانية؟ فقد يساعدك الزواج كثيرا في تجاوز العقبات وخصوصا الحزن والذكريات؟

- لماذا؟ أتريدني أن ابتلي المرأة التي سوف ترضى بي، وأجعلها تحيا معي في جو من الرعب والخوف. إذا كانوا يرونني مذنبا فما ذنبها هي!
- إلى جانب أني أعاني الهواجس نفسها التي تعانيها أنت، اكتشفت بعد طلاقي قيمة حريتي، وأنا الآن غير مستعد أن أرهنها من جديد.
- كأنه محكوم علينا بلعنة "سيزيف". نظل ندور في حلقة مفرغة.
- ولهذا فلا بأس ببعض المتعة، جرعة من الحبوب المقوية لأجل القدرة على المناكفة وطرد الوهن.
- أحيانا أقول إنه لا بد من ذلك. ولكني كذلك وفي أحايين كثيرة أفكر أنه يجب أن أبقى حزينا. لأن هذا الحزن برأيي يذكرني على الدوام بأن لدي ثأرا عند أحدهم، وأن قضيتي يجب أن أستوفيها وبقبضتي هاتين، ما دام من يعول عليهم يقفون عاجزين ومتفرجين على تراجيديا نحن ضحاياها الأولين..

بدا ناقما ومتوترا هذه المرة. وكان قد حمل بيديه يشير إليهما. ثم أشار إلى ما وراء زجاج الواجهة وواصل:

- انظر إلى كل أولئك الغادين والآيبن، ثم انظر إلى هؤلاء من حولنا. دائما أفضل الجلوس في الأماكن التي تطل عليهم. أنظر إلى سحناهم وإلى ذلك البؤس والقلق والألم والحرمان الذي ينطقون به. ألا ينبهك كل ذلك بأن لك دورا آخر غير الشكاة والأنين مثلهم. أولا يشعرك كل ذلك بأن قضيتك لم تنته؟

إنني أرى عبر وجوههم الدافع الحقيقي للعمل والذي لن يكون إلا بالتغيير. الصحفي في هذا البلد يركب سفينة مخترقة ومخرومة وغارقة. وفي لجة البحر الحيتان الضخمة المتخمة والقروش التي تعشق الدم. ورغم ذلك وجب عليه الاندفاع بقوة ليفتح سبيلا إلى الحياة ويجعلها ممكنة. لا أزال حتى الآن أتعرض للتهديد والمضايقة من أجل إلقاء السلاح لكنني أرى نفسي دائما في معركة يمكن تسميتها بمعركة المصير. وإنني هكذا أراهن بحياتي بدل أن أبقى مكتوف اليدين. وإذا ما كتبت لي النجاة. فإنني سأشعر بقيمة الدور الذي أديته وبجدوى حياتي التي لم أنثرها هباء..

- أشكرك على هذه الروح المعنوية الهائلة التي تتمتع بها. إن الذي يطالع نظراتك وحزنك أول مرة لا يشاهد إلا ذلك الإنسان المحطم والغريق الذي لا حول له ولا قوة. وإذا به بعدما تفتح له قلبك يكتشف أنه أمام إعصار منذر..

حدث نفسه أنهما متشابهان فكلاهما يخوض حربا. الصدر عار مستعد لتقبل رصاصات العدم أو طعنات الموت. وأملهما الوحيد أنها حركة التاريخ في سيرورته الأبدية. يندفع بقوة جارفا كل ما هو أمامه. لكنه في الأخير لن يبق في الوادي غير حجارته. وإذا كان خط صاحبه يمنحه لقب الثائر أو المحارب فإن خط سيره هو يمنحه لقب الصعلوك..

وتطرقا بالحديث إلى هموم عديدة تشغلهما. وحكا عبد القادر لصاحبه عن الرهان الذي يتجشمه وعن العمل الضخم الذي يعده وعن لامبالاة السلطات. ثم جدوى كل ذلك في عالم يرفض كل ما له صلة بالروح ويقبل على كل ما هو مادي أو محسوس. وكأن

الإنسان مُسِخ وتحول إلى أسفل الدرك في قائمة الموجودات! وسـألـه عمر هل يمكنه أن يعد تحقيقا حول رهانات المسـرح في العشـرية الأخيرة؟ وعن ظروف العمل والإبداع في وسط الجو المشحون؟ على أن يكون هو مصدره الذي سيستقي منه المعلومات..

وفي الخارج -وكانا قد غادرا المقهى- تأملا ما حولهما بشغف وحب. وقال عمر يخاطبه:

- ألا ترى أنه يجب أن يكون لنا دور أو رأي على الأقـل في كل هذا؟

وآمن على كلامه. كان في أعماقه يشعر أن هناك أخـيرا مـن يشاركه همومه وآلامه. أو ربما هذا هو حال الجميـع، وأنـه لـيس لوحده.

– 2 –

أمام بناية المسرح ألقى عمي هواري الحاجب تحية الصباح المعهودة على عبد القادر. وأقبل عليه بوعلام يخبره أنه حاول الاتصال به مرارا في البيت دون نتيجة، وأن هناك سيدة تنتظره في مكتبه.

ما بال نظرة صاحبه كابية!.. ثم واضح من سحنته المتهيبة أن هناك جللا قد حصل، لكن ما هو؟.. ثم حاول أن يحدس من تكون هذه السيدة، ولأي غرض تقصده؟ وفي مكتبه حدث نفسه أنه يكاد يتعرف على صاحبة هذا الوجه. بل إنه يعرفها، لكنه كذلك غير مستعد أن يصدق ما تراه عيناه من شدة المفاجأة!

خفق قلبه وقد أخذ على غرة. ونظر إليها دهشا، بينما أُشرِعت نافذة على الماضي.

وجد نفسه وجها لوجه أمام حورية. وأثارت فيه زيارتها ذكريات حزينة ونكأت جراحا قديمة لم تندمل، كما جاشت مشاعره بوجد قديم وبعواطف أخرى متضاربة. وأخذت تعبره لقاءات وأحاديث ووعود قديمة لم يكتب لها أن تتحقق.

مد يده يصافحها وكأن ما حدث في الماضي لم يعد يعنيه. وتلاقت الأكف تحمل دفئا قديما لم يزهر.

– لم أكن أعرف بيتك أو رقم هاتفك. وقلت لن أجدك إلا هنا!

كان قد مضى زمن طويل على آخر مرة شاهدها فيها. والظاهر أن الفتاة خضعت إلى تبدل كبير مسّ شكلها وهيئتها. كذلك وجد أن نظراتها الآن أمامه تشي بحزن وقلق، أما وجهها فيبدو شاحبا ومتعبا وخاليا من ألوان الزينة. وحتما هناك أزمة ما تثقل عليها!

راح يتطلع إليها في ذهول. وكان يحاول أن يقرأ أفكارها علّه يطلع على سبب زيارتها. أما المشاعر التي بثتها فيه قبل لحظات فقد تراجعت وولت إلى حين الظفر بجواب مقنع يطفئ نار حيرته.

وعندما لاحظ صمتها بادرها يسألها باحثا عن جواب شاف:

- هل كنت تحتاجينني في شيء؟

نظرت إليه عبر عينين زائغتين. وكان واضحا أنها تحاول السيطرة على نفسها. ومن جديد هتف مختنقا:

- ماذا هناك؟ هل أنت بصدد البحث عن مساعدة ما؟

هناك ما يعتمل في داخلها، ولعلها لا تدري كيف تنقله إليه. إن هناك ما يشوش عليها أو أنها ترزح تحت عبء سر خطير يحيرها وتكافح أفكارا تثقلها ما دامت لم تجد طريقة مناسبة للإفصاح عما تريده..

- وكأن هناك خطب ما!

هتف متوجسا، فهتفت مختنقة:

- أمك..

وحاولت أن تداري وجهها وأن تكبت عبارات ظلت تخنقها، وعندما لم تقدر على الصمود أكثر انفجرت عيناها بالدموع، وأخذت تبكي دون أن تقدر على السيطرة على دموعها.

ها هي اللحظة التي ظل يتوقعها ويخشاها. لكن ماذا أعد لمواجهتها؟

حدس ما كانت تريد الفتاة قوله. و لم يسع لديها لتؤكد له حدسه، وكأنه اكتفى بدموعها جوابا فاصلا. واندفعت تغزوه موجة عارمة من الذكريات لها علاقة هذه المرة بأمه. إن العالم كله اختفى من أمامه و لم تعد في الواجهة إلا صورها، وكان قد استعادها أخيرا من متحف الذاكرة. وهتف ملتاعا:

- ولكن كيف ومتى حصل هذا؟
- ليلة البارحة. وكانت تعاني من آلام طويلة اشتدت عليها فجأة..
- ومتى تسير جنازتها؟
- ليس قبل صلاة العصر. تعهد والدي بالتدخل لتأخير دفنها حتى يتسنى لك أن تحضر.

حاول كبت ألمه والسيطرة على أعصابه لكن هذه المرة ومن عينيه وعلى رغم منه انسلت دمعة مكابرة!

- 3 -

- إنا لله وإنا إليه راجعون..
- إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شـــيء عنـــده بأجـــل مسمى..
- اللهم اغفر لها وارحمها وأكرم نزلها..
- لا تقنط من رحمة الله ولا تجزع..

تقبل عبد القادر كلمات العزاء في تأثر شديد. وفي أثناء ذلـــك تقدم نحوه "يزيد" ابن زوج أمه رابح. وكان منظره وهو يتقدم نحـــوه ثم يعانقه ويترحم أمامه على والدته حزينا. ومن عباراته بان متوجعـــا ومتحسرا..

- الحمد لله أنك علمت بخبر الوفاة وحضرت.

ظهر عبد القادر في أسوء حال. وبدا ناقما على صاحبه، ولولا المقام وحزنه لانتفض وعامله بما يليق. لن يغفر له أنه لم يسع لاطلاعه بخبر الوفاة. ولعل يزيد قدر الأمر فراح يقول من جديد يبرئ ذمته:

- حدث كل شيء فجأة. و لم يكن هناك من يقـــف علـــى الجنازة سواي. كما لم أعرف كيف أهتدي إليك.
- ربما لم تكن تريدني أنت وغيرك أن أكون هنا!

تضمن كلامه غضبا وتحديا واضحين. بينما قال يزيد في انقباض وتوتر مواصلا نبرته السابقة:

- أرجوك مثل هذا الكلام لا يجوز. وأنا نفسي حين حصلت الوفاة كنت متواجدا بالعاصمة، كما أني لم أحضر إلا صباح اليوم!

لا يمكنه أن يراه إلا صورة طبق الأصل عن والده رابح. ولا بد أن دماءه من دماء والده. وما مظاهر الحزن التي على وجهه إلا قناع يحجب به الحقيقة التي يعرفها الجميع!

- 4 -

تقدم نحو الغرفة التي ترقد فيها أمه. اكتشفها وحيدة مغمضة العينين في نومة أبدية. وجهها كالح، بينما عصب رأسها بمنديل كبير ملون، ولف جسدها داخل غطاء ناصع البياض.

جثا على ركبتيه بقربها، ومسح بيده على كامل وجهها. وجدها باردة كقطعة معدن. ثم مال نحوها حتى لثم جبهتها. و لم يقو على حبس دموعه فبكى وهو يحضنها بذراعيه. وهتف: "سامحيني أمي!"..

استرسل بعدها في بكاء حار وقاس. ومن خلفه ناحت بعض النسوة بعدما تأثرن بالمشهد. ومسح دموعه وحاول أن يتجلد ويصبر ما قدر على ذلك. واجتهد ليظهر في وضع رزين خليق بالرجال. ثم قام فخرج. لكن حالة من الحزن الشديد ظلت تطوقه، وأفكار كئيبة راحت تشغله. وعندما حانت ساعة الدفن، حمل النعش خارج البيت. وأعولت النسوة وعلت أصواتهن بالبكاء والنحيب حتى تدخل أحدهم فصاح:

- أرجوكم الصمت. البكاء على الميت حرام..

وهتف من ورائه آخر:

- إنه قضاء الله، فلنحترم الأموات..

وبكى عبد القادر، لكن هذه المرة من غير دموع. وسار في ركب الجنازة إلى المقبرة. وأثناء عملية الدفن لم يقدر أن يتمالك

نفسه. ارتجفت شفتاه وانهمرت الدموع من عينيه رغما عنه. في حين ساد الصمت والوجوم الجميع وهم يتأملون في اللحظة الموجعة والفاصلة والمهيبة. وكانت لحظة وداع وفراق وانفصال..

كان جثمانها يُحمل وينقل إلى قعر القبر. وكانت سواعد الرجال تسد عليها الحفرة بكتل من الاسمنت ثم راحت تغمرها بالتراب. ولا بد أنه الآن تبدأ معها حياة أخرى لها علاقة بالحساب والعقاب أو بالعدم!

زاغ بصره وهو ينظر أمامه غير مفكر في شيء. وما لبث أن انسحب إلى عالم الماضي. وهناك رأى أمه وسمع صوتها يسأل: "هل أنت مصر على هذا الرحيل يا ولدي؟.. لماذا تريد أن تتركني وحيدة؟"..

إنه يذكر كيف رد عليها حينها. لقد هتف فيها وقال متحديا: "ولكنك لن تكوني وحيدة بعد اليوم! ثم لم يعد لي مكان هنا بعد قرارك الأخير. لتفهمي أني لا أسافر بمحض إرادتي. لقد سدت الدنيا في وجهي، وإني مرغم على ذلك.."!

- 5 -

صار وحيدا. فهو اليوم بلا أهل. ومن شدة وحدته تساءل عبد القادر جزعا وفي حيرة هل يبقى إلى الليل فيشهد المأتم أم عليه العودة من حيث أتى؟ وفي آخر المساء بدأ توافد المعزين. ولبرودة الطقس تجمع أغلبهم تحت خيمة كبيرة أعدت خارج البيت. ولقد ضمت الخيمة أيضا مقرئين أخذوا يتلون آيات من الذكر الحكيم. ورغم أنه لم يمض على دفن أمه إلا ساعات قليلة إلا أنه تمكن من سماع ضحكة معربدة انطلقت من حنجرة أحدهم غير حافلة بشيء. والناس في حديث عن هموم الحياة وكأنهم نسوا تماما العالم الآخر أم أن عقيدته قد صار لها أتباع كثيرون دون علمه. لا أحد هنا ليحزن، بل هو الواجب وكسب ود الأسرة المفجوعة.

ولاحظهم يجاملون يزيد ويتملقونه. ثم ها هي العظمة التي تاجر فيها "رابح" الأب تنتقل إلى الابن وتتركز في ذلك الاستعلاء والنظرة الفوقية التي يواجه بها الناس من حوله، وكأنه مُكَّن على أرزاقهم جميعا.

وضاق بالمكان وبما حوله. ورغب في أن يختلي إلى نفسه ويعاود التفكير في حياته كلها ويتحقق من مواقفه وما كان يؤمن به. فلا شيء يبدو ثابتا بعد الزلزال الذي مرَّ به. وإلا فكيف يشعر الآن أنه كان ظالما لأمه وقاسيا معها؟

لكنها رضيتْ بعدو أبـــي الأول زوجا، فهل هناك من يرضـــيه ذلك؟

ضاق بعالم الأفكار سريعا، كما ضاق بكل شيء. لكن إلى أين يلجأ وكيف المهرب؟.. وأنقذه من بلبلته صوت أحدهم أقبل عليـــه معزيا. وعندما حمل برأسه أمامه وقعت عيناه على عمي حمزة الجـــار القديم. اكتشفه يجلس على كرسي متحرك. وبدا الرجل شيخا مسنا وهشا ومنهكا بفعل السنين و لم يبق منه إلا جلد على عظم.

إن هناك نوع من التعاطف يشده نحوه. وإذ يذكره تقترن ذكراه بذكرى والده. فكلاهما قدم حياته فداء لمحنة وطن راح ينشد التحرر من نير الاستعمار، لتختتم حياته بالمصير الأسود نفسه.

كان ينتمي إلى الحزب الشيوعي، وكما لا يزال يذكر فقد جُنِد الرجل إجباريا في الحرب العالمية الثانية. بعد نهاية الحرب التحق بحزب الشعب الجزائري ثم بجبهة التحرير الوطني؛ كما جرت بينـــه وبـــين الشرطة الفرنسية معركة في أحد شوارع العاصمة. وكانـــت هـــذه الأخيرة قد نصبت له كمينا على أثر وشاية من أحد الخونة. يومهـــا ألقي القبض عليه، وبُترت ساقه اليمنى لإصابتها الخطيرة في المعركـــة. كذلك أودع السجن فلم يخرج منه إلا مع الاســـتقلال. وفي غمـــرة الاحتفال بالنصر غاب لأسبوعين في العاصمة ثم عاد إلى البيت. وبدا واضحا حينها أنه ضُرب واعتدي عليه. وهذا أيضا ما تحـــدثت بـــه زوجته حين أسرت لخاصة من الذين تعرفهم وتثق فيهم أنها شاهدت على كامل جسد زوجها آثار جراح وكدمات. ولا بد أنه عـــذب، لكن لا أحد يدري لماذا أو من قام بتعذيبه. وهو لم يرد الحـــديث في الأمر. ثم أنه بدأ بعد ذلك الحادث في الانحدار وكأنه انتهى مختنقا من

شيء ما. وربما من ثورة هضمت حقوقه وحقوق شعب بأكمله.

سلم عليه، بينما شدَّ الرجل على يد عبد القادر في تأثر كبير وهو يقول:

- لا تحزن يا ولدي ولا تقنط. كلنا إلى الفناء..

أردف كذلك يقول وهو يشير إلى عجزه:

- ثم أعذرني أني لم أشهد الجنازة فأنت ترى وهني. لكن عندما أخبرتني ابنتي حورية أنه يجب أن تعرف بخبر الوفاة وافقتها الرأي. وكنت من أصر ودفعها لأن تذهب وتخبرك..

ثم عاد على البدء، وقال متأسفا:

- أسفي على المرحومة، فهي لم تتحمل الصدمة!

انتبه عبد القادر إلى جملة الرجل. كانت تتضمن أمرا لم يستوعبه. وهتف مفاجئا:

- ولكن أي صدمة تقصد؟

- صدمة زوجها بعدما سُجن!

كان عبد القادر وخلال جنازة والدته قد انتبه إلى أن رابح هو الوحيد المفقود رغم ما يمكن أن يعنيه الحدث للرجل. ما كان ليتغيب إلا لطارئ أكبر؛ والواقع أن عبد القادر لم يول الأمر اهتمامه ولم يتسن له التفكير في أسباب غيابه أو السؤال عنه. كان مستغرقا في الوفاة حتى أغفل أمره، كما أن عدم حضوره جنَّبه كل إحراج ممكن. لا يمكنه الجزم بما كان سيقع لو التقى به وجها لوجه.

وقال عمي حمزة من جديد:

- قلبي مع الرجل كيف يتحمل النبأ في وحدته؟

انقبض قلبه. وحاول ازدراء المشاعر التي بثها فيه الخبر.

إنه ليس شامتا بقدر ما هو مؤمن بالعدالة ففيها حسن الجـــزاء. وهكذا قال والده ذات يوم وهو على ذلك خير شاهد.

وأردف الرجل فقال مواصلا سرد محنة والدته قبل موهّا:

- ومن يومها وأمك طريحة الفراش..

حينها بدأ صوت داخله يهتف: "ها هي تقتلها مأساة الـــزوج الثاني بينما كان حري بها أن تقتلها مأساة الزوج الأول!"..

لكن ما باله يَكفُر في مثل هذه الساعة الحزينة؟

وواصل الرجل في لين وكأنما حدس أفكاره. فقال:

- لم تقو المسكينة على مجابهة الخبر، خصوصا وأنهـــا كانـــت تعاني من الضغط والسكري..

عرف منه أن رابح في السجن بتهمة تمويل ودعـــم ومســـاندة الإرهاب. قبل مدة تم حرق مصنع تابع للدولة ينتج مـــادة الســـكر، وحينها ولعدم توفر الأدلة قيدت القضية ضد مجهول. لكن أحد الجناة وقد قبض عليه حديثا اعترف أن الأمر تم بإيعاز من رابح الذي دعم العملية بماله الخاص. والظاهر أنه دفع مبالغ كبيرة للإرهابيين ليقوموا بحرق المصنع حتى إذا تعطل حقق هو أرباحا إضافية عنـــدما يظـــل يستورد مادة السكر من الخارج وبأرقام مضاعفة وقياسية.

- 6 -

مضى عبد القادر بعربة عمي حمزة، وأخذ يـــدفع بالكرســـي المتحرك أمامه. كان يعود به إلى بيته، والظاهر أن الـــدرب لا يـــزال مطبوعا في ذهنه كعلامة مميزة لم يقو الزمن على طمســـها. وعـــبر الطريق إنجابت الوساوس والأحزان وأفسحت المجال للذكريات.

بطرف عصاه خبط عمي حمزة الباب الذي ما لبث أن انفرج على سيدة متقدمة في السن عرف فيها ملامح امرأة قديمة اسمها خالتي "عيشة". وما لبثت المرأة أن أخذته بالأحضان. كما لم تقدر أن تضبط مشاعرها، فبكت أمامه ورغما عنها. وعبر دموعها أخذت تهتف في لوعة:

- أين اختفيت يا ولدي؟ والله لقد اشتقنا إليك. وأشـــهد أن المرحومة في أيامها الأخيرة لم تكن تنادي إلا باسمك. كما كانت آخر رغبة لها أن ترى وجهك..

انتبه عمي حمزة لزوجته التي لم تستطع السيطرة على نفســـها، وقال منبها لها:

- الرجل متعب، ولا يجب أن نثقل عليه بالحديث والســـهر. هيا، من الأفضل أن تجهزي له غرفة للمبيت.

كثيرا ما وطأت قدماه هذا البيت. وهو يكاد يكون على حالـــه ودون تجديد يذكر. بل إنه سار إلى التقادم فصار كحال أصـــحابه لا يشي إلا بالحزن والكآبة!

آه، لو تنطق هذه الجدران، وتعبر هذه البلاطات عما شهدته من أحداث!.. وساح في الأرجاء بناظريه، فكأنه يبحث عن أثار كانت له هنا..

ها هي الدالية نفسها تظلل الحوش بكامله. وها هي شجرة النرجس تعبق المكان بأريجها النفاذ وتنفح الأرجاء بعبقها.. ثم ها هو نفس السحر القديم يعود فيطوقه ويشغله وكأنه لم ينقطع عن هذا المكان إلا بعض يوم.

بات ليله مسهدا، وظل يغالب دموع الألم والقهر والحرمان ومشاعر الشك والحيرة والندم. وحاول أن يشغل نفسه بإشعال سيجارة وتدخينها. وأشعل أخرى وأخرى لكن الحزن لم يبرحه وظل جاثما على صدره. والريح التي ظلت هاجعة بدأت تدب في وصلات هي أقرب إلى النواح والأنين، بينما في البعيد تردد أكثر من مرة نباح كلاب طريدة.

- 7 -

استفاق على صوت صغار يبكون. وخمن أنه قد نام ساعة أو ساعتين. وأوحى له دفء الفراش بالرغبة في النوم ثانية، ثم عاد فتذكر أين هو، وتذكر ليلة البارحة ووفاة أمه وما ينتظره في هذا اليوم من أعباء، فقام مرتبكا وكارها. وبعد أن غسل وجهه ألفى نفسه وسط حلقة ضمت عمي المختار وخالتي عيشة وصبيين أحدهما في الرابعة عشرة من عمره والثاني عمره حوالي العاشرة، وهما بدون أدنى شك ولدا حورية.

قالت خالتي عيشة يلفها الإحراج لسبب ما:

- أرجو أن تكون قد نمت جيدا يا ولدي.

وقال عمي حمزة: - لكن باله حتما ظل مشغولا بالمرحومة!

وعاودت زوجته الحديث، فقالت:

- كانت تعزك كثيرا. ولا تغضب مني إن قلت لك إنك كنت مقصرا معها.

حينها قال عمي حمزة يرد على زوجته وكأنه يزجرها، بعدما لم يعجبه كلامها:

- ما من سبب لهذا الكلام الآن!

لكن عبد القادر قال معقبا عليه ومهونا الأمر:

- دعها يا عمي. أعتقد أني كنت مقصرا حقا، وهي تقول الحقيقة. لكن كذلك كلكم كنتم تعرفون الظروف وما حصل معي..

دفع كلامه بالمرأة إلى الخوض في الحديث من جديد. وبدت هذه المرة أكثر عنادا وجرأة:

- لقد كانت هناك أيضا حقوقها عليك وواجبات أهملتها!

وأمام كلماتها الموجعة لم يجد زوجها إلا أن يقول:

- أرجوك يا ولدي أن تسامح هذه المرأة، فهي لا تدري ماذا تقول!

وهتف عبد القادر يرد عليها، وكان يشعر أنه يقول الحقيقة ويعبر عن وضعه تماما:

- صدقيني، كنت دائما أفكر في رؤيتها. لكن كذلك كنت دائما متخوفا من أن أنكأ الجراح القديمة، ومن أن أضع نفسي وجها لوجه مع زوجها. كانت الحرب لا تزال قائمة معي أنا على الأقل و لم تنته إلى اليوم..
- آه، لو سمعتك تقول هذا الكلام!

ووقع نظر عبد القادر على حورية وهي تتقدم بصينية القهوة، ثم وهي تنضم إلى مجلسهم.

كأننا لا نفهم هذا القدر ولا نفقه في عُرفه الذي يخاتلنا وفي غفلة منا. ينقض مسببا رجة في ما اعتقدنا أنه ذات لحظة يقيننا المطلق والخلاصة التي لا يجوز التنازل عنها!.. وإذا أمكنه أن يخلو إليها فبماذا سيحدثها؟ وأي كلام يجوز قوله في مثل هذا الظرف الجديد؟.. أَعِتاب يضاهي الوحشة التي خلفتها والآلام التي عانى منها؟ أم

لامبالاة قاتلة فكأن شيئا لم يكن؟.. ثم هل حقا انتهى كل شـــيء إلى النسيان؟

كان واضحا أنها اجتهدت في الاعتناء بمظهرها، فليس ما تلبسه مما ترتديه النساء عادة في البيت، كما أن شعرها يبدو مصفوفا بعناية وعيناها مكحلتان. وهناك أثر طيب لا يخفى من الأحمر على شفتيها ووجنتيها. ولو كانت الأمر دعوة لحفلة ختان أو عرس فلا أحد كان سيدري ما كانت ستفعله بنفسها.

حملت إليه نظرات خجلة. وصبحت عليه في ارتباك، فرد عليها بالارتباك نفسه. والتقت الأعين مرات عديدة. وود لو يقف على سر نظراتها إليه وما تحمله له اليوم من مشاعر. وإنها لا بد عاتبـــة علـــى نفسها. والمصير الذي انتهت إليه يجعلها تعاني آلاما مضاعفة. ولكـــن ما عساها تقول له؟ وكيف يمكنها أن تبرر فعلتها؟ وهل لديها مـــن الأسباب ما يكفل لها أن يغفر لها؟ وأمُّه نفسها لم يغفر لها و لم يقتنـــع بأسبابها؛ وإن كان اليوم ينخره الشك وتتهدده الحيرة في ما أتـــاه في حقها وحول خياراته وقناعاتها كلها!

وكأنه لا يدري حقيقة ما يشعر به الآن ناحيتها. وإنه يود لـــو يقف على رأسها كالأشهاد ويسألها: "لماذا فعلتِ بـــي ما فعلتِ؟". وإنه يرغب في جواب مقنع وكأنه بذلك يريد أن يصفح عنها!

ربما يتحمل بدوره نصيبا وافرا من المسؤولية فيما حصل بينهما. وقد تكون هي حقا شعرت بتخليه عنها بعدما انشغل دون أن يدري بعالمه الخاص. وقديما أخذت نفس هذه المشاعر تطغى عليه، فصارح بها صديقا له، لكنه رد عليه حينها: "لماذا تحاول أن تجعل من الأمـــر معضلة!.. لا يجب أن تكون حساسا أكثر من اللزوم، ولا يجـــب أن

تخضع نفسك لتأنيب الضمير لمجرد خاطرة مرت على ذهنك، بينما المجرم الحقيقي مشغول عنك ويتمتع بحياته الجديدة. ومهما قلَّبت الأمر معها، فستجد أنها مجرد صفقة مربحة من جانبها قررت أن تفوز بها بعدما أغفلت أمرك تماما..".

- 8 -

زار عبد القادر المقبرة في صباح ذلك اليوم. قبع أمام قبر والدته لفترة. ثم استقدم شيخا ضريرا تلا سورة "تبارك" وبعض ما تيسر من القرآن الكريم. وختم التلاوة بالدعاء للمرحومة فنفحه صدقة طيبة. ثم فكر أن يعرج على قبر والده. لكن ما لبث أن اكتشف أن القبر بات وسط مجموعة كبيرة من القبور المترامية في غير ما نسق أو نظام. وحار من أين يبدأ وكيف يهتدي إليه. وعلى رغم منه زاغت عيناه وأدمعت. وإن كان أهمل أمه في حياتها، فلقد أهمل والده كذلك بعد مماته. كما لا يذكر أنه زار قبره ولا مرة واحدة بعد غربته الطويلة وعودته إلى أرض الوطن، فكأنه رجل بلا تاريخ أو هوية!

حار ماذا يفعل. ثم فكر أن يستدل على قبره بأحد الخُدام. وأخيرا وبعد جهد وعناء وجد نفسه يقف أمام قبر أجرد جاف موحش كئيب منسي. وقال يؤنب نفسه: "كان والدي يستحق أكثر من هذا!". وحدث نفسه أنه سيسعى لتزويد القبر بألواح رخامية وسيعمل على منحه هيئة لائقة؛ وكذلك سيفعل مع قبر والدته.

بعد عودته من المقبرة استقبله يزيد بالأحضان، وسأله أين قضى ليلة البارحة؟ ثم طرق موضوعا آخر، فقال بلا مقدمات:

- هل علمت بما حصل مع والدي؟

رد عليه عبد القادر دون أسف ودون أن يتجاوب مع حزنه الظاهر فكأنه من الشامتين:

- سمعت نتفا من الكلام في الموضوع البارحة.
- لقد وُرِط من طرف خصومه في السوق، وحينها كنت أنا في فرنسا، فوجدت المرحومة نفسها وحيدة..

ولم يكن يحمل له أي ود قديم، كما أنه كان لا يرحب بأي علاقة تقوم بينهما، لهذا قال:

- حسبها أن تلقى ربها بصفحة بيضاء نقية، وسواها كثيرٌ يلقى ربه بصحيفة سوداء مليئة بالذنوب والخطايا.
- حقيقةٌ يحزنني فقدها. وأنا إذ أذكرها أذكر لطفها معي. وكثيرا ما وقفت إلى جانبي ونصبت نفسها دوني ودون غضب والدي..

لم يكن يزيد يتظاهر بقدر ما كان يترجم عن عواطف داخلية. وانبرى يواصل قائلا:

- المسكينة لم ينصفها أحد. عاشت وحيدة وماتت وحيدة، ودون أن تجد من يقف إلى جانبها.
- لكن هل أحطت والدك بخبر الوفاة؟
- لا يمكنني أن أفعل ذلك الآن. رأيت أن أتريث قليلا وأن أتحين الفرصة المناسبة لذلك. كان يعزها كثيرا وأنا أخاف عليه من مضاعفات خبر كهذا بينما هو في وحدته.
- كان الله في عون جميع المؤمنين.

قال عبد القادر جملته الأخيرة وقصد أن يضمنها أكثر من تأويل. بينما قال يزيد يُغير مجرى الحديث من جديد ويسأل:

- ولكن أليس لك صلة بأحد من المسؤولين أو النافذين القادرين على التدخل لأجل والدي؟

أما عبد القادر فوجد نفسه يتأمل في كلماته على علاتها. و لم يكن يخشى على شيء، فقال بلامبالاة:

- لا أظن ذلك.
- أنا واثق من براءته. وأكاد أتعرف على من ورطه هذه الورطة الشنيعة..
- إذا كنت واثقا من براءته فلا يجوز أن تخشى العدالة!
- ماذا تقول؟.. أنا لا أخشى العدالة، وخصوصا بعدما امتدت يدها إلى جيبي. لكن زيادة الحيطة واجبة.

لم يكن يحمل له أي مشاعر أو حب. وما كان يمكنه أن يكون رابطا يجمعهما قد شيعاه البارحة إلى مثواه الأخير. لذلك قال له:

- اعذرني، إني سأغادر الآن إلى وهران. فقد تركت كل شيء عالقا هناك..

وسار يتجاوزه بعدما برم بوقفته إلى جانبه..

المزمور السابع

في القلب وُشِمت زهرة

- 1 -

ها هي أحاسيس الماضي تعود من جديد وكنتُ قد افتقدها أو اعتقدت جازما بعدم جدواها..

ها هي تعود تحمل النبض نفسه والوجد نفسه والألق نفسه مع فائض في الشوق واللهفة والهوس والجنون..

ها أنا ذا أستمد السعادة من الألم والفرح من العذاب، وكأنه لم تعد لي لذة إلا في جلد الذات والاستلذاذ بتعذيبها..

ها أنا ذا أجثو على عتبة أقدام المرأة التي أحرقتني قديما، وأسلمها أعواد الكبريت لتحرقني من جديد..

ها أنا ذا أريدها وأرغب فيها، وكأنها لم تعبث بي يوما، وكأنها لم تسلمني نحو الهاوية وحتفي..

ها أنا ذا أريدها وأرغب فيها وقد عادت اليوم البلسم الشافي الذي أداوي به جروحي، والإكسير السحري الذي يعيد إليّ الحياة والشباب والأمل..

أمام ذكراها امحت الأحقاد، وذلك الغضب الذي ظل يعشعش في داخلي دهرا، تلاشى في الهواء كدخان ثقيل..

بل هو نفسه قد تحول إلى شذا يشدني نحوها، وكأني لم أعد أملك أدنى مقاومة، أو أنني عدت مسحورا لا أملك زمام نفسي..

أسير إليها الآن غير حافل بالدنيا أو المصير..

أم تراها أصبحت كل الدنيا وأصبحت المصير!

- 2 -

لأجل ماذا عدتَ ترغبُ فيها؟

أتريدها حبا فيها، أم بدافع الانتقام؟!

أبدا.. إنك تتألم وتتوجع ليس لأجل الانتقام، بل بسبب هوى مفرط كالذي دفع بك ذات يوم إلى الاحتراق، وكالذي سار بك نحو حتفك.. فلماذا تداري وتكابر؟

لا تكذب على نفسك، واعترف أنك عدتَ تحن وعدتَ تريدها وترغب فيها وتود لو تصل أيام زمان..

- 3 -

لم يجد تفسيرا معقولا لما يحدث معه. وكان لا يفتأ يسأل نفسه هل يمكنه أن يعود فيُحِب من جديد؟

عذره أن قلبه لم ينبض من قبل بمثل هذا الوجد، وأنه لم يــذق الهوى وأسراره منذ افتراقه عنها. وأنه يشعر من جديد بــدفق مــن المشاعر الرقيقة بعدما اعتقد جازما أنها انتهت وقُبرت إلى الأبد!

هل حقا كان لا يحتاج إلا إلى خض بسيط لتعود الروح فتسكن جسده المنهك، ويدق قلبه الميت من جديد ويعزف على وتر الشوق والحنين أجمل الأغاني والألحان!

في الفترة الأخيرة كان يلذ لعبد القادر أن يستذكر الأيام القديمــة التي جمعت بينهما. يسترجعها طوال ساعات فراغه. وإنه لا يزال يحتفظ بكل تفاصيلها ودقائقها وبمذاقها العذب والساحر؟ ثم ها هــي تتصــل بحاضره بقوة، وكأن ما حصل بينهما من انفصال لم يحصل أبدا أو مــا حدث هو خصام يوم أو بعض يوم، ثم ها هي المياه تعود إلى مجاريها..

إن قلبه متوثب يتوق إلى المغامرة، وروحه جامحة تنشد الفــرح، وعقله لا يريد أن يعترف بالخطر، فإما السعادة أو حياة أشبه بحيــاة الموتى!

لا يذكر من قال إن الخيبة جزاء قبضناه من وجه سقط منــا في الماضي. حتى إذا عاد فينا أزهر وجه الخيبة، وأثمر فرحا مــؤجلا.. ثم

ممن يمكن أن يكون قد سمع هذا الكلام؟.. ألا يكون هـــو مصـــدره وصاحبه؟ فما باله يدعي أنه لسواه؟.. أينشد تبريرا يكفله له كـــلام يصير أشبه بالحكمة إذا كان صادرا من آخر خبر الحياة أكثر منه؟.. يتصرف كمن لم يقتنع بعد؛ ثم ما حاجته إلى كل ذلك؟.. ألا يبـــدو مقتنعا وإلى الدرجة التي لن يقدر أن يزعزعه فيها أي يقين آخر عمـــا اعتزمه؟

- 4 -

وصل عبد القادر إلى مدينة مستغانم تحت سماء ملبدة بالغيوم ومنذرة بالأمطار.

نهض مبكرا بعدما جافاه النوم من شدة وجله وانشغاله بالتفكير. استحم وحلق ذقنه وأحسن صقل شاربيه. رجل شعره وارتدى ثيابا جديدة اقتناها قبل يوم من سفره، وكأنه على موعد هام وخطير. نظر في المرآة وابتسم عندما تعرف على نفسه. اكتشف أنه يبدو مختلفا. وسيما وأصغر سنا.

لا يدري متى فقد اهتمامه بما يرتديه، بل لم يكن لينتبه أن هذا يحصل معه أصلا. فقط الآن عاد يدري. يختلف مظهره في هذه اللحظة كثيرا عما كان يراه في المرآة سابقا. قبلا كان كل همه أن يظهر بشكل لائق ومحترم. أما اليوم ومن خلال الملامح الجديدة التي وضحت له يعترف أنه كان كمن لا يفقه شيئا في الأناقة. ولا عِلم من غير معلم، وفي حالته خير معلم له الشباب. وعزم أن يكون له منهم قدوة. لا حرج في ذلك. سيثق بهم في حالته هذه كما اعتاد أن يثق بهم على الخشبة.

ولأنه وصل مبكرا حط الرحال مؤقتا بمقهى الهلال. هناك تنسم ذكريات قديمة. لا يزال هذا المكان راسخا بذهنه، ويذكر أن هذا المقهى كان مجمع مثقفي المدينة إلى حين قريب. من هنا عبر شيخ حمادة، شيخ

جيلالي عين تادلس، خالدي، بوعجاج.. وشـــعراء ومـــداحي الشـــعر الملحون والبدوي والشعبـــي، ومن هنا كذلك مر ملحنوهم. وتســـاءل هل لازالت ترتاد المقهى بعض من تلك الوجوه القديمة!

أما المدينة من حوله، فلا تزال على سابق عهدها. لا شيء فيها تغير. هي نفسها التي احتضنت أزهى أيام عمره. كل ركن فيها ينطق بذكرى عزيزة على قلبه. فمن ذا الذي يشكك في جدوى الماضي أو يحاول أن ينفي تأثيره على الحاضر أو يعمل على طمس قيمته وأثره؟

سار ضاربا في غير هدى فكأنه يهيم على وجهه دون وِجهـــة محددة، لكنه انتبه للمفاجأة بعدما وجد نفسه أمام مدرسة "زروقـــي محي الدين". وفكر في الشوارع التي جابها منذ أن وصل إلى المدينـــة. اعتقد أنه يسير بلا غاية أو هدف، لكنه انتبه إلى أنه يخوض في الدرب نفسه الذي كان يعبره قبل نحو عشرين عاما، وها هو قلبه لا يـــزال عامرا بالذكريات ولا يزال حيا ويضج بالنبض والحياة.

هنا كان ينتظرها أيام الدراسة، ومن هنـــا كـــان ينطلـــق في صحبتها. وغير بعيد كانت تقوم حديقة عامة يلجآن إليها ويتقابلان تحت أشجارها ويتنفسان عبير الأشواق في جو من الهدوء لا تخترقـــه إلا زقزقة العصافير المغردة، فيشعران بالأمن والأمان. حينها كان يود لو يدوم اللقاء، وحينها كان يغوص متأملا في عينيّ من تقف قبالتـــه، ليتعرف في لونهما الأصفر الطازج على رفيقة الصبا، فيؤمن بالماضي، ويؤمن بالحاضر ويتوثق إيمانه بالمستقبل. وقد تتسلل يده إلى يـــدها، وإذا آمن إلى خلو المكان يقوم باحتضانها أو سرقة قبلة عاجلة تحمر لها وجنتاها على الأثر فتزيده لهفة إلى انقضاء الأيام سريعا ليسير بهـــا إلى الزواج. وقد همس له فجأة:

- إني لا أتصور الحياة من دونك..

ليتنفس في انبهار، وينطق بدوره:

- وأنا من دونك سوف أجن أو أفقد الحياة..

لكنه لم يجن و لم يفقد الحياة وهو يراها ترتضي أحضان زوج سواه دون سابق إنذار أو إخطار؛ كذلك سارت هي مواصلة الحياة من دونه راضية بمصيرها الجديد، فما معنى أي شيء!

وجد نفسه ينتظرها وسط زحمة شديدة. كان مركز البريد والمواصلات أين تشتغل حورية يقع في وسط المدينة وفي مكان يشهد بطبيعته زحاما واختناقا وفوضى كبيرة.

غمرته الفرحة وهو يراها تخرج. وجدها تسير عكس الاتجاه الذي كان يقف فيه، وكان يفكر أن يضع نفسه في مواجهتها فمضى مهرولا يخشى أن يفقد أثرها.

قابلته في فرح، وصافحته بحرارة، وغمغمت:

- لا أصدق ما تراه عيني! ماذا تفعل هنا؟

ووجد نفسه مضطرا للكذب حتى لا يفضح مشاعره الحقيقية، فقال:

- جئت في زيارة عمل، ثم تساءلت هل يمكننا أن نلتقي؟

أخيرا ها هو يقف أمام معذبته أو ملهمته الأولى. وشعر بخفة عجيبة تسري في أوصاله فكأنه أخذ يحلق في السماء بجناحين أو يسبح في فضاء ليس فيه إلا عبيرها. ومن فرط نشوته حار في وقفته لولا أنها أدركته بقولها:

- سيسعدون كثيرا برؤيتك في البيت..

تحجج أن وقته ضيق ولا يسمح. ثم دعاها إلى السير، فاستجابت وهي تتلفت خلفها وحولها..

سألها في ارتباك وقلق واضحين:

- هل لديك فكرة عن مطعم مناسب يمكننا الجلوس فيه؟

وأشارت إلى أنها تعرف واحدا..

سارا نحو ساحة البلدية، ومنها أوغلا صعودا نحو المطاعم الموجودة في شارع "بن يحي بلقاسم". وخلال سيرهما انتبه إليها تحدثه:

- ما كان يجدر بك أن تقاطعنا جميعا، وبدون سبب.

حدث نفسه: "آه، لا تكوني عابثة! كيف تقولين بدون سبب وأنت تقفين على الأسباب جميعها"؛ لكنه قال لها:

- كان هناك دائما ما يمنعني، صدقيني..

- أظن أننا لم نرك منذ غادرتنا إلى فرنسا..

وودّ لو يقول لها أيضا: "بل الأحرى منذ زواجك، إذا ما حسبت الزمن بالدقة المنشودة!". لكنه بدلا من ذلك رد يقول:

- أظن ذلك..

- إنها فترة طويلة لم تفكر فيها حتى في زيارة المرحومة والدتك!

- طول هذه الفترة لم يكن يشغلني إلا الغضب والثورة. ثم إنك لولا اعترضت طريقي في آخر لحظة لما عرفت طريق العودة. والحقيقة، أني اكتشفت متأخرا أن الأمر كان يحتاج إلى مراجعة..

- 5 -

في المطعم تبادلا الابتسام. ثم أقبل النادل يسألهما ماذا يطلبان للغداء..

لأول مرة يتاح له أن يتأملها بإمعان. كانت قد رمت بالحجاب خلف ظهرها، وظهرت في سفور معتنية أكثر بمظهرها. التقاها وهي ترتدي "تايورا" بـ "جِيب" قصير يصل إلى مستوى الركبتين مع سترة جلدية طويلة. وكان شعرها مسرحا بعناية ووجهها ملوَّنا ولا أثر لأمارات السن المتقدمة عليها..

شعرت بالارتباك ولاذت إلى الصمت وقد وجدته يتفحصها بإمعان. اصطبغت وجنتاها بحمرة وردية متألقة، فبدت أكثر نضارة وإبهارا.

خرق الصمت وهو يسألها:

- ألا ينتظرونك في البيت؟

قالت:

- أحيانا أضطر بسبب العمل إلى الاكتفاء بوجبة طعام سريعة على تحمل مشقة العودة إلى البيت لأجل الغداء. ولهذا غالبا لا تجدهم ينتظرونني..

وبعد الطعام شبكت بذراعيها على الطاولة. كانت قد انتهت للتوِّ من سرد سيرة حياتها السابقة. زواجها وطلاقها ثم عودتها إلى

منزل والديها ذليلة وفي صحبتها ولدان. وبدت عيناها تنطقان بالحزن كمن بات بلا حول ولا قوة. ولقد قالت أيضا وفي حسرة:

- كان رجلا يلعب بالمال لعبا، لكن القضاء لم يسعفني معه حتى بشقة لتربية الأولاد.
- وهل يأت لزيارتهم؟
- أنت لا تفهم. إنه قاطعنا كليا. كيف يمكن لرجل يملك الدنيا أن يلتفت خلفه؟

وحدّث نفسه: "لكن ألم يكن هذا هو نفسه من فضلته على رجل أحبك بصدق؟ وكانت خالص أمنيته أن يتوجك معبودته الوحيدة؟!"..

وخمن أن ذلك ربما ضريبة دفعتها جزاء ما اقترفته في حقه. والمهم أن تكون قد تعلمت الدرس؛ وهو في أمس الحاجة إلى امرأة خبرت الحياة. سيجدها حينها تحرص عليها بعدما عرفت ما لها وما عليها.

- لم أعرف يوما حلوا معه. وكان في حالة سكر دائمة، وزير نساء. ومرة في سهرة ألح علي أن أراقص أحد أصحابه. وحين لم أعد أقو على الصمود أكثر طالبته بالطلاق فوافق شرط أن أتنازل عن جميع حقوقي..

نفضت رأسها، وكأنها تطرد عنها كوابيس مزعجة. وبان واضحا من نبرتها أنها تعتبر تلك الفترة من حياتها سوداء تماما، وأن ما تعيشه اليوم نتائج حتمية لها، ولهذا فهي تصر على أن تتحملها بجلد..

- وجب علي بعد ذلك أن أعمل حتى أقدر على تربية الولدين وإعالة الأسرة، وخصوصا بعدما تدهورت صحة والدي..

- ألم تفكري في الزواج ثانية؟
- بعد تلك المحنة!

وكمن استدرك أردفت تواصل:

- ثم من يرضى بامرأة مطلقة ولها ولدان. أظنك تفهم؟.. إعادة التجربة تحتاج إلى جرأة ومقامرة، وأنا ما عدت أملكهما..

ورغب عن هذا الحديث لكنه سألها:

- وماذا تعدين للمستقبل؟
- لا رجاء لي إلا في تربية الولدين.
- وهم خير عزاء لنا في الدنيا إذا ما تحققت لهم التربية الصالحة..
- نعم، صدقت. وإن كانوا أحيانا مصدر لمتاعب لا تنتهي. والحقيقة أنه لولا أمي التي تساعدني على تربيتهم لأعلنت إفلاسي وعجزي..

لكن هل يتشفى بهذا الانحدار، ويروي غليله من هذا السقوط المدوّي!

- وكيف تقضين وقتك فيما عدا مشاغل العمل والبيت؟
- ليس هناك شيء أعمله البتة. أما التلفاز فهو سلواي الوحيدة في هذه الدنيا!
- هل تريدين القول إنك اليوم غير سعيدة؟
- أنا لم أقل ذلك، كما أنني لا أواجه نفسي بمثل هذا السؤال!

لماذا أيضا يريد أن ينتزع منها اعترافا بأنها غير سعيدة؟.. هل ليقول لها بطريقة ما إن ما حصل معها جاء نتيجة تخليها عنه، وإنه وحده من كان يملك مفاتيح السعادة؟

وأعقبت تتساءل في تسليم بعدما وجدت نفسها أمام فكرة ما..

- ثم كيف يمكن للإنسان أن يعرف السعادة وهو في وضع الغريق؟
- من يسمع كلامك يعتقد أنك امرأة جاوزت السبعين وقطعت كل رجاء!
- المرأة عندنا إذا ما طلقت تنتهي مدة صلاحيتها، فما بالك إذا ما عادت مطلقة وبولدين ومسؤولة عن أسرة كاملة؟
- على الأقل أنت لك ما تعيشين لأجله!
- لكني سمعت بنجاح عرضك الأخير في تونس!
- كل ذلك غير مهم. معي أنا مات الإيمان القديم. والمؤلم حقا أنك بعد كل هذه السنين تجدين نفسك وحيدة ورهينة سجن كبير..
- أنا كذلك أشعر أني منبوذة، كما تبدو لي الحياة أحيانا قاسية وغير محتملة. ولولا الولدان لكنت انتهيت..

ما عاد يهتم بما يفعله الزمن بالإنسان. وحسبه قلبها والمشاعر التي توقظها فيه. إنها تملأ جوانحه، وخيالها لا يكاد يبارح يقظته. بل إنها عادت تحرم عنه النوم، وتشكل الفلك الذي يسبح فيه.

لكن هل هي تدري بانشغاله بها وعدم اصطباره ولوعته؟ أم عليه أن يخبرها بكل ما بات يعانيه ويحسه ويختلج في فؤاده؟.. وقرر أن يكاشفها، وحسبه ما ضاع من العمر.

انتبه عندما وجدها تنظر إلى الساعة في معصم يدها، وقال لها في حرج:

- ربما حان الوقت لتعودي إلى عملك!

هتفت وكلها رغبة في البقاء معه مدة أطول:

- ما يزال هناك متسع من الوقت أيضا.

أما هو فبدأ يقدر أن وقته معها ينفذ..

نظر إليها وهو يعتزم أن يخطو خطوة كبيرة إلى الأمام. وقال في تصريح خطير:

- فكرت أن أعيد حبل ما انفرط، ولعل ذلك يسعفني في اللحاق بشيء من الماضي ويمنحني بعض العزاء والفرح.

تنفس الصعداء. وآمن أنها لا بد تشربت إشارته، لكنه انتبه إليها تقول كمن لم يتفطن إلى مغزى كلامه:

- كان الأجدر بك أن تلحق بالمرحومة أمك. إنك لا تدري كم تعذبت في أيامها الأخيرة!

كانت قد فتحت بابا آخر للحديث. ووجد نفسه يقول في يقين وصدق:

- إن هذا يحزنني ويعذبني أيضا. كما أنني لا أفتأ أعيد التفكير في كل شيء، وكم أود صادقا لو أستعيد ارتباطي بعالمي الأول من جديد؟
- ستجدنا جميعا في انتظارك.
- كذلك أفكر في زيارتكم كلما سنحت لي الفرصة، فلم يعد لي في الدنيا أحد.
- نحن أهلك فلا تتردد في طرق بابنا.
- كما أرغب في صداقة حقيقية أكسر بها جدار الوحدة الخانق.
- ستجد في كنفنا كل ما تأمل فيه وترغب!

في الخارج تعرضا لزخات من المطر، فاستخرجت مظلتها من حقيبة اليد التي تحملها وأسلمتها له. فتحها وأشرعها فوقهما. وقطعا ما تبقى من الطريق متلاصقين وكزوجين سعيدين. وأمام مبنى البريد قال لها:

- أرجو أن نبقى على تواصل دائم..

وانتبه إليها تلتفت إليه قبل أن يغيبها المدخل الرئيسي. ابتسمت ولوحت له بيدها مودعة. فتشرب إشارتها بفرحة طاغية، وبدوره حمل يده ولوح لها..

آه، من قال إن الإنسان إذا ما شارف على الخمسين لا يمكنه أن يرتد إلى العشرين من العمر!

أمكنه أن يعود وقد سحب شيئا منها. رقم الهاتف عطاء عظيم له أن يذلل ألف عقبة في الطريق. وقد يكون له حظ السحر فيعيد أيام المناجاة التليدة.

في طريق عودته استمر هطول المطر بشكل متقطع، ثم لانت السماء وأطلت الشمس من بين السحب كفاتنة بعد غياب.

نظر إلى العالم من حوله وقد غسلته الأمطار وجلت جوّه القاتم. تهلل وجهه وداهمه ارتياح عظيم.

الآن يمكن للإنسان أن يتنفس بعد اختناق..

وأصر على أن يشد على هذه الهبة بقبضتيه ونواجذه حتى لا يضيعها. كما عليه ألا يفرط في هذه السعادة بأي حال من الأحوال. وفي رغبة صريحة أعلن بينه وبين نفسه: "يجب أن أعوض ما فاتني!"..

- 6 -

تحت سماء غائمة ومنذرة كتب لهما أن يلتقيا أكثر من مرة. وخلال لقاءاتهما كان لكل شيء طعم مختلف. الشوارع والمارة والأشجار والطرقات..

بدت الحياة ممكنة لعبد القادر. والدنيا من فرط سعادته عاد يراها جميلة وملهمة فكأنها تبدلت إلى أخرى. وقدر أن ما يناله أكثر مما كان يرجوه ويتمناه. وكانت إذا ما عنت على باله شعر برغبة قوية في أن يقفز فيكون إلى جانبها. وكان يهتف أحيانا بملء صوته غير عابئ بما حوله: "أريدها.. أريدها.. أريدها..!".

كانا إذا ما باغتتهما الأمطار يلجآن إلى أقرب كافتريا يحتميان بها. لحظات من السعادة النادرة تلك التي كان يقضيها إلى جانبها. وفي حضورها راح يترجم لها عن مشاعره في كلمات معبرة ودافقة فكأنه أصبح ينطق شعرا أو كأنه ارتد إلى سنين مراهقته الأولى.

لقد كتب لها مرة رسالة كتلك التي كان يدبجها لها في الماضي. بادلها فيها لواعج الحب ودلل لها فيها على أشواقه. ثم أعجبته تلك الحالة فأخذ يسترسل في كتابة الرسائل لها حتى ادعت أنه يعاقبها لما كان لزاما عليها أن تقرأ ما جاء فيها. وكانت تبدو شديدة السرور. وكيف لا وقد جعلها محبوبته الجميلة وتوجها أميرة على عرش قلبه

وصور لها الدنيا جملة من الوديان والأزهار والريحان وحالة من النشوة والوجد والجمال، وانتهى إلى أن الحياة تصير مستحيلة من دونها.

كان يطلبها على الهاتف كلما وجد الفرصة مناسبة. وأحيانا يظل يسامرها إلى ساعة متأخرة من الليل. يخوضان خلالها في أحاديث طويلة متشعبة لا تود أن تنتهي فكأنما انشغلا بما هما فيه عن كل شيء في الدنيا؛ حتى أبدت له مرة عجبها، وسألته من أين يأتي بهذه القدرة العجيبة على الحديث.

قالت له مرة: "أتساءل كيف تصرف أيامك خصوصا وأنك وحيد بلا زوجة أو أبناء". وسألته مرة أخرى: "ألا تجزع من الوحدة!". وقالت له في مرة ثالثة وهي تطلق ضحكة ذات معنى: "أحيانا أحدث نفسي وأقول هل بات يخشى الارتباط مجددا؟ وأتساءل كيف تتحمل الوحدة ولا تفكر في الزواج ثانية؟". وفي مرة أخرى قالت: "أتساءل دوما كيف تعيش لوحدك؟". وذات مرة أعلنت له عن رغبتها في زيارته في مسكنه لتطلع على أحواله وكيف يعيش. وكم رحب بفكرتها..

في شارع "سانت أوجين" أين تقع محطة سيارات الأجرة وجدها في انتظاره. تناولا الغداء في أحد مطاعم شارع خميستي ثم سارا مباشرة إلى شقته. هناك لاحظ امتعاضها عندما بدت غير قادرة على إخفاء خيبتها. وكمن وقف على أسباب خيبتها قال لها: "لي ما يوفر لنا حياة سعيدة، فلا داعي للقلق". ثم وجد نفسه يفكر في مدخراته الشحيحة، وإن بدا عازما أن يصلح أحواله ويضع حدا للتبذير ليتم له ما يريد.

- 7 -

عبر الهاتف وصلته أخبار غير مطمئنة. أخبرته حورية بإقدام زوج أمه على الزواج من جديد. وكمن وقع تحت وطأة مفاجأة غير سارة جزع وتساءل غير مستوعب كلامها:

- لكن أليس قابعا في السجن؟

قالت إنها سمعت بإطلاق سراحه قبل عدة أيام، كما أنها شاهدته مساء البارحة أيضا مارا بجوار بيتهم. فغضب واستاء وزفر في حنق:

- لكن كيف نَفَذَ وكأن شيئا لم يكن؟

هل تألم للعدالة التي تصر على الغياب؟ أم لشيء له صلة بالماضي؟.. هل جزع لنبوءة والده التي لم يكتب لها أن تتحقق بعد على هذه الأرض المنتهكة؟ أم لأنه لم يغفر يوما لرابح زواجه بأمه؟

ها هو النذل بالثوب ذاته لا يريد أن ينزعه عنه أو يغيره.. ها هو كما عهده لا يحفظ عهدا ولا ملة.. ها هو يبيع أمه كما باع كثيرين من قبل؛ وكل شيء هين عند هذا الرجل إلا ما ارتبط بشخصه وبأحلامه العظيمة!

تسلطت على عبد القادر ذكريات سوداء زادت من كدره وانزعاجه. ود لو يخلو إلى نفسه قليلا. لم يعد يبدو أنه ينصت إلى محدثته أو كأن كل ما عاد يسمعه صوت الماضي الذي اكتسح فضاءه كله. وحاولت حورية أن تهون عليه فقالت:

- لا تخشى شيئا، ولا تنسى كذلك سوء السمعة فإنها تبقى عالقة. والناس تتكلم..

عبثا راحت تستميله إلى الحديث بعد ذلك. لقد وجد نفسه زاهدا في كل شيء. وداهمه فتور قاتل، وإن ظل داخله يموج بالاضطراب. وكان أبعد من أن يستجيب لرغبتها في الحديث وإن جاراها فيه وحاول أن يضحك لتفاصيل عابرة. لأول مرة يشعر أن حديثهما ثقيل وأن ضحكهما بلا طعم.

المزمور الثامن

مسالك العُتمة

- 1 -

مضت الأيام ثقيلة لا حماس فيها. وحدث أن زاره صديقه القديم عمر الصحفي في مكتبه. تصافحا بحرارة وكما يليق بصديقين قديمين. وأخبره عمر:

- اقترحت على رئيس تحرير جريدتنا أن نقدم أجزاء من عملك على شكل حلقات متسلسلة في الصفحة الثقافية. والظاهر أنه تحمس للفكرة، فأرجو أن تكون جاهزا وتعد لنا الحلقات الأولى منها..

إن هذا كفيل بأن يبعث فيه روحا جديدة ويحفزه. وشكره عبد القادر في امتنان خالص. وعاد عمر فقال:

- ولكن لي عندك رجاء، فلا ترجعني خائبا..

أخبره أنه يخوض حاليا تجربة في السياسة، وأنه انضوى تحت لواء حزب تكوّن حديثا. ضمَّ إلى جانب شخصه مسؤولين هامين ونخبة مثقفة لا يستهان بها. واستعرض أمامه خطوط الحزب العريضة، وطلب منه أن ينضم إليهم ويكون يدا معهم. كما طالبه أيضا أن يدعمه بالمسرح ليقدم فيه برنامج حزبه.

لم يعجب الجزء الأخير من الحديث عبد القادر. وتصور نفسه كسمكة سهل اصطيادها. ها هم يغرونه بأي شيء مقابل أن يكون

في صفهم. ولّمح لصديقه عمر بصعوبة تحقيق مراده. وقال له إن المسرح مرتبط هذه الأيام بمواعيد ثقافية هامة. لكن صديقه ظل يصر ويطارده في إلحاح شديد. فحدث نفسه أن لا مناص من مواجهته بجواب قاطع بدل التلميح الذي لم يستوعبه أو لم يرد أن يرضخ له باعتباره جوابا غير حاسم.

قال له هذه المرة وبملامح جادة:

- المسرح ليس للدعاية. ويجب أن يبقى بعيدا عن الصداقات كما أرجو ألا تفهم كلامي خطأ أو تفسره على غير ما أرغب أو تحمله ما لا أريد.

وتجلت الخيبة على وجه عمر الذي قال:

- حسنا، أنا أفهمك..

- كم يسعدني أن أجدك تقول هذا.

ولم يكن يبدو أنه يفهمه، أو لم يكن مستعدا لذلك فقد عاد صاحبه ليقول:

- لكن أتمنى حقيقة أن تزورنا في مقر الحزب..

ووجد نفسه يرد عليه ويقول مرغما، وإن خرجت كلماته ميتة:

- سيكون من دواعي سروري أن أتعرف عليكم.

وهتف صاحبه كمن أحرز نصرا:

- وسيظل الباب مفتوحا إذا ما فكرت وقررت الانضمام إلينا.

ولم يكن من بد. فأجبر نفسه على العودة إلى حديث الحسم عينه، وقال دون الشعور بالراحة:

- شكرا لك. لكن كان لي في السياسة تجربة مرة، وأظن أنني لن أعيد الكرة ثانية. صدقني إنها لا تنفع أمثالي.

وعاد صديقه إلى المناورة من جديد:

- ربما سيكون الأمر مختلفا هذه المرة!

وقال عبد القادر على مضض غير مرحب بالجدال في هذا الموضوع بالذات:

- لا أعتقد ذلك. كما أن السياسة تطرح جملة من الالتزامات التي لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أخضع لها. لن أقايض بحريتي الشخصية شيئا..
- أتمنى أن تفكر في عرضي بجدية أكبر. كما أرجو أن تتأمل فيما يمكنه أن يتيحه لك من امتيازات..

ولا يدري لماذا ذكرته جملة صديقه الأخيرة بزوجته وردة. ولعل كليهما زوجته السابقة وردة وصديقه عمر ينظران إلى الحياة من الثقب نفسه. ونطق يرد على جملة صاحبه الأخيرة في انزعاج ظاهر لم يسع لإخفائه:

- أظنني لا أقدر. وإني أحدثك بصراحة.

وبدل عمر محاولة أخيرة علّ جانب صديقه يلين، لكن لم يجد منه إلا الرفض الصريح. كما قال عبد القادر يسد عليه كل منفذ:

- صدقني لا أقدر. وصدقني أيضا عندما أقول لك إني لا أشعر بالرضا عن نفسي وأنا أرفض طلبك، لكني أيضا أرفض كل استغلال لمنصبي، كما أرفض أن أنحرف بإرادتي عما يمليه علي ضميري وواجبي.

ثم شملهما الصمت. وكان يؤذن بتغيير مجرى الحديث أو فض اللقاء. وتعلل عمر بأن له موعدا مع مدير سينما "مرجاجو". وانصرف شاكرا، دون أن ينسى دعوته إلى التفكير من جديد في عرضه. فربما يغير رأيه..(*)

(*) الصديق عمر لم يبق على صلة بالحزب الجديد الذي انظم إليه لأكثر من سنة. لقد آثر الهجرة إلى دول الخليج على أيام انفتاحه الأولى، وما لبث أن صار هناك وجها إعلاميا بارزا، ثم قفز يشغل منصب مدير لإحدى القنوات التلفزيونية. كذلك هو اليوم مساهم بارز في واحدة من أكبر الجرائد الوطنية في الجزائر وإن لا يذكر فيها اسمه. للرجل أيضا استثمارات عديدة داخل وخارج البلد، ويمكن القول إن البزنس عنده امتد ليصير كل شيء وأي شيء.

- 2 -

لقد قامت الأساطير والأديان والفلسفات القديمة على مبدأ الصراع بين الخير والشر؛ كذلك اعتمدت الفنون القديمة على قانون التصادم بين الأضداد. ويبدو هذا واضحا وجليا في المسرحيات الإغريقية (سوفوكليس - يوربيدس - اسخيلوس)، كما جسدته مسرحيات عصر النهضة في أوروبا.

إن المتلقي في الفنون لا يريد إلا الخروج بحكم أملاه عليه تكوينه الديني أو المعرفي أو العرف أو المجتمع. وهو بذلك غير مستعد لتقبل فكرة النسبية ما لم يكن متلقيا نوعيا، خاضعا في ذلك لرغبته في الوقوف على ماهية الأمور وتقسيمها بين خير وشر حتى قبل استيعابها.

إن الأعمال التي تمنحنا شخصيات تمثل الخير المطلق في مقابل شخصيات أخرى لا تحمل غير الشر تتعارض مع فكرة النسبية، والتي هي في الأصل جزءِ من طبيعتنا الإنسانية وما بات يحكم عالمنا اليوم. وعليه فوظيفة الفنون الأساسية وهمّها المطلق في الزمن الحاضر هو إثارة الأسئلة؛ أما اليقين فيظل برأيها في درج الرب، ولا أحد يعرف أين خبأ الله مفتاح درجه.(*)

(*) كان هذا رأي عبد القادر في الفن، ولا أظنه يختلف عن رأيي. ولهذا أنا أرثي كاتبا مثل باولو كويلو عندما أجده يصر على مبدأ التصادم في بناء

……………………………………………………………………………………

أعماله الروائية مركزا على تبسيط قضايا لا يمكن تبسيطها في العادة وأما البُهار فغالبا حِكم قديمة يدعي عبرها فهمه للحياة. ثم إن (حكمه) هذه أشبه بأحذية بالية أعاد ترقيعها وتلميعها فقط؛ فتجدها سخيفة وتثير الغثيان. لا شيء وارد في نصوصه غير فلسفة ضحلة وأفكار مبتذلة وآراء عقيمة يقدمها صاحبها ويروج لها وكأنه امتلك ناصية الحقيقة والحسم.

إن ما يقدمه كويلو وأشباهه أشبه بالمغلف الورقي الملون اللامع الجميل لا يثير إلا الملهوفين الذين لا يسعهم أن يبصروا أن المضمون حلوى رديئة.

- 3 -

إن ما يحدد أفعال الإنسان ليس طبيعة خَلقه أو إيمانه بـــالمطلق، وإنما تراكم الخبرات التي تكونت لديه، والتي تولدت عنها مجموعة قيم جديدة مرتبطة بوعيه الإنساني من جهة وبالمصلحة التي تحكـــم بـــين الأشياء من جهة ثانية. وقطعا أن رأيه اليوم يختلف عن رأيه القديم في رجال الثورة. من قبل كان يراهم رجالا معصومين من الخطأ، ثم إنهم اليوم قد انقلبوا على أنفسهم فصاروا أشبه بالمسخ الذي يثير رثاءه.

ويذكر أنه تعرف في باريس على أيـــام هجرتـــه الأولى علـــى مجموعة كانت تعتبر نفسها صوت المعارضة في الخارج. انضم إليهـــا بعدما سمع أن السلطة وراء اغتيالات عديدة مست شخصيات وطنية وتاريخية معروفة، وربما كان والده أحدهم.

عمل مع أعضاء المجموعة، خبرهم. واكتشف أن همّ أغلبهم هو التطويح بالنظام لأجل مصالحهم الخاصة والضيقة، وانتقاما للإقصـــاء والتهميش في إدارة البلاد. لاحظ كذلك صراعاتهم الداخلية ونعراتهم الشخصية. كما حيرته مصادر أموالهم وتموينهم. وكانت الصدمة يوم وفاة الرئيس هواري بومدين. فلقد عاد بعضهم إلى الـــوطن ليتقلـــد مناصب هامة في الدولة. وأدرك أنه كان ضحية خداع ومكر.

أليس مثل هؤلاء من حارب أباه؟.. ألم يقولوا عنه إنه لم يكـــن هناك شيء يرضيه غير عودة الحق إلى أصحابه، وأنهم علـــى نفـــس

الدرب يسيرون؟.. ثم ما الذي يمنع أن يكونوا هم وراء تسوية هدفت إلى إزاحة والده ومسح دمه في إزار السلطة البريئة من دمه؟.. أيهما يصدق؟ وأين هي الحقيقة الثاوية؟.. أعداء البارحة إخوان اليوم، وفي الغد الله يعلم. وها هي جماعة أخرى تكاد تكون نفسها تعقد اجتماعا في "مونتي فيديو"، وتوقع عريضة للتدخل الأجنبي. وتقف إلى جانب الحملة العدائية الوقحة التي تمارسها السلطات الفرنسية ودول الجوار.

ها هم ينفخون في البوق ويصفون ما يحدث في الجزائر بالحرب الأهلية. ويصورون الذين في الجبال بأصحاب الحق المنبوذين. والجيش ومؤسسات الدولة بالقوى المتحكمة والجائرة. هدفهم الوحيد والأوحد -وكما خَبِر- المشاركة في اقتسام الكعكة والحصول على أفضل جزء منها. هكذا كانوا وكذلك سيكونون، مراهنين وكما اعتادوا أن يفعلوا دائما على الحصان الذي سيكسب الجولة الأخيرة.

- 4 -

كأنها عادت تتجنبه. منذ فترة وحورية لا تسأل عنه حتى ضاق بالأمر. وفي جو من الحيرة والقلق سافر إلى مستغانم. عرج عليها في عملها. ووجدها تستقبله بفتور عجب له. وعندما سألها ماذا حدث. قالت له:

- هناك من أخبر أمي أننا نلتقي. وهي أصبحت تضيق علي وتصر على وضع حد للقاءاتنا، وتقول إذا كان عبد القادر يريدك حقا فليتقدم ويطلب يدك من والدك!

ثم بعد حديث مطوَّل، عادت فقالت:

- يجب أن نعجل بالزواج ما دمنا نراه رغبتنا الأخيرة.

في تلك اللحظة تساءل عبد القادر: "هل حقا أريد الزواج منها؟". ولقد ظلت الجملتان: "يجب أن نعجل بالزواج ما دمنا نراه رغبتنا الأخيرة." و"هل حقا أريد الزواج منها!" تشغلانه بعد ذلك لأيام.

لم يستطع تجاهل رغبتها والتي كان يتصور أنها رغبته أيضا لولا ما أخذ يشعر به وهو يقف على وقع كلماتها عليه. يومها رد عليها يستمهلها قليلا. كان لا يزال يعتقد أن الزواج ليس النهاية الحتمية لكل علاقة، وإن كان يعتبر الوضع مختلفا هذه المرة ما دام أنه يقف أمام حبيبة الصبا؛ ثم أيضا إن أيام العمر تنقضي بلا رحمة ولا معنى للعطلة؟

كان يؤمن أن عليه ألا يسير إلا بتحريض من رغبته. ورغبتـــه هذه المرة كانت وليدة ورهينة الماضي الذي أخذ يشده إليه بسلاسل من حديد. ويود لو يقدر فيربط مصيره بذلك الماضي العزيز عليه حتى لا يدعي أنه فقد شيئا؛ لكن هل هو مستعد ليفعل ذلك مهما كانت الظروف؟

إن هناك ما يحيره ويجعله يتردد ويأخذه بعيدا عن حالة الحماس التي عاشها في أوّل لقاء جمع بينهما وعن تلك المشاعر العميقة الـــتي آمن بانبعاثها من جديد وهو يشهد عودتها إليه. ووجد نفسه يتساءل أيضا فزعا: "هل كسرت رغبتي فيها وبدأت تموت؟"..

حاول التغلب على ما ينتابه من أحاسيس متناقضة، واعتـــبر أن مرد ذلك خوف لا مبرر له. وبما أنه يريدها ويرغب فيهـــا ويراهـــا الوحيدة الأجدر به والأقدر على منحه السعادة التي ينشدها فليتقـــدم وليطلب يدها للزواج.

أخبرها أن تأخذ له موعدا مع والدها. وأمام كلماتـــه تهـــدج صوت الفتاة وتهلل وجهها ودبت فيها فرحة طاغية لم تستطع لجمها؛ أما هو ورغم تجاوزه لحالة التخبط والحيرة إلى الحسم والمبادرة، فقـــد كان كمن لا يفهم نفسه. وكان يبدو أنه أقرب إلى الاستســـلام إلى الأمر الواقع منه إلى أي شيء آخر.

- 5 -

أقبل عليها يحاول أن يضمها إلى صدره كعادته كلما رغب في قتل رغبتها في العراك وامتصاص ثورتها ونقمتها حتى تمر العاصفة في هدوء؛ لكنها هذه المرة دفعته عنها في عنف وهي تقول:

- اتركني، أنا لم أحضر إلى هنا لأجل هذا!

عندما وجد عبد القادر إيمان أمامه داهمه شعور بالضيق والفتور. نفس الإحساس الذي أصبح يشعر به كلما التقى بها في الفترة الأخيرة. كذلك شعر بالحرج لإهماله لها. كما أدهشته الحالة المزرية التي جاءته بها، حتى حدس أن هناك مكروها أصابها وكان سببا في زيارتها المفاجئة.

وقفت أمامه شاحبة وهزيلة. وبدت ملامحها حزينة وكأن مصابا جللا ألم بها. وبانت عيناها غائرتان ويكتنفهما السواد من شدة الأرق والإجهاد. وكانت ملابسها مبللة ومشبعة بالماء. ولا بد أنها سارت مسافة طويلة تحت المطر الذي لم يتوقف عن الهطول منذ الصباح. ولولا شدة تواتر أنفاسها من فرط الإجهاد لقال إنه أمام جثة حقيقية.

تساءل ما الذي حدث، وكيف شحب لونها، وارتدت إلى هذه الحالة من الخور والضعف؟.. وتساءل أيضا ما الذي يدفع بها إلى الحضور الآن وفي مثل هذه الظروف السيئة؟

ووجد نفسه يخاطبها وهو يركب ابتسامة واهنة تعلوها علامات الحيرة والتساؤل:

- ما الخطب؟ وما الذي دفعك للمجيء في مثل هذا الوقت المتأخر؟

اندفعت إيمان نحو الصالون وهي تقول في صوت حاول أن يحافظ على نبرته المعتدلة:

- رأيتك لا تسأل في الفترة الأخيرة، فقلت لأسأل أنا عنه!

وقال وهو يحاول القفز على مشاعر القلق والارتباك:

- حقا!.. لكنها زيارة غير متوقعة؛ ثم كان يمكن ألا تعثري علي في البيت!

حاول أن ينشغل عنها بما تثيره فيه مفاتن جسدها. وهذا ما كان يحدث له معها كلما وجدا نفسيهما على انفراد. اقترب منها يضمها إلى صدره من جديد؛ لكنها واصلت صده عنها في عنف، وهتفت مختنقة:

- أتركني! أنا لم أحضر إلى هنا لأجل هذا؟

بان عليه الغضب. وكان هذا سلاحه كلما داهمه الخطر من جانبها. وقال في توتر وثورة:

- ها أنت تبدئين بالمشاحنة ثم بشجار لا ينتهي كعادتك معي كل مرة!

- وهل أنا السبب؟.. لقد ورطتني معك، ثم ها أنت تتنصل من كل مسؤولياتك، وتتجاوز عني إلى حيث لا أدري وكأنك لم تعد ترغب فيّ؛ ثم تتوقع أن أستسلم لك تحت ضغط معاملتك السيئة لي أو أن يصيبني الملل فأنصرف بعيدا عنك وكأن شيئا لم يحدث بيننا؟

كانت كلماتها أشبه بالحقيقة العارية. وكانت ذات وقع حاد عليه، فحاول الكلام والدفاع عن نفسه، لكنه بدا كالعاجز. بينما قالت الفتاة في صيغة مباشرة:

- لم أحضر إلى هنا إلا لشيء واحد. أنا هنا لأسمع منك جوابا حاسما على سؤالي الذي تعرفه "متى يمكننا الزواج؟!"..

حاول أن يتهرب هذه المرة أيضا من الجواب مؤجلا الحسم في المسألة كعادته، لكن الفتاة ظلت تلح على الظفر بجواب قاطع..

- هيا قلها صراحة إنك لم تعد ترغب فيّ، واطردني من هنا كي لا أعود ثانية!

وانتزع من نفسه جوابا فاصلا. فقال:

- أنا غير مستعد لشيء الآن.

لم يقدر على أن ينظر إلى وجهها ومواجهتها وهو يطلق كلمات الحسم الأخيرة والتي قالها بكثير من الارتباك والإشفاق. وأما إيمان فقد بدت غير متفاجئة من كلماته وكأنها كانت تتوقعها:

- تماما كما تصورت. والآن لست عاتبة عليك، فكل اللوم يقع عليّ أنا التي صدقتك..

ثم من فرط إحباطها اندفعت نحوه. انقضت عليه كثور هائج فقد زمام نفسه. وأخذت تضربه بقبضتيها على صدره بينما راح هو يتراجع إلى الخلف حتى كاد يقع. حينها حاول شدّها من معصمها ليكبح جموحها، وعندما لم يقدر لطمها على وجهها بقسوة؛ لكنه وجدها تطلق العنان للسانها..

أخذت تشتمه. فعلت ذلك حتى تنفض عن نفسها كل ما علق بها من إهانة. ثم أخيرا سارت باتجاه الباب..

قال لها: – يمكنك أن تنتظري هنا حتى الصباح!

لكنها منحته نظرة خالية من أي معنى. وواصلت سيرها خارجة..

لم يكن راضيا عن نفسه معها. وقبع خلف النافذة يخامره إحساس قوي بأن كل شيء بينهما انتهى، وأنه لن يراها بعد اليوم. وحاول ألا يهتم..

ثم أليس هذا ما كان يريده؟.. ها قد تبدد ما كان يخشاه كالوهم، فما باله منقبض وحانق؟

في الخارج كان هناك ظلام الليل. وكان صوت الريح أشبه بعواء شديد ممطوط. وهسيس المطر كان أقرب إلى نواح بائس مسكين. وبدت الطريق خالية تماما. ثم لاحت إيمان وهي تسير وحيدة بحذاء الجدران كأعمى فقَدَ ما يستدل به. مطأطئة رأسها وكأنها لم تعد راغبة في أن ترى الطريق أمامها، أو أنها باتت تعرفها فهي كالمصير الأسود الذي ينتظرها..

كم كان فظا معها!

لكن كذلك كان للأمر أن ينتهي بشكل ما..

ووخزه ألم عميق. وقال إنه سيظل رغم كل شيء المسؤول الوحيد إذا ما أصابها مكروه ما..

- 6 -

أعلنت مديرية الثقافة عن مشروع ملحمة عملاق تحت الرعاية السامية لرئاسة الدولة. وكان المشروع يتناول عرض تاريخ الجزائر بدءا من العصور القديمة حتى الاستقلال. ولقد قام "بلعور" مدير الثقافة بالولاية باستدعاء عبد القادر لمناقشة فكرة العرض معه. وكان قبل ذلك قد أرسل إليه بنسخة من نص الملحمة ليطلع عليه ويبدي رأيه الشخصي فيه، كما بشره حينها بتزكيته له لدى الجهات العليا ليشرف بنفسه على إنجاح هذا العمل الضخم. وعندما أعلنت السكرتيرة عن حضور عبد القادر، نهض المدير من على مكتبه وقام يستقبله عند الباب. وقال متوددا وهو يسلم عليه:

- والله اشتقنا إليك يا رجل!

صافحه عبد القادر. وقال يجاريه في لغته المتأدبة:

- كذلك نحن..

وقال بلعور يواصل ترحيبه المميز وغير المعهود بعبد القادر:

- لكنك لا تكلف نفسك زيارتنا رغم أن أبوابنا مشرعة لك ولأمثالك. يا أخي زرنا دائما ولا تنتظرنا حتى ندعوك!

بدا عبد القادر مندهشا من كل هذه الحفاوة التي لم يتوقعها، ولأول مرة بان مرتبكا أمامه..

- أنت أدرى مني بالمشاغل، فهي لا تكاد تنتهي.

- حقا، حقا. لعنة الله على هذه المشاكل التي تفرق بين الأحبة..

أربك هذا الترحيب عبد القادر. فهو لم يدر بخلده، خصوصا وأنه لا يزال يذكر أجواء حفلة التكريم وما حدث حينها. وحاول أن يقف على أسباب التطور الخطير في سياسة المدير معه. كما تساءل في سره: "ماذا خلف الأكمة!"؛ وإن كان يعرف ويعي ما خلفها تماما..

وتطرق المدير إلى الموضوع رأسا، فقال:

- أتوقع منك أن تكون قد اطلعت على نص العرض..
- نعم، وما زلت أتساءل عن صاحبه!
- كن مطمئنا يا أخي. الموضوع حاز رضا السلطات العليا. ووافقت عليه.

لم يعجب منحى الحديث عبد القادر، ومن شدة نقمته قام يسأل:

- ثم إني أفكر كم سيكلف مشروع كهذا!

حينها أجابه بلعور، وقد اعترت محياه ابتسامة كبيرة:

- رصدت له الوزارة ميزانية تفوق ثلاثة مليار سنتيم. وأعتقد أنه مشروع يستحق. كما لا أكتمك أني عاهدت نفسي أن يأخذ كل ذي حق حقه هذه المرة.

عجب عبد القادر، ولم يفهم شيئا وهو يقف على سياسة تكيل بمكيالين..

- آه، هكذا إذن. تدعون عدم القدرة على تموين مشروعي، ثم تجدون المال كله لأجل عرض كهذا!

- أنت تدري أني لست من يقرر. ربما يكون لي أن أقترح فكرة ما لكن وفي الأخير الأمر كله موكول لهم ومرهون برغباتهم. إذن ما رأيك؟

جاهد عبد القادر نفسه حتى لا يثور. وحاول التخلص من الأمر كله حينما قال:

- لا رأي لي. يمكنكم أن تسندوا الإشراف على مشروعكم لشخص آخر. فأنا لن أجد الوقت اللازم لتقديم عرسكم الكرنفالي. أمامي برنامج مسطر ينتظر..

واستغرب المدير رده، وكان كمن لم يفهم عندما عاد وقال:

- يمكنك تأجيل كل شيء إلى حين.
- هل تعتقد أن الأمور بهذه البساطة؟

وكان المدير لا يزال يصر على حله السحري، لهذا قال:

- على الأقل أترك شؤونك العالقة لمن تثق به وتفرغ معنا لإنجاح هذا العرض. هذا لن يضر كثيرا!

وتأفف عبد القادر..

- لن ينفع الأمر هكذا أيضا..

وهنا بان الغضب على المدير الذي قال:

- ولكن يجب أن تدع كل ما بين يديك، وتتفرغ لإنجاح هذا العرض المهم.

وتعجب عبد القادر من لهجته ولجاجته حتى قال:

- هل أفهم أن هذا أمر؟

وأدرك بلعور أن هذه الطريقة لن تأت بنتيجة، فحاول أن يلعب على وتر آخر، وقال بلين هذه المرة:

- لا، ولكن لا يمكنني أن أتصورك بعدما عوّلت عليك ترفض العرض. إن له مقابلا ماديا مغريا!
- أنا لا أفكر في هذه الناحية.

وبدا المدير كمن لا يفهم..

- ولكن أمنحني سببا واحدا وجيها لرفضك!
- أنا لم أرفض، لكني أخبرتك بضيق الوقت وانشغالاتي. أليس هذا مبرر كاف؟
- ليس كاف ما دمنا نعول عليك..
- كما أني أجد أن النص لا يصلح.

هتف المدير متعجبا:

- كيف ذلك؟

وقال عبد القادر يكشف عما رآه و لم يعجبه:

- مضمون هش. سرقات أدبية بالجملة. ارتجالية وحشو وسطحية وبكاء على الأطلال. أرى أن إنجاز عمل كهذا لن يفيد البلد في شيء..

لكن بلعور لم يكن مستعدا للاستسلام، فقال يكذب ادعاء عبد القادر:

- ليكن في علمك أن النص قد اطلع عليه خِيرة مثقفي البلد، وكلهم أجزموا بضرورته، وخصوصا أمام العاصفة التي نمر بها اليوم..

اعتلت ملامح عبد القادر سخرية واضحة، وهتف وهو يكاد يضحك في وجهه علنا:

- حسنا، هل تسمح وتقدم لي قائمة من اطلع على هذا العمل؟

- ولكن هل سيجعلك هذا تغير رأيك؟
- على الأقل أريد أن أعـرف مـن هـم هـؤلاء الـذين أخذوا يقررون سياسة البلاد، وآخذ علما بأشباه هـؤلاء المثقفين..
- أتسخر؟
- وهل يبدو علي ذلك؟

و لم يعجب الأمر بلعور فهتف يقول كالخطيب على المنبر:

- لا، ولكن ألا ترى أننا نعيش مأساة يجـب أن نحاصـرها بوحدتنا الوطنية؟

وعجب من عنت المدير. وكان يعرفه ويعرف محيطه والفسـاد الغارق فيه فواجهه يقول بصراحته المعهودة:

- عن أي وحدة وطنية تتحدث؟.. ثم إلى ما تهدفون من وراء عرض كهذا؟.. أتريدون دغدغة مشاعر الشعب والعـزف على الوتر الذي يؤجج عواطفه ويلهب حماسته؟.. هـذه اللعبة باتت قديمة يا سيد. كما أن الشعب لم يعد غـافلا، صدقني. إن ما نحتاجه اليوم هو مُخَلِص ينقذنا مـن هـذا البلاء الذي ورطنا فيه الساسة وأصحاب القرار. نريد عملا يعري الواقع ويكشف مسببات ما حصل ويحذر من النتائج الكارثية التي نعيش بعض فصولها الآن..
- البلاد منقسمة الآن إلى وطنيين مخلصين وإلى غـير ذلـك. فأخبرني مع من أنت؟

وهتف عبد القادر مختنقا من هذه المسرحية الركيكة:

- ليس قبل أن تخبرني أنت!

- إنك تضع نفسك في موقف حرج أمام السلطات العليـــا. هذا ليس خروجا عن المألوف وفقط. بل أنت تعلن أنـــك ضد الوطنية والوحدة، خصوصا في هذه الظروف الصـــعبة التي تمر بها البلاد والتي تتطلب تكـــاتف كـــل رجالاتهـــا المخلصين..
- سلم لي على الوطنية والوحدة وأصحابك المخلصين. وكما يقول المثل "خلي البئر مستور"..
- إلى ماذا تلمح؟ وكأنه ليس لك من همٍّ إلا مناكفة السلطات!

وكان على علم بسياسة التخوين التي تمارس على أكبر نطـــاق. والتي تقول إن الذي ليس معنا هو ضدنا، لكنه قال باستهانة:

- أهذا ما تعتقده؟.. أم أن هذا ما تقولونـــه عـــني خلـــف الكواليس؟ وكأنه علي دائما أن أقول "نعم"، حتى إذا قلت مرة "لا" اتهمت أني أغرِّد خارج السرب ووجـــدت مـــن يشكك في وطنيتي وإخلاصي!

ولم يكن المدير راغبا في الاستسلام، لهذا قام بمحاولـــة أخـــيرة وعاد للعزف على نفس الأسطوانة..

- ماذا لو منحتك فرصة أخرى لتفكر في الموضوع..

لكنه وجد عبد القادر مصرا على موقفه، فبان عليه الغضـــب. وتساءل في حيرة:

- بربك، ما الذي يشغلك في هذه الدنيا؟.. ولماذا تعيش؟

وواصل عبد القادر استهانته بكل شيء، فقال:

- هل سمعت من قبل بعالم اسمه الأفكار؟ أنا تشغلني الأفكار، ولأجلها أعيش..

وبدا المدير متعجبا وحائرا، حتى قال:

- أتساءل أحيانا ماذا تروم؟.. ألا يهمك حقا التوفيق والنجاح؟ ها أنا أعرض عليك فرصة نادرة للتتويج، بينما أنت تضرب بها عرض الحائط!

حينها راح عبد القادر يشرح له وجهة نظره. لم يكن يريد منه أن يؤمن بها. فقط أراد أن يبين له كم الفارق شاسع بينهما إلى الدرجة التي لن يلتقيا فيها يوما:

- ربما لأننا ننظر إلى الأشياء من حولنا من زاوية مختلفة. وهكذا فلن تجدنا نكاد نتفق على مقياس واحد للتوفيق والنجاح.

- ربما!

قالها المدير في بلادة وإذعان. ثم أعقب ذلك صمت وترقب خرقه عبد القادر عندما استأذن بالانصراف.(*)

(*) الخشية كل الخشية أن تخلق شخصيك الروائية ثم تكتب عنها، لتكتشف لاحقا أنك كنت تكتب عن حالك وعن شخصك. غالبا ما يقع الروائي في هذا الخلط، وإن كثيرا من الكتاب من يتعمدون القفز على العثرات التي تعترضهم حين الكتابة لضعف الخيال عندهم أو لصعوبة يجدونها حين تصويرهم لواقع يشغلهم باستلهامهم لتجارب عاشوها حتى أن بعضهم يظل يستعيد في كل عمل جديد تجربة بعينها يكررها بلا ملل.

أدرك تماما أن اختياري لشخصية عبد القادر كتيمة لعملي لم يكن اعتباطيا، وعل تقاطعي معه في أكثر من جانب ثم شعوري أنه يمثلني ما شكل الهاجس عندي وجعلني أكتب عنه. وإن كنت أدرك تماما أننا في الأخير لا نقدم إلا صورة عن حالنا، ولا نوظف إلا أفكارنا وما نعتقد أنه يمثل قناعات لدينا. وقد يسأل أحدكم، لكن ماذا عن الشخصية

....

السلبية في العمل الأدبي. حينها سأجيبه وأقول. الشخصية السلبية لا تمثلنا وقد يمثلنا مقلوبها، أو – وبمكر وخبث أقول – لم لا نعتبر أن الشخصية السلبية تمثل الشيطان فينا. جانبنا المخفي وصورتنا الهجينة والقبيحة والتي نخضعها للتجميل ما دمنا نحيا خاضعين للمجتمع وعرفه وقوانينه والتي لا هدف له إلا تكبيل ولجم شهواتنا. فقط على الكاتب أن يحذر، وكل الحذر من أن يصنع من قراراته الحياتية قرارات لأبطاله. عليه أن يتركهم لمحنتهم ويمتنع عن إسداء النصح لهم. عليه أن يبقى على الحياد كالقارئ تماما وهو يشاهد صراعهم وما ينتهون إليه.

- 7 -

اكتنفت صفاء سمائه شائعات مكدرة مفادها أن زوجته ستتزوج قريبا.. ثم ها هو "جوكار" اللعين يحل محله في كل شيء.. وها هـي الرائحة التي زكمت أنفه قديما تصبح حقيقة واقعة يتندر بها أعـداءه والشامتين.

لكن ما باله يتوتر اليـوم ويغضـب؟.. ألم تعـد وردة مجـرد طليقته، وهي حرة في أن تفعل بحياتها ما تشاء؟.. هـل حقـا كـل ما يهمه في القضية هم الأولاد ولأجل ذلك عليه أن يوقفهـا عنـد حدها؟

كان عبد القادر ومنذ فترة يخشى الشرب في مكان عام، لكنـه أمام هذه المحنة الجديدة وجد نفسه يسير إلى خمارة "الكأس الذهبـي"، وهي من الخمارات النادرة التي بقيت مفتوحة ووفية لزبائنها وذلـك بحكم وجودها وسط المدينة وبالقرب من ثكنة للجـيش في شـارع خلفي لشارع "قرقيطا" العتيق. هناك شرب حتى كاد يفقـد وعيـه. وعندما خرج من البار، ألفى نفسه على بعد شارع واحد مـن مقـر سكنه السابق أين زوجته الآن.

حدث نفسه أنه يحن إلى أولاده. وخمـن أن حضـانة الأولاد ستعود من حقه بعد أن تشرع أمهم في الزواج.. وفكر لماذا لا يذهب إليها حالا ويطالبها بهم؟

كان يعرف أنه لم يكن جريئا معها قبل هذه اللحظة. ولطالما خذله تردده أمامها. لكن لا تبقى الأمور على حالها دائما. وها هو يصر على أن يتغير..

لم يدق الجرس بل تعمد الخبط على الباب وكأنه يبغي إقلاقها. ووجدها تفتح له في شيء من الذعر. ثم وقد انتبهت إلى حالته البائسة أدركت ورطتها وراحت تتحدث بملء صوتها علّ الجيران يهبون إليها. ولقد ظلت متوترة وتسأله في قلق وريبة:

– ماذا الذي جاء بك في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

أشار إليها أنه جاء لرؤية الأولاد. فهتفت مازجة بين الشك والسخرية:

– وهل من رجل سوي يحضر لرؤية أولاده في هذا الوقت المتأخر؟

كان يتحدث في حسم وبلا أدنى تردد، ولقد تمكن من أن ينقل إليها نفاذ صبره حينما قال:

– ما يزال هناك متسع من الوقت. وربما أنت الوحيدة النائمة الآن!

لكنها ردت عليه في نبرة اعتذار واضحة:

– عد مرة ثانية. الأولاد كذلك نيام.

كم تلاعبت به من قبل، وهو يكره أن تتلاعب به الآن لهذا قال لها في حدة وحنق:

– إذا كانوا حقا نياما وكما تدعين فمن الأفضل أن توقظيهم. يكفي أن تخبريهم أن والدهم أمام الباب وأنه جاء لرؤيتهم.

وكمن أعيتها الحيلة، قالت:

- لكن يجب أن تعود في وقت آخر. أنا الآن امرأة وحيدة، والأطفال نيام وغدا سيبكرون إلى مدارسهم..

كان بعض الجيران قد خرجوا من مساكنهم واحتشدوا أمام مسكن الزوجة. وحاول أحدهم التدخل فدفعه عبد القادر حتى كاد يوقعه على الأدراج لولا أنه تشبث بالدرابزين في آخر لحظة. وهتفت امرأة تبدو أنها زوجته:

- الأمر لا يسكت عليه. يجب أن نستدعي الشرطة.

ووافقتها وردة عندما هتفت تقول:

- نعم، ليحاول أحدكم طلب الشرطة. إنه سكران.

وقال عبد القادر: - ولكني لست هنا لأجل المشاكل. جئت فقط لأجل الأولاد. ولن أتزحزح من مكاني حتى أراهم. لا أحد يقدر على حرماني منهم. لقد اشتقت إليهم..

وحاول مرة أخرى أحد الجيران التدخل بسحب عبد القادر بعيدا، فأذعن له وانقاد هذه المرة وصوت زوجته يلاحقه في نبرة جافة:

- أرجو ألا تعود إلى هنا مرة أخرى، لأني سأكون متزوجة. لا تحاول إثارة المشاكل لي ولك. ويجب أن تعلم أن الأولاد قد اختاروا العيش معي..

تملك عبد القادر الغضب، وحاول أن يفلت قبضة السيد ويعود أدراجه إليها. ربما لن ينفعه في تعامله معها إلا صفعة صريحة تقول لها من يكون وتعرفها بحقيقة وضعه ووضعها. ولأن الرجل لم يفلته، فقد قال يوجه خطابه له في نبرة غضب صريحة:

- إنها تريد أن تحرمني من أولادي، فهل لها الحق في ذلك؟

ثم التفت إليها، وهتف في عناد جديد:

- ليكن في علمك أنهم أولادي أنا كذلك، ولا يحق لــك أن تحرميني منهم. ثم إنك سوف تتزوجين. لن أدعك تفرحين بهم بعد ذلك. كوني متأكدة..

ثم وهو يوجه خطابه للجيران من حوله:

- أعرف أنها تسمم أفكارهم وتخبرهم بأشياء غــير حقيقيــة عني، لكني لن أناولها مرادها هذه المرة. محال أن تســتحوذ على كل شيء!

وفي خارج العمارة تكفل الجار بإيقاف سيارة أجرة له. قــال يواسيه:

- لقد عهدناك جارا صالحا؛ والوقت قد تأخر. يمكنك العودة متى شئت.. ثم هل كنت تريد أن تحــتفظ ذاكــرة أولادك بهذه الصورة عنك؟
- أعتقد أني كنت سأخيفهم، أليس كذلك؟
- نعم..
- لكن أمهم امرأة عفنة. وأنا لا أريد أن ينتقل العفن إلى دماء أولادي..
- حسنا، ولكن ليس الوقت مناسبا لمناقشة مثل هذه الأمور!
- كل ما أريده، الحياة الكريمة لأولادي، صدقني..
- أصدقك، لكني أيضا أثق في حكمتك. ليس هكــذا تحــل المشاكل يا رجل..

وفي الصباح عندما استيقظ عبد القادر من نومه وتــذكر مــا حدث معه ليلة البارحة شعر بالخجل والخزي..

- 8 -

لا نوم الليلة..

بدا عبد القادر شديد الغضب، سريع العطب، متوترا ومستفزا..

بعد قليل ستدخل زوجته عالم رجل آخر، بينما ليس له هو غير الوحدة وجدران البيت الباردة تطوقه وتزيد من اختناقه..

أشعل سيجارة تلو أخرى، وهو يفكر في النار التي تأكل داخله..

تساءل: "أما آن لهذا الجرح أن يندمل، ولهذا الحريق أن ينتهي!". وداهمه الخواء. فراغ هائل يكتسح كل شيء أمامه؛ وحار كيف يعالجه..

أحضر زجاجة "ويسكي" وكرع من الزجاجة مباشرة. خامره إحساس بأنه يشرب أكثر من العادة. قال إنه سيصبح قريبا من المدمنين والسكارى الذين يتطاوحون وتتقاذفهم الشوارع. لكنه كذلك يحاول أن ينسى ما يعانيه وما يخشاه. ولأجل ذلك أيضا يبحث عن اللذة، فلعله يدفن فيها آلامه. وهو يدرك أنه يمارس نوعا من الخداع على النفس ويقفز على مشاكله ولا يحلها، ويعيش في حالة من يجبن عن المواجهة، بعدما وعى قوانين اللعبة ولسعته جمراتها مرات عديدة.

كلاهما الشراب والنساء متع دنيوية يتوكأ عليها ويتحمل بها مشاقه في رحلة العذاب الكبرى. والحياة أبدا لا يمكنها أن تكون خطا

مستقيما خالصا نحو الهدف، لأنها ستكون حينها غير محتملة وبلا رحمة، وهكذا كان يلذ له أن يردد كلما وجد نفسه محاصرا في أحد الزوايا ولا مهرب له...

لمعت في ذهنه فكرة، فقام يتفحص مفكرته الخاصة. قلّب أوراقها ثم أخيرا اهتدى إلى ما كان يبحث عنه. حمل سماعة الهاتف وطلب رقما منزليا كان لا يزال يحتفظ به..

- آلو، من معي؟

سأل المتكلم من على الخط الثاني، فرد عبد القادر ببعض من البهجة..

- معكِ المسرحي عبد القادر..
- آه، حقا. أنا لا أصدق!
- وما الذي يمنعك من التصديق؟
- لأني ما كنت أتوقع أن تطلبني في يوم من الأيام!
- ها أنا ذا أطلبك، فهل يرضيك هذا؟
- ما يرضيني أن أراك أمامي الآن..
- هل يعني هذا أني لا أزال أحوز رضاك، وترغبين حقا في أن أزورك؟
- إنه من دواعي سروري أن تكون معي الليلة.
- وكأنك وحيدة!
- وحيدة حتى الاختناق..
- إذن هي مسافة الطريق..
- بالمناسبة، بماذا تريدني أن ألقاك؟
- بما يثيرني، ويذلل العقبات..

- لكن ما دمت ستحضر فلا عقبات هناك!
- هذا ما أرجوه بدوري..
- ستجدني على أحر من جمر، فلا تتأخر.
- لن أتأخر.

وجد جميلة تنتظره على فوتيل زهري اللون. بدت متأنقة وهي ترتدي لباسا ذهبيا متلألئا من الساتان يعري ذراعيها الرقيقتين، ونحرها الأبيض، وجزء كبير من نهديها العامرين، وجانب مثير من فخذيها الأملسين..

نهضت تستقبله بقبلتين على الخدين. وقادته حيث أجلسته إلى جانبها. وعلى الكنبة فاحت منها رائحة عطر باريسي مدوخ شكل إغواء خطيرا إلى جانب ما كانت تثيره حوله من فتنة.

سألته وهو يجلس إلى جانبها: - ماذا تشرب؟

وخمن قبل أن يسألها بدوره: - وماذا لديك؟

وهتفت تقول في ضحكة مستهترة:

- كل ما يمكنه أن يجعل ليلتنا بيضاء. أم ترجوها بلون آخر!
- لا تهمني الألوان. وكل ما أرجوه ألا أثقل عليك..

سارت إلى صوان صغير موضوع على يمين الصالون. ومنه أحضرت زجاجة شامبانيا وكأسين. قالت وهي ترشف نخب اللقاء:

- لا أكتمك أني كنت أخشى أن يكون في الأمر مكيدة ما. وخمنت أنك ربما قد تتراجع عن المجيء في آخر لحظة.
- ما كان بيننا وعد.
- لكني أعرف بوعودك السابقة.. ورغم أنك أمامي الآن فأني لم أهضم بعد فكرة حضورك. وحقا لا أزال أسأل نفسي،

ما الذي ذكره بـــي هكذا فجأة؟

- الشوق..
- الشوق إلى أي شيء؟ أم تريد العبث بـــي؟
- كثيرة هي الأيام التي كنت تعبرين فيها ذاكـــرتي ومخـــيلتي، وصدقا ما كانت تبعدني عنك إلا المشاغل..
- ولكن أعذرني. لن أصدقك!
- ثم من ذا يغفل عن ذِكر امرأة مبهرة ومثيرة مثلك؟
- هل هذا إطراء أم ماذا؟ فأنـــا أعـــرف أن كـــل الرجـــال يتملقون..
- ولكنهم لا يتملقون غير الحسن!
- كاذب، وهذا يظهر في عينيك..
- وماذا يظهر فيهما أيضا؟
- لا أدري، أخبريني أنت..
- ولكني لا أفضل الحديث كبرهان..
- وماذا تفضل إذن!

وأطلقت ضحكة رنانة وهي تسحبه من ذراعه. قادته إلى غرفة نومها، فتبعها منفعلا ومتحفزا. وهناك بادر بتعريتها فبادرته بالمثـــل. وتوجس قليلا وهو ينظر إلى عينيها المتقدتين رغبة وشهوة، ثم ما لبث أن حدث نفسه أنه وفي هذه الليلة يجب ألا يعنيه غير الغرق..

- 9 -

استفاق منزعجا على صوت الهاتف يرن. وللحظة ران عليه الحلم، فتذكر نتفا منه. ووجد نفسه يتساءل كيف يرتبط بواحدة وينكر أخرى بينما يرغب ويحلم بثالثة!.. ولم تكن الفرصة مواتية ليستغرق في استعراض حلمه والأفكار التي رمى بها إليه.

كان الهاتف لا يزال يواصل رنينه في إلحاح شديد. وتساءل لا بد أن هناك طارئا ما وإلا فمن يطلبه في هذا الوقت المتأخر من الليل.

حمل عبد القادر نفسه وهو يغالب النعاس والكدر، وتوجه إلى حيث الهاتف. سأل في غمغمة منزعجة:

- من معي؟
- أنا بوعلام..

بدا الأخير مستثارا ومتوترا. فسأله وهو يحدث نفسه: "لا بد أن كارثة ما قد وقعت!".

- ماذا هناك؟
- لقد أحرقوا المسرح..

عندما بلغ المبنى وجد محيطه عامرا بالحشود المتطلعة إلى مشهد الحريق. وتأمل المكان من حوله، وما لبث أن أدرك أنه فات أوان إنقاذ أي شيء..

كانت النار تهمهم وتمد بألسنتها الطويلة الحارقة من خلال النوافذ والمنافذ الشحيحة في رقصة بربرية متوحشة. وكانت مساعي رجال الإطفاء أشبه بصراع مع العمالقة. فالمعركة محسومة والنار رابحة. وهي لن تخمد حتى تأتي على كل شيء، فلا تجد ما تلتهمه. والمشكلة في البناء نفسه، فهو لا يسهل المنافذ للماء كما كان لا يسهلها للهواء فترى رجال الإطفاء لا يدرون أين يوجهون خراطيم المياه لمحاصرة النيران.

وهتف أحدهم: - النيران ستأتي على كامل المسرح، ورجال الإطفاء لا يفعلون شيئا!

وقال آخر: - ليس بيدهم حيلة..

وردد ثالث: - ستلحق النيران بالدور السكنية المجاورة. وسيكون الأمر كارثة إذا ما حصل!

انبعث من داخل المسرح صوت تحطم وانهيارات. وجلي أن النار قد باتت تهدد السكنات الملاصقة والمجاورة له، حتى تسابق السكان في مغادرة منازلهم حاملين معهم ما سهل إنقاذه. وأخذوا يحتشدون إلى جانب متاعهم في ميدان السلاح متطلعين إلى ما يحدث، مشدودين إلى لعبة النار والماء، معلقين الآمال على رجال الإطفاء وقدرتهم على مكافحة الحريق أو محاصرة النار على الأقل. ولقد انضم إليهم هذه المرة شباب الحي ورجاله يساعدونهم.

لم يستطع عبد القادر مقاومة دموعه. كان يذرفها رغما عنه وفي سخاء. إنه لا يفهم لماذا أحرقوا المسرح!.. لا بد أنهم يعمدون إلى اغتيال كل شيء جميل وإلى إبادة كل فرحة ممكنة في هذا البلد. وحتما أن أعمال مجموعة عظيمة من الكتاب والمسرحيين اندثرت بلا عودة بعدما قضت عليها النيران.

وتساءل أحدهم: - ولكن ألم يفعل الحارس شيئا؟
لكنه وجد من يرد عليه ويقول:
- إنه عجوز، ولا بد أنه بوغت..
- وأين هو الآن؟
- لم يره أحد.
- هناك من يردد أنه لا يزال في الداخل عالقا وسط النار.
- ألم يفعلوا شيئا لإنقاذه؟
- أظنه أصاب أحد المقتحمين، فجعله يتخلف عن أصحابه..
- وأين هذا المجرم؟
- في قبضة رجال الأمن هناك..
- وكيف يبدو!
- إنه ليس وحشا على الأقل.
- أنا رأيته، إنه لا يتجاوز العشرين من عمره.
- أحد الذين غرر بهم.
- يا لطيف رحمتك..
وأمام ساحة البلدية تساءل أحدهم في اهتمام:
- أهذا هو؟
وأعقب آخر:
- إنه يبدو أجبن من أن يفعل ذلك بنا!

كان الشاب الذي شارك في الهجوم وإحراق المسرح يبدو منهكا ومستسلما، تملكه الخور والرعب. وواضح أنه في العشرين من عمره. له ذقن نابتة حديثا. والسخام يظهر في شكل بقع تدنس كامل ثوبه الأبيض. بينما يحمل أثر جرح غائر على جبينه. ويبدو أن

إحدى عينيه قد تورمت وطمست تماما، ولا بد أنه خسرها في معركته مع عمي الهواري الحارس الذي لم يظهر بعد. وكان بعض رجال الحي قد أخذوا يضيقون الحصار عليه وهم يطالعونه بحقد وبرغبة في الانتقام. ولقد أخذوا يطالبون رجال الأمن بأن يسلموه لهم. وبدا القلق جليا على رجال الشرطة. وتدخل الضابط وطلب من السكان والمحتشدين الانسحاب وفض التجمع. لكن أحدهم هتف:

- ما هذا الذي تفعلونه؟

وهتف آخر: - إنهم يحمونه!

وقال ضابط الشرطة: - إننا نطبق القانون. سنأخذه للاستجواب، ثم سيلقى مصيرا بشعا كالذي اقترفته يداه.

حينها فوجئ الجميع بأحدهم يندفع ويقتحم الطوق الأمني المضروب من الشرطة. ثم به وهو ينهال على الشاب الواقع في الأسر بضربات موجعة ملء قوته، قبل أن يتمكن رجال الأمن من كبح جماحه. وكان يصيح ويقول:

- أمثالكم ليس لهم إلا الموت..

إنه واقع تحت نوبة غضب هستيرية!

وسط كل هذا وقف عبد القادر مذهولا. وأخذ يقول ويردد كالتائه الذي لا حول له ولا قوة:

- لكني أخبرتهم أكثر من مرة أن المسرح في خطر. لم يأخذوا برأيي، فضاع كل شيء. ضاع أرشيف عشرات الأعمال وكأنها لم تكن يوما. فمن سيتحمل مسؤولية هذا الاغتيال لأعمال مبدعينا؟

عندما بان الصبح حضر مدير الثقافة. جاء يريد الاطلاع على ما حدث. وما إن شاهده عبد القادر حتى اندفع نحوه. وجد المدير يقول وهو يحاول أن يطمئن من هم حوله:

- نعاهدكم أن نعيد كل شيء كما كان، فلا داعي للقلق..

حينها بلغ الغضب بعبد القادر مداه، فشد بخناق المدير، وأخذ يهتف في وجهه:

- إن من وضعك في هذا المنصب لا بد أن يكون واحدا من الحاقدين على الثقافة. دخيل مثلك كيف له أن يعرف ما هو الأرشيف أو ماذا يعنيه؟

وسجلت الصحافة الحاضرة كل كلمة قالها عبد القادر. وكانت كلماته نارية فلم يرحم أحدا من المسؤولين الذين اتهمهم بالتقصير وبالتواطؤ المشبوه. وفي الغد ضربت بعض الجرائد المستقلة على الوتر الذي أغضب الوزارة عندما قالت إنه يجب على الوزير أن يستقيل. وأعطت في ذلك مثالا بما يحدث في الدول المتحضرة. واستفز هذا الوزارة التي لم يعجبها أن تجد نفسها في قفص الاتهام. وكان لها أن تتحضر للدفاع عن نفسها.(*)

(*) لا بد أن أدلي هنا بشهادة هامة. قصة احتراق مسرح وهران مع التفاصيل التي ذكرتها اكتشفتها من خلال مذكرات عبد القادر. وفي محاولة مني للاستفاضة في موضوع الحريق وتبعاته سألت بعض زملائه في العمل. تملكتني الحيرة والارتباك وأنا أسمع إفاداتهم. اتفق معظمهم على أن المسرح لم يتعرض إلى عملية اقتحام وحرق؛ في حين أسر إلي أحدهم أنه تعرض إلى محاولة اقتحام إلا أن من نفذوا العملية لم يحققوا أهدافهم. استفزني ما سمعته. ولم يكن هناك من مجال أمامي فقمت أقلب في صفحات الجرائد المحلية وخصوصا أعدادها الصادرة والقريبة زمنيا من

....

تاريخ سرد عبد القادر لوقائع الحريق في مذكراته. خرجت من كل ذلك خالي الوفاض. وأنا باق أتساءل ما غرض عبد القادر من خلال هـــذه القصة المختلقة والتي لم أفهم كيف حضرته أو من أين استقاها خصوصا أني ومن خلال الكثير مما ورد في مذكراته لم أعرفه كاذبا أو متحايلا!
الملاحظ أيضا أن تاريخ تحويله إلى لجنة الانضباط أين حُقق معه، ثم مـــا أعقب ذلك من نتائج مست شخصه كلها معروفة، وقد تحققت منها و لم ينكرها أحد أمامي. كذلك يكاد يجمع كل من عرف عبد القـــادر أن سبب إقالته راجع أساسا إلى أن هناك من أوغر صـــدر المســـؤولين في العاصمة بعدما اعتذر عن انجاز ملحمة الجزائر التي رشحه لانجازها مدير الثقافة حينها.. كان واضحا أن الأمر له علاقة بتصفية حسابات. وأما ما رواه عبد القادر في مذكراته فلا بد أنه كان يستند على واقع ما. ويمكن أن يكون قلقه الشديد من الوضع الذي كان يعيشه المثقفون عمومـــا في تلك الفترة، ثم الهوس بالمشروع الذي كان يعكف عليه، وكذلك خوفه على المسرح وأرشيفه ما جعله يتوقع حدوث أمر مشابه. ولعله كان يرى صور الحريق والنار في أحلامه، و لم يزد إلا أن ترجمها وصورها بعـــدما التحم بها والتحمت به فبدت أقرب إلى الحقيقة.

المزمور التاسع

انتِصاب

- 1 -

دام كل ذلك لحظة واحدة..

كان عبد القادر يرشف من فنجان القهوة أمامه ويدخن سيجارته على مهل عندما لمح ظل شخص معه في المطبخ. وحدس قوي أنبأه أن من يقف الآن أمامه أبوه الأخضر، وإن لم يستطع اكتشاف ملامحه. فقد ظل الرجل يوليه ظهره وينظر إلى الخارج عبر النافذة التي أخذ يتسلل منها ضوء الشمس بشكل لافت ومثير. ثم دب فيه شعور حاد أنبأه بأن والده لا يرغب في النظر إليه. ولا بد أن الأمر لا يخلو من سبب وجيه. وما لبثت أن تضعضعت فرحته بعودة والده وكأن ريحا قوية عصفت بها وغشيته على أثر ذلك حيرة مربكة، حتى هتف يسأل: ما عساه يكون السبب؟ وأما ضميره البريء فقد أخذ يذوب كقطعة ثلج أمام لفح اللقاء وثقله وأمام الهواجس التي أخذت تنتابه وتزعجه. ثم دون سابق إنذار وجد الأخضر يلتفت نحوه بنصف التفاتة ويصوب نظره إليه بنصف عين. وها هو الرجل يمد يده أمامه ويشير إلى شيء ما عبر النافذة. وخمن أنه يدعوه ليقترب منه وينظر معه إلى ما يعتبره مهما. وحاول الاستجابة لتلك الرغبة التي صارت فجأة تخصه أيضا، لكنه اكتشف أن قوة غاشمة راحت تصده عن الحركة وتمسك بزمامه فلا تتركه يتحرك. وجاهد ضدها بكل ما أوتي من قوة وعزم، وأما حلمه الوحيد فكان في أن يتجاوز محنته.

وجد والده يعاود النظر باتجاهه. وكان هذه المرة يبتسم. ثم أنه مدّ له اليد، وكان ليده أثر السحر فها هو يستطيع التقدم. وما هي إلا هنيهة حتى كان يقف معه أمام النافذة. نظر عبرها، ثم ها هو يبدي استغرابه وتعجبه بعدما لم يجد شيئا مهما بانتظاره. ولوهلة اعتقد أن للأمر علاقة بقصور نظره، وحاول أن يستفسر من والده، فنظر باتجاهه، لكنه لم يجد له أثرا.

كان الرجل كما ظهر قد اختفى فجأة. وفي وقفته لم يجد عبد القادر من بد فعاود النظر عبر النافذة، وخال أنه اكتشف شيئا جديدا هذه المرة. كان هناك ما يستحق كل هذا العناء. إنها الحياة، وها هي قريبة منه وتعلن عن نفسها في يوم جديد..(*).

(*) كل ما أدريه أن للأحلام علاقة بالعقل الباطني للإنسان، وأنه بدوري أخذت تعبرني مثل هذه النوبات. وأذكر أنه في بداية علاقتي بعبد القادر كنت كلما أنظر إلى المرآة لأتأمل حالي إلا ووجدته أمامي. ثم صار يتبعني كظلي. وحدث أن بدأت أتحدث إليه وأخوض معه في مناقشات طويلة وكأنه بديلي الذي يحسن الإنصات إلي. ثم أدركت – ولا أدري كيف – أني مريض به، وخلصت أن علاجي الوحيد منه بالتفرغ له والكتابة عنه.

- 2 -

في سن متقدمة ارتبطت جل أحلام عبد القادر بوالده. ومن أثرها عليه - ويذكر ذلك جيدا- راح يتصور أن الرجل لا يزال حيا يرزق، ولفترة طويلة ظل ينتظره ويتوقع عودته من جديد. ثم وفي غمرة الحياة تجاوز تلك الأحلام كما نسي فكرة رجوعه إليهم. لكن الهواجس القديمة نفسها باتت تنتابه في الأيام الأخيرة حتى أيقن أنها تحمل مغزى معينا ولا يمكنها أن تخلو من إشارة أكيدة تخصه. ورغم ذلك ظل يعاند ويصر على تجاهلها، وراح يجبر نفسه على تجاوزها. وبرأيه أن ما تخفيه الحياة من أسرار أمر يتعداه ولذلك عليه ألا يحفل إلا بيومه، كما يجب عليه أن يعيشه بما فيه من زخم ويتقبله على علاته جميعها، وحسبه ما ضاع من وقت.

لم يبد منزعجا كثيرا بحادثة النافذة، بل بالعكس فقد مدته بطاقة إيجابية، ومنحته القدرة على الانتقال إلى طاولة الكتابة حيث ترك أوراقه وما كان عاكفا عليه ليلة البارحة.

لا تزال المسرحية التي يود كتابتها حبيسة عقله، لكنه اعتاد على أن يخط بعض أجزائها الجاهزة على الورق، حتى إذا أمسك برأس الخيط أتته الصور تباعا. وبدل أكثر من محاولة لكن لم يطلع معه شيء. فكأنما جف النبع الذي كان يستلهم منه وحيه!

كان لا يني يسأل ما باله غدا كالمشلول لا يستطيع أن يحـــرك ساكنا، عاجز عن الخلق والفعل، وعاجز على اســـتيعاب إخفاقاتـــه وحروبه التي لم يخسرها إلا بمزيد من الألم والضعف بـــدل الإصـــرار والمثابرة. وفي انتظار الأصحاب أشعل سيجارة وأخذ يعبها بنهم ولذة وهو يفكر في النار التي تلتهم داخله. وتساءل: "ثم ماذا بعـــد هـــذا الحريق؟!". ثم هلَّ الأصدقاء بعد ذلك، فقابلهم بسحنة كئيبة مسودة. وكان قد أهمل حلاقة ذقنه منذ فترة فبدا أشبه بشحاذ قذر على ناصية الطريق.

سأل القادمين عن المشـــري الـــذي لم يظهـــر في صـــحبتهم. واكتفى قدور بهز رأسه وكأنه يقول لا أحد يدري. وقال بوعلام في فتور:

– مررت البارحة بمنزله وسألت عنه، لكن لا جديد!

سُجل غيابه منذ فترة ودون سابق إخطار. غاب بعـــد دفنـــه لولده. قبل أيام من ذلك كان رجال الدرك قد قاموا بطرق باب بيته واقتادوه في صحبتهم. أرادوه أن يتعرف على إحدى الجثث. وصعق الرجل عندما اكتشف أنه أمام جثة ابنه. أخبروه أنه قضي عليـــه في تبادل لإطلاق النار مع العسكر. توجب بعد ذلك أن تسير جنـــازة الولد من المستشفى رأسا إلى المقبرة. وهذا ما ساء المشـــري كـــثيرا. كانت ميتة وضيعة لم تراع فيها التقاليد، ولم تتلق فيها الأسرة عـــزاء لائقا. وعبد القادر نفسه لا يزال يذكر أيام صاحبه العصيبة، والـــتي واكبه فيها لحظة بلحظة.

المشري غاب فجأة. وبعد اختفائه بحثت عنه عائلته كثيرا لكـــن دون جدوى. كان الجميع يجهل مصيره. ثم بات هناك اتجاه سائد بين

معارفه أنه في قبضة رجال الأمن أو المخابرات الذين قاموا بحجزه للتحقيق معه بصفته والد الضحية أو بكونه مشبوها.

زفر قدور كمن لا حول له ولا قوة، وفي ثقل قال يصور الوضع:

- إنها محنة شديدة، وإنها لتترك في النفس أبشع أثر..

وقال عبد القادر: - كلما أحاول أن استحضر صورته إلا ورأيته فيها يبحث عن ابنه بين عشرات الجثث المكومة وهي تنضح برائحة منتنة وقذرة. إنك حتى وبعد مغادرتك ذلك المبنى لا تقدر أن تطرد عنك تلك الرائحة المقززة. وتباغت عندما تكتشف أن مصدرها ليس الجثث المتفسخة بل روحك المثلومة. وهكذا تعدو لأيام تنفر من جلدك. ثم مهما حاولت لن يبارحك الشعور بالانقباض والاشمئزاز والذعر!

وتساءل قدور: - ماذا يريدون منه؟ ألم يكفهم ما تعرض إليه من إهانة؟

وقال بوعلام مرة أخرى، لكن في صوت باهت:

- ولكن هل تسعى حقا الدولة لاختطاف مواطنيها وبلا مبالاة؟

حينها رد عليه عبد القادر مشمئزا:

- إنك لا تتصور ما يقدر عليه هؤلاء الجلادون. إنهم في الجانب الآمن. تحت راية السلطة التي تكفل لهم الحماية.

وفي حزن مشوب بذعر قال قدور:

- أخشى ألا يظهر ككثيرين..

وقال بوعلام بلا حماس:

- أرجو أن تكون تخميناتنا مجرد أوهام لا أساس لها من الصحة.

وعاد قدور فقال في يأس:

- الحقيقة أنه لم يبق لنا مستقبل في هذا البلد.

وكان قد تريث قليلا قبل أن يستطرد كاشفا عما يعتزمه، فأعلن قائلا:

- إني أفكر جادا في الهجرة. ثم إني بدأت في تصفية أعمالي هنا..

أيقظت فكرة الهجرة في نفس عبد القادر مشاعر متباينة. وصحيح أنه يجد نفسه يشعر بالحنين إلى باريس. لكنه يفعل ذلك وغراب الموت منتصب فوق رأسه، ومرئي تماما بالنسبة له حتى أنه يصعب عليه إغفال أمره أو تجاوزه.

إنه وكلما أوغل في العمر أو وجد نفسه وجها لوجه مع الموت إلا وأستوعب أن المشهد الأخير في مسرحية الحياة هو الجزء الذي أوجدت لأجله كل المسرحية. أما معاودة الهجرة من جديد فتجسيد صارخ لأبشع صور اللا معنى الذي لم يعنه يوما. وعلى ذلك لن تجده إلا وهو يصر على أن يؤدي دوره كاملا غير منقوص في حياة لعينة، وحسبه أن يحوز تصفيق الجمهور قبل أن يسدل ستار النهاية. لهذا اكتفى بأن نظر إلى صاحبه في استغراب. وقال في اشمئزاز نابذا الفكرة:

- أسوأ ما أتخيله هو أن أرى نفسي في طابور طويل عريض في سبيل الحصول على تأشيرة للهرب!

وتساءل بوعلام في حيرة:

- وماذا نفعل ونحن مرفوضون من كلا الجبهتين؟

واعتقد عبد القادر أنه يصور الوضع كما يفهمه عندما قال:

- ولكننا مرفوضون لأننا آثرنا الحياد. وهكذا تجد أنه يقع علينا بعض وزر ما يحصل..

وعاد بوعلام فتساءل من جديد:

- هل من سبيل للخلاص!

أما قدور فقد عاد يدافع عن فكرته:

- لماذا أنا مجبر على البقاء هنا؟.. هل علي الانتظار حتى تصطادني رصاصة غادرة؟ لقد سئمت هذه الحالة. لست أحسن من مسؤولين وجامعيين وأطباء ورجال أعمال. الجميع يود لو يقدر على الهرب!

حينها بدا عبد القادر منزعجا أكثر من العادة. وقال يهاجم قدور في توتر:

- كلنا إذ يختار لا يختار إلا ما أراده دوما. وإنك لم تشعر يوما بالانتماء إلى هذا الوطن، كما أني أراك دائما تقارن بينه وبين فرنسا بسبب أو بدونه. وكأن البلد الذي ستشد إليه الرحال يوتوبيا حقيقية..

أجفل صاحبه، وقال مندهشا بعدما لم يتوقع هذا الهجوم الأمرد:

- ولكنك لست على ما يرام الليلة. ولا أجد سببا مقنعا لتحاملك علي بهذا الشكل المريع!

ورشف بوعلام من كأسه رشفة متعجلة. وقال يرطب الجو قليلا بين الأصحاب:

لا تسئ فهم كلام عبد القادر، ولا تنسى أنه لا يزال تحت تأثير ما يحصل معه..

وأدت هذه الكلمات إلى تلطيف حدة الحوار قليلا. وبعدها واصل بوعلام يُطلع قدور بما لا يعلمه:

- الجديد أنهم بعدما جمَّدوا رئاسة عبد القادر للمسرح، أحالوه على لجنة للتحقيق. وأغلب الظن أنهم سينصبون رئيسا جديدا على النمط الذي يرغبون فيه.

ابتسم قدور كمن لا يفهم، وعاد فقال مستهجنا:

- ثم يقول لي ابق هنا!.. ماذا أبقى لأفعل؟ الله يحرقها بلاد تكافئ رجالاتها بجلدهم.

وقال بوعلام: - عبد القادر يحب وجع الرأس! ربما كان منوطا به أن يساير التيار حتى لا يتعب. لكن مع من تتحدث، رأسه صخرة!

وقال قدور: - حقا أنا لا أفهم إصرارك على البقاء وسط هذا الوباء المستشري!

وتكلم أخيرا عبد القادر، وقال وهو يحاول السيطرة على أعصابه:

- إنها معركتي، وأعي أنها لا تعنيني إلا أنا وحدي؛ ومقتنع أنه علي مواصلتها ضد حفنة الوصوليين إلى آخر رمق.
- لكن يمكنك أن تواجه من هناك. أعرف أنه سبق لك وخضت هذه التجربة. وإن كنت تعمل هنا بنصف جهدك، فيمكن وأنت هناك أن تعمل وتشغل كل طاقاتك.

قال في ثقة لا تتزعزع:

- لكن ألا يكفينا أن نهرب من أدوارنا هنا؟ أنتم لا تـــدرون أين تكمن المشكلة؟.. المشكلة هي أننا بخوفنا من المـــوت أصبحنا نرفض الحياة نفسها. إننا نســـكن في عزلـــة عـــن أفكارنا وأحلامنا الأصيلة.

وفي عناد يائس قال قدور:

- ولكن هل تعتقد أننا قادرون على اختيار أدوارنـــا. إننـــا مجبرون! ألا تراني أسلم كل ما حققته للمجهول مؤثرا البدء من جديد.

أشعل عبد القادر سيجارة جديدة نفث دخانها في عصبية:

- منذ زمن ونحن نرفض النظام ونسعى لتغييره. وعندما حانـــت ساعة التحول نسلم زمام المبادرة لسوانا ونولي مذعورين!

أفرغ قدور ما تبقى من الكوب في جوفه، وقال:

- خير من الانتحار!

وقال عبد القادر في حدة:

- الأصولية أزمة سنتخلص منها اليوم أو غدا. فهي تقوم على ما لا تقبله شريعة أو يستسيغه إنسان. ولقد أصبحت تخريبا وتدميرا وفتكا بأرزاق الأبرياء والشعب. وأمام ذلك تراهن الدولة على تدعيم مركزها لأجل تطويق الظاهرة ومحاصرتها والتضييق عليها بتسليح المدنيين وبتشكيل قوات من رجال الدفاع الذاتي..

لكن قدور عاد وقال هازئا:

- إني غير مستعد للانتظار حتى تتحقق آمالك!

ثم عاد وقال أيضا:

- صدقني، فعل أي شيء الآن انتحار مـــع ســـبق الإصـــرار والترصد. لقد غرق البلد وفات الأوان.
- هذا هو رأيك إذن!
- نعم، وكل ما أرجوه منكم دعواتكم لي لأجل مجرى هواء مناسب..

- 3 -

الآن وبعدما انصرف الأصحاب أجد نفسي متوترا ومتضـــايقا وعرضة للوساوس والقلق.

منذ فترة وهذا الفتور القاتل يحيل دنياي ظلمـــة أبديـــة. وكـــأن الحماس الذي كنت أبديه أمام الأصدقاء وحديث الحسم لم يكن يعنيني!

ماذا أفعل لأواجه اليأس المدمر وهو يطوقني من كل جانـــب؟.. ثم هل لي بقوة سحرية تنتشلني من الوهدة التي أغرق فيها، وتـــنقلني إلى بسطة أخرى لا موت فيها؟

أعرف مسبقا، لا نوم الليلة. فقط سهاد طويل مـــع موســـيقى "فتاة أحلامي" لـــ "شارلز ميندوس"(*) الذي يشـــبهني، وحـــنين إلى أيامي مع فانيسا(**).

(*) شارلز ميندوس (1922–1971) واحد من عظماء الموسيقى في أمريكـــا في القرن العشرين. اشتهر بأغاني البلوز، وهو نوع من الموسيقى الشعبية مستمد من أغاني الزنوج. وفيه كانوا يعبرون عن حزنهم وأساهم.

(**) ظهر اسم فانيسا وتردد في مذكرات عبد القادر في أكثر من مرة، لكن الغريب أنه لم يشر إلى نوع العلاقة التي كانت تربط بينهما. والغالب أنها صديقة كان يعرفها أيام كان مستقرا في فرنسا. وغير بعيد أن علاقـــة حميمة كانت تجمعهما.

يكتب عنها مرة، فيقول: "لا أزال أذكر جملة فانيسا وهي تـــودعني في مطار أورلي: أخشى أننا لن نلتقي ثانية!.. كلما عـــاودني وجههـــا إلا

لا بأس أيضا بجرعات من الخمرة الرديئة، فوحدها القادرة على فك لون العتمة وتخدير الألم وإسكات صوت الفوضى داخلي ومـــن حولي..

وشعرت بالتعب والإرهاق. كان يمكنني أن أبقى. واش رجعـــني لهـــذه البلاد غير حظي التعس؟". وفي سياق آخر يكتب: "أعترف أن ما بـــتُّ أقتات منه اليوم ليست الذكريات بل صداها. ما بقيت أحتفظ به أَثـــر ذكرياتي مع فانسيا في وجداني، وليس أي شيء آخر.
أعرف. الماضي لا يتوقف ينتظر أحدا. مكنسة المستقبل تتربص به. وهذا ما اكتشفته وأنا أزور باريس بعد غياب دام لأكثر من أربع سنوات. لم أتعرف على مدينتي القديمة فيها.. بعدها بدلت فكرتي و لم أسع للقـــاء فانيسا كما كنت أخطط يوم سافرت. قلت لن آبه لنشيد الحنين داخلي ولن أسمع لنشيج القلب الحزين. وأعترف أنه كان خيارا صعبا وقاســـيا حين فكرت أن أدير ظهري لماضيَّ معها، وفي كل الأحـــوال لم أكـــن مستعدا لأنصت لصوت تحطم الأشياء داخلي، ولا رغبة كانت عندي في كسر مرآتي لأجل الوهم.".

- 4 -

عندما وجد عبد القادر إيمان تعتزل الشغل بلا حجة، قال أنها فرصته في نسيانها وتجاوز محنته معها. ولم يهتم لغيابها حتى شاهدها صدفة في حي "المدينة الجديدة". يومها تعالت من داخله أصوات عديدة متناقضة.. أصوات راحت تربكه وتزيده حيرة وكانت أيضا تدعوه إلى التأمل وإعادة التفكير في ماضيه معها وفي ما شاهده وأقض مضجعه

ما اكتشفه كان مفاجئا ومقلقا ومحيرا ولم يدر بخلده يوما. ورغم أنه طاردها وسعى للحاق بها إلا أنه وجدها تختفي دون أن تترك أثرا.

تمنى يومها أن تكون عيناه تخدعانه وأن من رآها أخرى غيرها. وأما الصورة التي ظل عقله يحتفظ بها فقد كانت تظهر فيها إيمان ببطن منتفخة وعليها آثار حمل واضحة.

كان بحاجة إلى فترة يتأمل فيها ما رآه ويراجع فيها حساباته ويقف فيها أمام نفسه. وقدر أنه لن يقدر على النجاة من النار التي تأكل داخله إلا إذا وقف على الحقيقة سافرة. ولم يكن أمامه لذلك إلا سبيل واحد قرر الخوض فيه.

زارها في بيتهم بعدما تحصل على عنوانها من سجلات العمل. لكنه بقي يطرق بابهم دون أن يجيبه أحد. وفكر في العودة أدراجه، ثم

خمن أنه يمكنه أن يسأل عنها عند الجيران. ونادت الزوجة التي فتحت له الباب على زوجها. وأخبره الرجل أن الفتاة رحلت مع أمها بعد محاولتها الانتحار، كما أخبره أنها حملت من رجل مجهول، وإنه يرجو ألا تعود بعد أن تضع مولودها. ولكن السيدة التي ظلت واقفة إلى جوار زوجها لم يعجبها كلامه فحاولت أن تثنيه عنه. فهو برأيها لا يليق في حق عائلة لم تسمع عنها أو ترى منها ما يشين طول فترة الجيرة. وقالت إن الفتاة مسكينة ولا بد أن أحدهم قد غرر بها وضحك عليها. وهددها زوجها أن تصمت، وطلب منها أن تغادر إلى الداخل، زاعما أنها لا تعرف شيئا. ثم عاد يؤكد أن جارته لم تكن إلا باغية. وأن مثلها يستحق إقامة الحد عليه وجلده.

سأله أن يمنحه العنوان الذي لجآ إليه. ونظر إليه السيد لأول مرة بريبة وحذر؛ فوجد نفسه مضطرا لأن يمارس الكذب. أنبأه أن الفتاة لم تتلق راتبها لمدة ستة أشهر، وأنه أخيرا تم صرف راتبها، وأنه عليها الحضور لقبضه. حينها فقط نادى الزوج على زوجته. واستفسر منها على عنوان الفتاة وأمها. وقالت السيدة أنهما غادرتا إلى "بني صاف". فللفتاة خالة تسكن هناك. لكنهما لم تتركا عنوانا محددا.

هاله ما سمعه ووقف عليه، فكأنه أمام أحداث بعيدة كل البعد عنه، وإلا فكيف تكون على صلة به وهو مغيب عنها لا يدري بها إلا سمعا ومن بعيد. وكان ممنونا للقدر الذي لم يقحمه في الموضوع بما يشوه سمعته. ووجد نفسه يتساءل طول طريق العودة: "هل تكون قد سعت إلى الانتحار بدافع خوفها أو برغبة منها في التخلص من الجنين!.. هل كانت يائسة أم أنها لوعة الحب الجارف ثم خيبتها ما دفعها إلى ذلك الطريق!.. ثم ما معنى أن يحدث كل هذا!".

- 5 -

كم حاول بعد ذلك أن يدافع عن نفسه. كان يسعى جاهــــدا ليبرئ ساحته. وبينه وبين نفسه ظل يردد: "كان يجب أن تطلعني على الأمر. ولم يكن هناك داع لأن تخفيه عني!".. ثم بعد ذلك أخذ شيء واحد يلح عليه ويشغله. ماذا عليه أن يفعل! وكان كلما أوغـــل في تعنيف نفسه وفي تحميل إيمان الأثر الجرمي لعلاقته معها، إلا وظهرت الفتاة أكثر طيبة ونقاء وجمالا.

كان متأكدا أن مجتمعا كالذي نعيش فيه لن يـــرحم أو يغفــــر لامرأة مثلها سقوطها، وأنه سيظل ينظر إليها بنظرات منحطة وينعتها بنفس الأوصاف التي أطلقها الجار في حقها. وفي خضم ذلك كــــان يشعر نحوها بالأسى ويشفق على ما لاقته بسببه!

لا بد أنه تسبب لها بأذية لم تجر بخاطره يوم أخذ يمارس عليها نزواته ويجعل منها عبداً لرغباته. وهو اليوم مدين لها بعدما قدمت له روحهـــا وجسدها. وإنه مدين لها بعدما حاولت تحمل عواقب نزواتـــه عليهـــا ولوحدها دون أن تسأله دورا أو واجبا. وإنه مدين لها لأنهـــا اختـــارت الصمت الخالص على أن تعكر عليه حياته أو تؤثر فيها بصورة ما.

تلك الفتاة لم تقترف ما يشين سوى أنها أحبت بإخلاص..

ألم توافه في أوقات متأخرة؟.. ألم تكن على علم بأنه مهـــدد، وأن صلتها به تجعل التهديد يشملها بدورها ومع ذلك لم تتخل عنه،

بل سارت معه عكس رغباتها، ثم ها هي الآن تلقى مصيرها لوحدها ودون أن تواجهه بالحقيقة أو تطالبه بشيء؟

إنه إذ يذكرها يستعيد صدقها معه وخسته..

ألم يطلق لها وعودا صريحة؟.. ألم يعلن في أكثر من مناسبة بأن أمرهما سينتهي بالزواج لا محالة، فلماذا تخلى عنها؟ وأي ضمير صوغ له ارتكاب جريمته البشعة في حقها؟[*]

(*) كتب هذا النص بتاريخ 12 فبراير 1994 والملاحظ أنه كُتب بضمير الغائب وعلى خلاف نصوص مذكرات عبد القادر، ولعل شعوره بالخزي والمهانة والتقصير ما دفعه إلى ذلك. وللأمانة أقول أن هذا النص لم يكن ضمن نصوص المذكرات، بل سوده صاحبه على ورقة بيضاء مطوية ضمها ثنايا الكراسة، وقد يكون كتبه بعدما افتقد لكراسته ممتلئا بفكرته حتى لم يقدر على إرجاء تسويدها، وإذا كان قد وضعها هناك فلأنه اعتقد أنه مكانها الطبيعي، وأنها جزء هام من ذاكرته وذكرياته.

- 6 -

ظل عبد القادر ومنذ اكتشف الحقيقة يمضي ليال بيضاء طويلة مسهدا ومفكرا. إنه يتعذب ويتحرق ويود لو يطلع معه جديد ينقذه من هذه الحالة التي لا تشبه شيئا ولا تعني شيئا كذلك. عبرته أفكار مختلفة. وكانت تحيله إلى سبل عديدة يسلكها. ومن بين هذه السبل كانت هناك واحدة بعينها أخذت تبرق له وتلح عليه في اطراد في الآونة الأخيرة.

ما حصل كان خطأه. وعليه أن يتحمل نتائج أخطائه وتبعات تصرفاته وأفعاله.

لكن هل عليه أن يتزوجها؟.. وهل سيكون قادرا على العيش معها؟.. ثم أي مشاعر سترابط بينهما بعد ذلك!

خبر من تجربة زواجه السابقة أن الحب قد يكون عنوانا غير صحيح لعلاقة تنتهي بالزواج. كما أن الحب أيضا قد يكون عنوانا غير صحيح لعلاقة اسمها الزواج. وكان كل ما يرجوه الديمومة. ولهذا فما عليه إلا أن يعول على مشاعر يصنعها فعله وأخرى سيكفلها له المستقبل.

إنه يرغب في صدق أن يجلو نفسه ويواجهها. ويرغب في أن يصل إلى حل حاسم يرضيه كرجل مكافح ألف المصاعب. رهانه ضميره وما تمليه عليه قناعاته. فهو كان دوما صاحب قضية وإنسانا

ملتزما. أما الجراح التي سيجنيها عبر هذا الدرب الشائك فهي ثمرات حمراء ملتهبة وضريبة هذا الوجود والانتماء.

إن الشعور الذي يتملكه الآن أشبه بشعور جندي لم يختر الحرب، لكنه لا يقدر إلا أن يواجهها بشجاعة وهو يجد نفسه في خضمها. ولسوف ينتشر الخبر كالنار في الهشيم. ولسوف تتناوله ألسنة الحاقدين والساخرين. ولسوف تزايد عليه الأخبار والصحف. ويكون كل ذلك وسيلة للنيل منه. لكنه لا يشعر مع ذلك بخوف أو رهبة، ولا يبدو عليه النكوص أو التردد. بل يجد نفسه على العكس متحفزا. وإن غفرت له فإنه سيبدأ معها بداية جديدة صحيحة، وسيعرف معها -هذه المرة- طريقا أخرى يكون فيها أكثر رجولة وعنفوانا وصدقا.

إن الشهرة والبطولة والنجومية أبدا لم تشغله. كما أنه لا ينكر أنها كانت سببا ملهما له في شبابه، لكنه اليوم يحيا واقعه بشكل مختلف وعميق. وهو مؤمن بعالم الأفكار ومقتنع أنه قادر أن يهب حياته لأجل فكرة. هكذا فعل والده، وهكذا يعتقد أنه قادر أن يفعل.

- 7 -

كان عبد القادر جالسا إلى مكتبه عاكفا على عمـــل جديـــد عندما انتبه إلى طرق على الباب. استغرب فلا أحد يزوره هذه الأيام. سلم على حورية وأثر المفاجأة لم يغب عنه. مدت خـــديها، لكنـــه كمن لم ينتبه مد يده يصافحها. شدت على يده مستغربة حركتـــه. ولم يجد بدا من الترحيب بها في شقته فدعاها إلى الدخول. وكانـــت قد أخذت في الجلوس عندما قالت معاتبة:

- ما عدت تسأل مؤخرا حتى قلت أن مكروها أصابك. وإن كنت تبدو الآن أمامي في أحسن حال فإن قلبـــي لا يريد أن يطمئن.

ورد عليها في فتور وقلق:

- بعض المشاكل في العمل تنغص علي وبشدة.
- لكن ماذا هناك؟
- لقد حُوِّلت إلى التحقيق بتهمة التقصير.
- أنا لا أصدق!
- بل صدقي كل ما يقال لك في هذا البلد.

رغم ذلك لم تبد مقتنعة تماما بأسباب تبدله وتغـــيره. ورمقتـــه بنظرة عتاب صريحة:

- لكنك لم تحاول أن تتصل بـــي حتى ظننت الظنون جميعها!

ثم خيم عليهما صمت مطبق قطعته وهي تحمل إليـــه بنظـــرات مستغربة:

- هل حقا أنت على ما يرام؟
- أظن ذلك..

حاول أن يتحاشى نظراتها المستفهمة، فغير باب الحوار وســـألها عن حالها وحال والديها وولديها.

- جميعهم بخير. يتطلعون بشوق لرؤيتك، ويسألون متى تنوي زيارتنا.

تجلت نظرة انزعـــاج في عينيـــه حـــاول مـــداراتها بابتســـامة واهنة:

- الحقيقة أني منشغل جدا في هذه الفترة.

رمقته بنظرة عتاب صريحة، وقالت:

- إلى الدرجة التي تغفل فيها أمر حبيبتك!
- إلى درجة لا يمكنك تصورها أبدا..

حاولت الابتسام رغم كلامه الجاف. ونطقت في دلال:

- لكن ألم تشتق إلي؟
- بلى، ولكن..

فكر ثم أردف مغمغما:

- حورية، هل يمكننا متابعة الحديث خارج البيت؟
- حسنا، كما تريد..

في الطريق حدثها بلا روح. ظل ينتقي كلماته معها في حـــرج وارتباك شديدين. وعندما حاولت أن تتأبط ذراعه نظر إليها نظـــرة محذرة، تضمنت كلاما من مثل: "أنا أخشى كلام الناس".

حالة الطقس في الخارج زادت من انزعاجه واختناقه. أفـــردت السماء مساحتها لغيوم رمادية داكنة منذرة بعاصفة على الأبـــواب. كما أخذت الريح توجه بسياطها إلى الجميع، فيما الهواء البارد يجمد الدماء في العروق. وتساءل: هل تكون حورية قد حدست أو خمنت شيئا؟ ثم ماذا يدور في خلدها؟ ومتى ستنتهي هذه الزيارة الكريهـــة؟ وكيف سيواجهها؟ وبأي روح سيخرج من هذه العاصفة؟

ضاق بعالمه الداخلي كما ذاق من قبل بالعالم الخارجي. و لم يجد من ملاذ فاستسلم لحورية وراح يتابع حديثها. وجدها تشـــكو لـــه غيابه وشدة شوقها إليه. كما حدثته كيف استاءت من عدم ســـؤاله عنها. ثم هاهي تسامحه هذه المرة، لكنها لن تغفر له ذلك في المقبل من الأيام. وطرقت موضوعا آخر فتكلمت عن جهازهـــا ومـــا أعدتـــه للعرس وعن المدعوين والوليمة وشهر العسل وأمور أخرى كـــثيرة. وخلال ذلك كانا قد عبرا حي يغموراسن باتجـــاه حـــي "شـــوبو". وهناك دخلا أقرب كافتيريا صادفتهما.

انزعج عندما وجد أغلب الطاولات مشغولة. وفكر بـــالعودة أدراجه والبحث عن كافتيريا مناسبة، لكنه في الأخير نزح إلى أبعـــد ركن ممكن، وجلس يقابلها وهو يسألها ماذا تشرب. وبدت قلقة لا تفهم ما يدور حولها، فقالت:

– أي شيء، فذلك غير مهم.

شربت من كأس العصير أمامها، بينما رشف هو مـــن فنجـــان القهوة. وكان عبد القادر قد ران إلى الصمت وتصنع الوجوم كأول خطوة يخطوها في مواجهته المنذرة معها..

وقالت الفتاة مستغربة:

- منذ التقينا، وأنت تبدو لي منزعجا، حتى أنك لم ترحـــب بـــي كما كنت تفعل دوما..
- ربما لم أتوقع رؤيتك.

لم يعرف ماذا يقول فجاءت كلماته باردة لا تحمل أي معـــنى. وعادت حورية فسألته مرتابة:

- هل هناك ما يزعجك من ناحيتي؟
- لا، أبدا. لكني واقع في ورطة ولا أعرف كيف أتصـــرف إزاءها.

هتفت مختنقة، وقد زادتها كلماته المبهمة توترا وقلقا:

- لكن ماذا هناك؟ يجب أن تطلعني على ســـر هـــذا الـــتغير المفاجئ وغير المبرر؟

آمن أنه قطع أول خطوة قبل مصارحتها بقراره الخطير. وقـــال وهو يتحاشى النظر نحوها:

- ليس هناك أي سر، بل ظروف مستجدة أخلطـــت كـــل حساباتي القديمة..

سألت وهي تشبك أصابع يديها أمامها:

- لا أدري لماذا تتعمد تعذيبـــي! هيا قل ماذا هناك!

بدا مختنقا وحائرا من أين وكيف يبدأ. وأشعل سيجارة جديدة رغم أن سيجارته الأولى كانت لا تزال تشتعل على المنفضة..

- الحقيقة أن هناك ما يضطرنا إلى أن نعيد كـــل حســـاباتنا بشأن الزواج.

اكتسحتها المفاجأة. وظللتها كآبة متوحشة قضمت في ضـــربة واحدة كل حسنها. وهتفت في صعوبة كمن فقد قدرته على النطق:

- ماذا تعني؟

وما كان قادرا على أن يشرح لها، لكنه أردف:

- الأمر فوق طاقتي. وثقي أني لا أود أن أجرحك لكن..

قاطعته في عصبية لم تستطع مداراتها:

- قل ما عندك، ولا تهتم بمشاعري!

وقال يجهز عليها في ضربة حادة وخاطفة:

- أرجو أن نصرف النظر عن أمر زواجنا كليا.

ها هو يقطع أهم خطوة في قراره الخطير. وراقبها وقد تجلت في عينيها الدهشة، كما هتفت في فزع:

- ماذا تقصد؟ أنا لا أفهم شيئا!

ضاق بحصارها، واندفع يهدم المعبد. وقال في جنون:

- لن يكون هناك زواج.

ها هو يحقق لها كل مخاوفها. وندت عنها آه عميقة تجلت فيها صدمتها كاملة. وواصل يجهز على كل شيء جميل ودفعة واحدة:

- أعتقد أننا لا ننفع لبعضنا، كما أرجو أن يلتفت كل واحد منا إلى ما كان فيه قبل أن نلتقي، فذلك أفضل..

تردد، ثم واصل في حزم:

- كما أرجو أن يكون هذا آخر لقاء بيننا. فلا مجال لأن نلتقي مجددا.

ما لبثت أن بدت كحجر جامد وكامد تحت تأثير الصدمة. سُحِب كل لون من وجهها. وجاهدت نفسها لتهتف:

- لماذا تفعل بي هذا؟

وكان وكأنه يسحب كلماته من قرار عميق عنــدما واجههــا يحدثها:

- صدقيني عندما أقول لك إن هذا ضد رغبتي وفوق طــاقتي. وما من حيلة أمامي..

وران صمت جديد لم يعمر طويلا، قطعته حورية وهي تســأل في ألم:

- هل هناك أخرى؟ هل للأمر علاقة بزوجتك وأولادك؟ من حقي أن أعرف!

أخذ يلاعب فنجان القهوة في طبقه. ثم قال وهو يختلس إليهــا نظرة حذرة:

- كل الذي أقدر على قوله الآن، أني في موقف حرج وواقع في مشكلة حقيقية ضقت معها بكل شيء!

غشيتها الخيبة. وبدت كالغائبة وهي تحت تأثير الصدمة..

- لا أصدق أنك ضقت بــي أنا أيضا!
- إنك لا تتصورين كم أتعذب لأجلك. لكن الأمر حقا فوق طاقتي.

ولم تقدر على مغالبة أعصابها، فقالت:

- وماذا تريدني أن أقول لأبــي وأمــي عنــدما يســألوني عنك؟
- أشعر بورطتك، وبما أكون قد سببته لك. لكن ما من حيلة أمامنا. هناك سور منيع يقف الآن حائلا بيني وبينك! أنــا آسف..

بدت ساهمة وكأنما تستغرقها أفكار بعيدة..

- وماذا ينفع الأسف! كنت أعتقد أنك أكبر من هذا. لكن يبدو كذلك أنك لم تغفر لي ماضي معك و لم تنسه!

قال وهو يتشرب اليأس المدمر:

- حورية، الظروف هي التي تحتم علي ذلك. وليس للأمر علاقة بماضينا معا. يجب أن تتفهمي وضعي، وحاولي أن تجدي لي الأعذار لا أن تتهميني..

سألته متهكمة:

- ولكن هل هذا أمر؟
- بل رجاء. إن كنت أحببتني يوما ووثقت بي، فلا بد أن تفهميني الآن! أنا أمام ظروف جادة وقاهرة، وليس لي معها خيار..

ظهر عليها لأول مرة التوتر والغضب. وقالت في حدة:

- الحب أقوى من كل شيء، فلماذا تتركني؟

وزادت فورة غضبها وهي تشارف على الانفجار..

- هيا قل الحقيقة. أنت لم تردني إلا بدافع الانتقام!

هز رأسه يكذب كلامها وينفيه جملة وتفصيلا..

- ما تقولينه ليس له أي أساس. لقد أخبرتك أن لي أسبابي!
- وما الذي يمنعك من أن تطلعني عليها! هيا قل ما لديك الآن..

استفزه كلامها كثيرا. فما تقوله غير صحيح. وهي غير مطلعة على أسبابه الحقيقية التي تدفعه إلى الانفصال عنها، كما أن جميع أسبابه طارئة فلا صلة لها بالماضي. إنها مخطئة. وهي غير مقدرة. وهو غير راغب في أن يتزحزح عن موقفه ويبوح لها بسر الغموض الذي يكتنف كلامه والذي لم تستسغه و لم تستوعبه.

لقد سلبها سلاحها الوحيد الذي حاولت أن تقف به في وجه الزمن. وكان لديها بصيص من أمل في المستقبل فإذا به يجهز عليه. ها هي تذرف الدموع أمامه دما صريحا وتقف دون القدرة على كبت ألمها أو السيطرة على نفسها..

- هذا ما لم أتوقعه منك. لم تنس أبدا الجرح القديم. وقلت لنفسك أول ما رأيتني أن هناك حسابا يجب أن يوفى. ورحت تعمل جاهدا لأجل تحقيق مرادك والانتقام. حقا إنك ممثل بارع.

هزته كلماتها، وأزعجه أن تتهمه بما ليس فيه. وهو لم يضمر لها غير الحب صرفا فلماذا تصر على ذبحه بمثل هذا الكلام؛ ثم كيف السبيل إلى أن تصدق أنه يعاني في سبيلها أكثر مما تعاني هي. وآثر الصمت هذه المرة، فلا جدوى من أن يدافع عن نفسه..

- ألم يكن يليق بك كرجل محترم أن تحضر إلى والدي الذي ربطت معه الكلام، وتعتذر له. ها أن توثر الهرب كأي لص جبان، بينما أطاردك أنا!.. أنا التي كنت مجنونة بحبك. وعاملتني أنت كما يعامل أي كلب حقير. هل حقا يسعدك إذلالي!

كان منتبها ومصغيا إلى كل حركة وكلمة تبدر منها. وكان واضحا أنه يخشى أن تثور فتقلب المكان. والحقيقة أنها جاهدت حتى تكبت مشاعرها فلا تظهر على السطح، وسعت لاستعادة توازنها وحاولت ضبط مشاعرها ما قدرت على ذلك. ولم تكن تخشى الناس من حولها بقدر ما كان يشغلها ألا تظهر بمظهر الضعيفة البائسة التي نال منها قراره المدمر.

- قولي ما تشائين. أنفثي غضبك الآن في وجهي. المهم أن تشعري بالراحة وأن تكوني قادرة على النسيان.
- بتصرفك هذا تكشف لي أنك آخر من همه راحتي. كما لا أستغرب شماتتك!

خفق قلبه وتألم لألمها، لكن ما من حيلة أمامه..

كان يعرف أنه يصدمها بقراره الذي لم يذلله بأسباب مقنعة ومفهومة يمكن أن يستسيغها العقل في سبيل هدوء نسبي. وأطلقت ضحكة قصيرة هازئة تسخر بها منه، وقالت تواصل..

- هل تعتقد أني سأحزن لرحيلك عني!.. لم أعد شابة لتؤثر في بمثل هذا القرار. كما أن خائنا ومزيفا وحقيرا مثلك سأنساه دون أسف. انتقامك لن يشلني أو يجعلني أندم، كذلك لن أشعر بالضياع كما تتوهم..

كانت تكابر. وكان يفهم أنها صورة المرأة التي لا تريد أن تعترف بالهزيمة. وعندما قامت تغادره شدها من ساعدها. وقال لها في اعتذار وإشفاق:

- حاولي أن تعتني بنفسك، وصدقيني عندما أقول لك إنني أحببتك في الماضي والحاضر. وصدقيني كذلك عندما أقول إن ما يحدث معي اليوم يفوق قدرتي ويتجاوز إرادتي..

سحبت ذراعها من قبضته في عنف، واستمرت في السير غير عابئة بكلامه وكأنها لم يعد يهمها ما يقول أو باتت لا تسمعه. وتعلقت عيناه بها وهي تغادره كأثر يؤول إلى زوال. وانتابته مشاعر متناقضة تراوحت ما بين الراحة والحزن. قال يحدث نفسه: "تجشم واصبر وصابر وتحمل كلماتها ثم أظهر أمامها عنادا ولامبالاة، فأمامك

الأيام والليالي لتستعيد ما حدث ولتذرف دموع المهانة والأشـــواق. فمن يروم التضحية يتنكر لعواطفه ويتجـــاوز علـــى أذى الإخـــوان والأحباب. هكذا كان والدك، وهكذا قررت أن تكون أنت.."."

لم يكن في حاجة ليقنع أحدا. حسبه أنه مقتنع بما يفعل. ومـــا لديه من أسباب يكفل له القيام بهذه الخطوة المدمرة لكليهما. وإنـــه سيعول على النسيان كخطوة ثانية يخطوها. أما خطواتـــه الأخـــرى القادمة فستكون أصعب ما سيواجه حياته على الإطلاق..

- 8 -

مضى حوالي شهر وعبد القادر لا يزال يرقب قرار لجنة التحقيق. كان كلما هاتف أحد المعنيين بالأمر إلا وطالبه بالصبر والتريث. لا جديد بعد. هكذا اتفق الجميع. وأمام مواساهم له شعر بضآلته وصغره. كان مذ قرروا تجميد منصبه وإحالته إلى التحقيق قد اعتزل الناس واعتكف في البيت. فلم يشاهده أحد في طريق أو مقهى أو حفل. ومما زاد من إحساسه بالعزلة انقطاع لّمة الأصحاب عنه. ولا بد أن المشري لا يزال غائبا، كما يكون قدور قد هاجر، لكن أين بوعلام؟ وكيف لم يظهر إلى الآن؟

لم يستطع المقاومة أكثر، وعزم في صباح اليوم التالي على الخروج من هذه العزلة التي تطوقه كأصفاد المحكومين بالأشغال الشاقة. على الأقل يُعرج على المسرح زيارة. لا يزال ينتمي إلى هناك ولم يقصه أحد بعد. وفي الصباح أبكر. عرج على المطبخ أين حضر القهوة، ثم أشعل سيجارة تذوقها على السريع. لم يهتم كثيرا بمعالجة هيئته. فقط لم ينس جمع أوراق مسرحيته الجديدة داخل ملف. فكر أن يطلع بوعلام وأعضاء فرقته عليها. ستكون مشروعهم القادم. عمل مختلف يؤسس به لانطلاقة جديدة.

في الخارج انتبه إلى غياب المُقعد. لم يجده في مكانه كالعادة. ارتاب للحظة ثم قرر ألا يهتم للأمر. حاول أن ينشغل بالجو. لاح له

بعض الصحو تُكدره غيوم رمادية. حدث نفسه إنها تباشير فصل جديد على الأبواب. وأمل أن يكون ربيعا مزهرا ومختلفا. وأثناء السير عبَّ أنفاسا عميقة تفتحت على أثرها رئتاه، وزال عنه كل أثر للإرهاق أو التعب.

ركب الحافلة التي يستقلها ككل صباح. وابتاع جرائده كما كان يفعل دوما. واستطلع الأخبار على طاولة المقهى كحاله دائما، ثم عرج أخيرا على المسرح..

وجد أعمال التصليح والترميم تشرف على نهايتها، ثم ها هو المسرح يتشح بحلة جديدة مضيئة مسحت عنه كل أثر للحريق. وفي الداخل بادرته فتيحة السكرتيرة بتحية الصباح المعهودة وهللت بظهوره المفاجئ، وإن تغيرت ملامحها فجأة. وإنَّ ما ظهر عليها ليس انزعاجا بل توتر وارتباك وحيرة. وواضح أن على طرف لسانها كلام، فسألها:

- ماذا هناك؟

ثم وأمام صمتها وحيرتها عاد يسألها من جديد:

- هل جدَّ أي جديد منذ غيابي!

وفي بلبلة قامت تبحث في أحد الأدراج، ثم قدمت إليه ظرفا، وهي تقول:

- لقد وصلتك مؤخرا هذه الرسالة، كما أن هناك أمر آخر يجب أن يطلعك عليه بوعلام.

ارتاب وهو يتسلم الظرف منها. لا يزال مطاردا. يتوقع ذلك؛ لكنه أمامها لم يظهر ما يشي بانزعاجه وانقباضه. وراح يتجاوز ما انتابه بسؤالها عن بوعلام:

- بالمناسبة أين بوعلام؟
- لم يحضر بعد.
- حسنا، عندما يحضر أبلغيه أني في انتظاره، كما أرجو منك أن تحاولي نسخ هذه الأوراق، لكن احرصي عليها..

في طريقه إلى مكتبه فتح الظرف المرسل إليه. وجده يتضمن دعوة من وزارة الثقافة في جنوب إفريقيا لتكريمه وتنشيط إحدى ملتقيات المسرح فيها باعتباره أحد أعمدته في إفريقيا والعالم العربي. كما لم تغفل الوزارة أن تنوه بعروضه وتجربته التي صارت تدرس في جامعاتهم ومعاهدهم.

ابتسم وشعر ببعض الزهو والتألق، واعتقد أنه تجاوز مشاعره السابقة، لكن ذلك لم يستمر طويلا.

اكتشف أن المكتب قد جدد بالكامل. طلي ونظف وأعيد تأثيثه بأثاث فاخر. لكن أين اللوحات التي كانت تزين الجدران؟ ثم أين المكتبة والوثائق والأوراق التي كان يحتفظ بها هنا؟

وقبل أن يستدعي السكرتيرة ليستفسر منها ما حصل هنا، وجد بوعلام يفتح عليه باب المكتب ويدخل من دون استئذان. عيناه تقدحان بالشرر، ويبدو في حالة كبيرة من الغضب. حتى إذا وقعت عيناه على عبد القادر بادره بسؤال غريب بدا له مستفزا من لهجته:

- ماذا تفعل هنا، وفي هذا المكتب؟

استغرقت الحيرة عبد القادر للحظة. لم يعرف ماذا يقول ولا كيف يرد. وهمهم:

- ماذا تقصد؟

غريب أن يتصرف معه بهذا الشكل المخزي دونما دافع صريح. ونظر إليه مرتابا بعدما أمسك بزمام نفسه حتى لا يثور. وأما بوعلام فبدا واضحا توتره من حركة يديه وعينيه المرتابتين. وهتف يعالج أمره بمزيد من الثقة استوحاها من عبارة تتضمن استهجانا واستغرابا وفظاظة:

- هل حقا -وكما قالت فتيحة- لم يُعلمك بالنبأ أحد بعد؟

أي نبأ خطير هذا الذي يجعل من الصاحب عدوا!

وهتف مستاء:

- أي نبأ تقصد؟

حينها اندفع بوعلام يقول موجزا كلامه ما استطاع:

- قرار إقالتك! أستغرب عدم إطلاعك عليه حتى الآن رغم أنه صدر قبل نهاية الأسبوع الماضي.

يا إلهي، كيف له أن يصدق الأمر؟

تقبل نبأ إقالته كمن تسقط ضربة ثقيلة على رأسه. غشيه الوجوم ولبث فترة من الزمن متحصنا بالصمت معاندا الألم ما أمكن. ثم سأل:

- ولكن أين هذا القرار؟

- هناك نسخة منه على مكتب السكرتيرة. كان يجب عليها أن تطلعك عليه. ستدفع ثمن تصرفها الأخرق هذا عاجلا.

طلب السكرتيرة فدخلت المكتب وهي تحمل نظرة منكسرة. أشاحت بوجهها تتحاشى نظراتهما، وناولت عبد القادر ورقة مطوية مشدودة بمشبك حديدي ومرسلة من وزارة الثقافة الجزائرية.

- كنت أعتزم إطلاعك عليها عندما دخلت، لكنك لم تمنحني الفرصة.

فتح الورقة واطلع على الأسطر المقتضبة التي تضمنت خبر إقالته بعينين ذاهلتين غير مصدقتين.

- لم أكن لأسمح لأحد بدخول مكتبي أثناء غيابي، ثم ما حصل هو خطأ السكرتيرة. وأنا لن أفوت لها هذا التقصير في أداء واجبها.

هل يكون قد تجاوز حدوده فعلا؟

تساءل كيف يعمد إلى استفزازه بهذه النظرات المقصودة والمحملة بمئات المعاني، ولماذا تند عنه كل هذه الوقاحة هو المتملق السائل دوما؟.. ثم هل جمله المنتقاة تحاول أن تؤكد معنا حاضرا لديه بذاته؟ وهو يود أن يقول له أنه أصبح صاحب هذا العرش والآمر هنا أم أن هناك ما يستثيره؟.. هل لأن عبد القادر وأمثاله يدرون بمستواه الحقيقي وبكل خفاياه قام يتصرف بهذا الشكل الأخرق؟.. ثم هل هذا فقط ما يحرجه ويدفعه إلى الخروج عن طوره؟

- اسمع، أظنهم لم يغفروا لك تصريحاتك. واعتبروها تهديدا للأمن العام وتحريضا يمس بمؤسسات الدولة. كما أنهم لم يرضوا عن خطتك في العمل والطريقة التي كنت تسيّر بها المسرح. واعتبروا رفضك لمشروع "ملحمة بلادي" تكسيرا للخط العام وانحرافا بالمسرح عن المنحى المرسوم له ولغاياته. وزعموا أيضا أنك كنت تستغله لأغراضك الشخصية وتنشر فيه أفكارا تثير القلاقل وتضرب استقرار البلد..

- هكذا إذن! اعلم أن كل ما قلته لا يهمني..
- لقد قلت لك من قبل أن تساير التيار حتى لا تتعب.
- جاء الدور عليك الآن، فسايرهم حتى تنال رضاهم.
- لماذا تحاول أن تحملني نتيجة أخطائك أو قرارات المسؤولين؟ حقا من لم يقدر على الحمار يقدر على البردعة!

وكمن كان في عجلة من أمره أدخل بوعلام يده في جيب سترته الداخلي. أخرج مجموعة من الأوراق النقدية. عدَّ منها بعضها وقدمها لعبد القادر، وهو يقول:

- هكذا لا أكون مدينا لك بشيء..
- بل تصبح مدينا لي بالصداقة التي كفرت بها!

ماذا كان يرجو منه!.. هل كان يتوقع من صاحبه أن يرفض المنصب؟.. ولكن بدافع ماذا كان عليه أن يفعل؟.. حقا، إنه أمر مستبعد. وإذا كانت الرفقة تعني لعبد القادر شيئا، فليس بالضرورة أن تعني لصاحبه أي شيء!

أربد، وتساءل هل عليه أن يبادر إلى فعل ما!.. هل عليه أن يلجأ إلى المسؤولين وأصحاب النفوذ أم عليه أن يرضخ لمساوماتهم الرخيصة لأجل استعادة المنصب والحفاظ عليه؟.. وشعر بالاشمئزاز يغمره.

بادر إلى استعمال الهاتف. طلب مدير الثقافة الذي قال في استغباء ظاهر أن لا يد له في القرار..

- التعليمات صدرت من فوق. لكن كن متيقنا أني سأعمل كل ما في وسعي لأجد لك وضعا مناسبا وأفضل. يمكن تعيينك مستشارا في المديرية أو حتى الوزارة إذا ما توفرت

لديك الرغبة. أنا شخصيا سأتكفل بالأمر. خذها مني كلمة شرف..

إنهم لم يعودوا يرغبون فيه. وإنهم يعزلونه عندما يفتكون منه أعتى أسلحته. أما الآن فإنهم يفكرون كيف يمتصون غضبه ونقمته. يظنون أنهم قد قضوا عليه ويدعونه إلى القبول بأمر الواقع والرضوخ. يريدون كذلك ترويضه عندما يقنعونه بمنصب جاف. فالفنان الذي يعيش بعيدا عن الخشبة لا يلبث أن يذبل كالزهرة البعيدة عن الضوء. نفس الفلسفة القديمة. نهج واضح متبع على أكثر من نطاق. وكأن كل دورهم - هؤلاء الموجودون على هرم السلطة- محصور في اصطياد الأنفس الطامحة وتحطيمها!

الآن فقط يدرك أن وجوده في المسرح انتهى. وأن عهده ولى ليبدأ عهد جديد في كنف مدير جديد. لكن هل تعيين صديقه بوعلام مديرا جديدا جاء مجرد صدفة أم أنه يدخل ضمن تخطيط مسبق يهدف إلى ضرب الوحدة فيما بينها ورجال المهنة الواحدة بعضهم في بعض حتى يصعب لململة الأجزاء المتناثرة فيما بعد، ويضيع كل صوت إذا ما قرر الاحتجاج!

بذل مجهودا خارقا ليتماسك ويضبط أعصابه. وكان أخيرا قد تزحزح من مكانه. وقفل خارجا وفي إثره فتيحة السكرتيرة..

- ما كان يجب أن يعاملك هكذا!
- لا بأس، ليس هذا ما يحز في نفسي الآن.
- كما كان منوط به أن يرفض المنصب
- لماذا؟ كانوا على كل حال سينصبون غيره. ثم إن الفرصة لا تأتي مرتين..

- كان يجدر بك أن تذهب إليهم، وتدافع عن نفسك!
- أبدا، أنا لن أتملقهم لأجل المنصب، فهذا ما يريدونه. ثم أظن أنه لن يكون هناك أحد ليستمع إليك وسط هذه الفوضى التي تغرق فيها البلاد.
- كان يجب أن تبقى. أنا لا أفهم كيف يسيرون الأمور هنا، كما لا أعتقد أن بوعلام هو الرجل المناسب!
- هكذا تجري الأمور دائما، وأنا أفهمهم. إنهم لم يرضوا عن الثور الحرون، وأرادوا بدلا عنه ثورا أعمى يدور في ساقيتهم.
- إنهم يعملون معك ما عملوه مع السمكة عندما انتزعوها من الماء.
- ولكني لست سمكة، وأنا لا أحتاج لأن أكون مديرا للمسرح حتى أبدع. أنا فنان، ويمكنني أن أنتقل بفني إلى أي مكان..
- ولكن إلى أين ستذهب؟
- الآن لا أدري. لكني لن أعدم مكانا أشتغل فيه..

- 9 -

سار عبد القادر خارجا بخطى مثقلة بـــالقنوط. وفي الخـــارج لفحته بعض النسمات المنعشة فأبردت نار نقمته.

وسط سماء زرقاء متشحة بالسحب، لاح له ميدان الســـلاح. فكان كمن يراه لأول مرة. ثم ألهمه كل ذلك ووجد نفسه يفكر في مسرحيته الجديدة.

نعم، أمامه العالم كله..

الساحات والشوارع كلها ستحتضن فنه الذي أبدا مـــا كـــان حبيس صالات العرض أو رهنا برضا المســـؤولين. أمـــا مشـــواره فسيواصله غير عابئ بشيء..

شعر لأول مرة بخفة بعد كدر وخور وإحساس مثقل بالهزيمـــة، وكأنه تحرر من نير يثقل عليه. وغمره إحساس بصفاء عجيب، وكأنه نسي تماما ما حصل معه.

إنه وليد هذه اللحظة، ومنسجم معها حتى يود لو يستغرق فيها إلى الأبد..

- 10 -

لم يقدر عبد القادر أن يخفي دهشته وهو ينتبه إلى المشري يقف على بعد أمتار منه وينادي باسمه. كانت هيئة هذا الأخير قد تبدلت بعدما أرسل ذقنه، كما لم توحي نظراته و لم تحمل نبرات صوته أي ود قديم. وأمام هذه الحالة غشيته الحيرة وتحجر على طرف لسانه كلام من مثل: "أين كنت؟ وكيف عدت؟ ولقد اشتقنا إليك!". ثم امتقع لون وجه عبد القادر، ودب فيه خوف ورجاء وهو يرى المشري يشهر بمسدس نحوه. كذلك انتبه لأول مرة لمصاحب له كان يقف خلفه تماما. والظاهر أنه يوفر له الحماية والسند.

بدا أنه لا يفهم ماذا يحصل معه عندما دوى إطلاق للنار. وشعر بالرصاصة تخترق جسده وتسكن صدره. وشعر بألم شديد وقاس ينتشر سريعا عبر كامل جسمه. وكان كل ما قدر على النطق به: "علاه، يا المشري خويا؟!".. ثم أخذت أنفاسه تتردد وتتواتر وهو يحاول جاهدا استنشاق أكبر كمية من الهواء جراء الاختناق. وقتها كان المشري وصاحبه قد انطلقا باتجاه المدينة الشعبية القديمة في ركض محموم وهما يرددان عبارات التكبير والنصر.

ندت عنه آه عميقة وطويلة. وهو يتهاوى لم يلحظ إلا ضوءا أزرق مضيئا يعبره؛ ثم لحقه سواد معتم عندما ارتطم ظهره ورأسه بالأرض.

على أدراج المسرح سقط فاقدا الإحساس بما حوله. وتبعثـــرت الأوراق التي كان يحملها من حوله مبقعة بدمه. ولقد كانت هنـــاك أوراق أخرى أخذت تسقط عليه وتغطيه. وكل ما ظل يمسك به في يده حافظة الأوراق خاوية. لكن لثانية واحدة فتح عينيـــه وعـــاوده وعيه في تركيز شديد وعجيب. تذكر والده وهو مســـجى داخـــل صندوق خشبـــي. وتذكر كيف أولم صاحب الأنف المعقوف نكلة في والده المتوفى. ثم انطفأ كل شيء وإلى الأبد.(*)

(*) لا يمكن للقصة أن تنتهي بمثل هكذا شؤم. ذلك ما كنت أفكر فيه وأنا أخط آخر سطر فيها!

لم أرد أن يكون كمالها على هذا الشكل المأساوي، وحاولت جاهدا أن أغير في هذه الخاتمة الملغمة والملعونة.. فكرت مثلا أن أكتب عن جنازة عبد القادر، وخمنت أن أصورها وقد تحولت إلى مظاهرة كبيرة منـــددة بالإرهاب يخرج فيها الوطن بكامل أطيافه وأشكاله ليقول (لا) في وجه الدمويين والتكفيريين.. حاولت أن أجعل أيضا "إيمان" القلب الـــدافئ والعامر بالمحبة تزور عبد القادر في إحدى الصباحات الندية، وعلى تربة قبره تذرف ما تبقى لها من دمع قبل أن تخبره أنها قـــررت الاحتفـــاظ بالجنين الذي يسكن أحشاءها نكلة في هذا الموت الذي يتربص بالحيـــاة يريد أن يفنيها..

في الأخير عدلت عن كل ذلك. لا سبيل إلى هذه الرومانسية في عـــالم كل ما يطالعك به بلا معنى!.. ألاّ تعجبك حالة ما، لا يعني أن تقـــوم فتصححها بغلطة. وهكذا وجدتني أراهن على النهاية التي سبق وكتبت، مؤمنا أن (الرواية) لا تحتاج إلى كل هذا البهرج. ليست عروسا لتتزين أو تتجمل. إنها رواية عن الموت.. الموت الذي قلته بكل فظاعته.. المـــوت الذي لا يزال ينخر فينا عميقا، والذي لا حاجة لنا بتزيينه أو تجميله..!

مزمور الخِتام

أرى أنه حتى وبعدما انتهيت من مسودتي الأولى لا يريد الموت أن ينتهي مني فكأنه يمنحني في مكر أياما زيادة ساخرا من حالي ومذكرا إياي أنه هو وحده القادر ومن له اليد الطولى.

أجدني لا أزال مُمددا على سرير المرض، ولا شيء معي يؤنس وحدتي غير العتمة ودبيب الألم.

لا شيء هنا.. غير فراغ كافر، وزمن مقعد كسيح لا آخر له، وصمت ممطوط لا جدوى منه..

أعود، فأحاول على هدى الضوء الشحيح المتسرب من عمود الإنارة الخارجي أن أشغل نفسي بعمل أي شيء آخر. يقع نظري على الحذاء الذي لا أزال أنتعله. أتأمل فيه، ثم فجأة انتبه إلى سَيره.. سير الحذاء، وكأني أراه لأول مرة.

ربما ليس علي أن أكتفي بوضع نقطة النهاية للعمل الذي سوَّدته وانشغلت بتحبيره طوال هذه الأنهر والليالي..

ربما لا يزال في وِسعي فِعلٌ أخير. أن أضع نقطة أخرى.. نقطة تعني بشكل ما نهاية لحياتي.

أنزعُ سير فردتي الحذاء، وأشد الخيطين إلى بعضهما بما يؤلف خيطا واحدا طويلا متماسكا. أربط أحد طرفيه بمسند السرير الحديدي وأربط الطرف الآخر المتبقي حول رقبتي، وأنتظر..

ربما علي أن أبقى هكذا إلى أن يداهمني الألم ويصبح فظيعا، فحينها فقط لن أفكر في التراجع.

ها هو الألم يستيقظ الآن، ها هو قد بدأ يكتسح..

لا بد أن في جعبتي بعض من وجل.

أُصبِر. يجب أن أتجلد قليلا. علي أن أصبر حتى يقوى الألم ويشتد ويبلغ مداه، فهذا كفيل بأن يجعل رعبي أقل.

الآن لم تعد تغريني إلاَّ سفرة أخيرة. فقد تعلمت كيف أتصالح مع الأشياء التي لا يتصالح معها المرء عادة.. تعلمت كيف أُقبل على الموت، وأضع حدا لقصتي المزعجة.

الآن أقف تماما على الحافة. أصيح في الموت بملء فمي: "أنا لا أخشاك..". أعبر المسلك الأخير؛ وأما النور فقد بدأ ينكسر. يشح. ينطفئ..

الآن أجدني وجها لوجه معه. ها أنا أمد له اليد.. ذاهب إلى حضنه، ورغما عنه..

- تمت -

على "الإمَيلِ" الخاص بـــي وصلني هذا الرد من أحد الأصدقاء، وكان قد اطلع على الرواية مخطوطة. أنشره بعدما أثارني للأمانة:

"سيدي، لِم ذلك الفخ الذي نصبته لنا نحن القراء في بداية هذا الكتاب!

سيدي، لا يمكنني أن أقتنع بما دبجته ووضعته كمقدمة، ولا أظن قارئا بسيطا سيصدق ادعاءك حين تروي كل تلك المزاعم وتدعي أن لها علاقة بكاتب الرواية وظروف كتابتها.

سيدي، أكاد أجزم أن ما من كاتب لهذا النص غير الجنين الذي حبلت به إيمان من عبد القادر. إني أراه اليوم في تلك السـن الـتي تسمح له بإبداع مثل هذا، ثم إنه وحده الأقدر على كتابـة سـيرة والده. ثم اسمح لي بأن أشطح بخيالي قليلا فأتمثل تلـك المـرأة الـتي ناولتك المخطوط (بصفتك الشخص الذي ورد اسمه مطبوعا علـى غلاف الرواية) ثم اختفت فجأة على أنها إيمان بعدما لم تعد تعـرف كيف تتصرف بتركة الرجلين (الرجل = الكاتب، الرجل = موضوع الكتاب). وأظنها لم تلجأ إليك دون سبب، ويبدو أنك أحد أبنـاء عبد القادر من زوجته وردة، أو هذا ما انتهيت إليه أيضا.

سيدي، لا أزال أقف مذهولا فاغرا فمي أمام هـذه النقطـة، وأسأل ما علاقة صاحبـي الذي اعتقدت أني أعرفه بـالفكرة الـتي قامت فجأة في ذهني، ونبتت فيه في غفلة مني، والـتي لا تريـد أن تغادرني وتتركني بسلام مهما حاولت؟!.. ولا أكتمك أني فكـرت

جادا في البحث في تلك المزاعم الذي يضج بها عقلـــي الآن علـــي أكتشف خيطا ما، أو لعلني أفعل ذلك قريبا بعد كل ذلـــك الهـــوس الذي تملكني؛ ومن عادتي - وأنت خير من يعـــرفني - أني لا أتـــرك شيئا يحصل معي دون حسم وإن تأجل!

سيدي، أقول - وبعد كل ما أوردته لك هنا - أنـــك لســـت مدينا لي بأدنى تفسير، كما أني لست مستعدا أن أغير من قناعتي هذه التي أوضحتها لك وأفصحت عنها مهما عُدت أنت وادعيت، فهـــي قد صارت عندي ثابتة ثبوت الشمس في وقت الزوال. وفي الأخـــير لك أن تبلغ سلامي للمبدع الأريب أيًّا كان، وأخبره أننـــا بانتظـــار كامل الحكاية. حكاية إيمان بعد موت عبد القادر، وحكاية الجـــنين الذي صار رجلا.. وحكاية هذا البلد الملعون الذي ما عدت أصدق فيه شيئا..!".

للتواصل مع الكاتب:

mohammeddjafar@hotmail.fr

مزامير الحجر

أعيش نفس المشاعر التي أملت علي الرحيل والهجرة ذات يوم، ولا شيء معي غير الوحدة وسؤال واحد يتكرر للمرة المليون وينخر الدماغ الذي أترقب انفجاره في أيِّ لحظة: «ماذا أفعل وسط هذا الفراغ الذي لا معنى له، وفي هذا العالم المغشوش؟!»..

في فرنسا قد يصنع مجدك عمل كبير تنجزه، وأما «هنا» فلا يسع لغير الفضيحة أن تجعلك في الواجهة.

بعد حادثة الصحافة المشؤومة وما انجر عنها من تداعيات خطرة اعتراني خوف كبير. خوف من الذين يسيؤون فهمي. خوف من الذين يتعمدون النيل مني. خوف من السلطات والاعتقال والتحقيق. خوف من التعذيب والاغتيال والتصفية. خوف من الأنفاس التي تحسب علي أو تلك التي سأحاسب عليها.

الجميع يتكالب ضدي وهم يُعِدونني لساحة الإعدام، كما حشدوا الحشود وشحنوا التُبع وجعلوا منهم شاهدا على المهزلة التي لن تنتهي إلا بموتي.



محمد جعفر

- كاتب من الجزائر.
- صدر له عن ضفاف:











جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل و فرات.كوم www.nwf.com - www.neelwafurat.com